http://www.shamela.ws

تم إعداد هذا الملف آليا بواسطة المكتبة الشاملة

الكتاب : التفسير المنير فى العقيدة والشريعة والمنهج

المؤلف : وهبة بن مصطفى الزحيلى

الموضوع : فقهى و تحليلى

القرن : الخامس عشر

الناشر : دار الفكر المعاصر

مكان الطبع : بيروت دمشق

سنة الطبع : ١٤١٨ ق

تنبيه [الترقيم داخل الصفحات موافق للمطبوع]

وَ أَوْحَيْنا إِلى أُمِّ مُوسى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧) فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَناً إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهامانَ وَجُنُودَهُما كانُوا خاطِئِينَ (٨) وَقالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لا تَقْتُلُوهُ عَسى أَنْ يَنْفَعَنا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (٩) وَأَصْبَحَ فُؤادُ أُمِّ مُوسى فارِغاً إِنْ كادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْ لا أَنْ رَبَطْنا عَلى قَلْبِها لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠) وَقالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (١١)

وَ حَرَّمْنا عَلَيْهِ الْمَراضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ ناصِحُونَ (١(٢) فَرَدَدْناهُ إِلى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُها وَلا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (١(٣) وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوى آتَيْناهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٤)

ج ٢٠ ، ص : ٦١

الإعراب :

فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ .. اللام في لِيَكُونَ يسميها البصريون لام العاقبة ، أي كان عاقبة التقاطهم العداوة والحزن ، وإن لم يكن التقاطهم له لهما. ويسميها الكوفيون لام الصيرورة ، أي صار لهم عدوا وحزنا ، وإن التقطوه لغيرهما.

قُرَّتُ عَيْنٍ .. إما خبر مبتدأ محذوف ، أي هو قرة عين ، وإما مبتدأ ، وخبره :

لا تَقْتُلُوهُ.

وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ الجملة حال من الملتقطين.

إِنْ كادَتْ مخففة من الثقيلة ، واسمها محذوف أي إنها.

بَلَغَ أَشُدَّهُ إما جمع شدّة كنعمة وأنعم ، وإما جمع شدّ ، نحو قدّ وأقدّ ، وإما واحد مفرد ، وليس في الأسماء المفردة ما هو على وزن أفعل إلا « أصبغ » و « آجر » و « أيمن » وآنك : وهو الرصاص المذاب الخالص.

البلاغة :

إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ عبر بالجملة الاسمية عن الفعلية : سنرده ونجعله ، للاعتناء بالبشارة لأن الجملة الاسمية تفيد الثبوت والاستمرار.

لَوْ لا أَنْ رَبَطْنا عَلى قَلْبِها استعارة ، شبه ما ألقى في قلبها من الصبر بربط الشيء خشية ضياعه ، مستعيرا لفظ الربط للصبر.

لا تَقْتُلُوهُ خاطبت امرأة فرعون زوجها بصيغة الجمع بدل صيغة المفرد « لا تقتله » للتعظيم.

وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ وَهُمْ لَهُ ناصِحُونَ وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ توافق الفواصل من المحسنات البديعية.

المفردات اللغوية :

وَأَوْحَيْنا وحي إلهام ، مثل وَأَوْحى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ [النحل ١٦/ ٦٨] أو وحي منام. أَنْ أَرْضِعِيهِ ما أمكنك إخفاؤه. فَإِذا خِفْتِ عَلَيْهِ بأن يحسّ به أحد. الْيَمِّ البحر أي النيل. وَلا تَخافِي غرقه. وَلا تَحْزَنِي لفراقه ، والخوف : غم لتوقع مكروه في المستقبل ، والحزن : غم يحدث بسبب مكروه حصل. إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ عن قريب بحيث تأمنين

ج ٢٠ ، ص : ٦٢

عليه. وَجاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ بشارة بالرسالة والنبوة. فأرضعته ثلاثة أشهر ، ولما ألح فرعون في طلب المواليد وأرسل الجواسيس للبحث ، وضعته في تابوت مطلي بالقار من الداخل ، وألقته في بحر النيل ليلا. فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ الالتقاط : أخذ الشيء فجأة من غير طلب له ولا إرادة. أي التقط أعوان فرعون التابوت صبيحة الليل ، ووضعوه بين يديه ، ففتحه وأخرج موسى منه.

لِيَكُونَ لَهُمْ في عاقبة الأمر. عَدُوًّا ينقض لهم جذور تدينهم. وَحَزَناً يزيل ملكهم ، وحزن : اسم فاعل من حزن كأحزن ، وقرئ « حزنا » .

وَهامانَ وزير فرعون. خاطِئِينَ آثمين عاصين ، من الخطيئة وهي هنا الشرك ، مأخوذ من خطئ : تعمد الخطأ. أما أخطأ : فمعناه لم يصب ، بغير تعمد. وَقالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ وقد همّ مع أعوانه بقتله. قُرَّتُ

عَيْنٍ أي هو قرة عين ، أي مصدر فرح وسرور ، يقال : قرّت به العين ، أي فرحت وسرّت. لا تَقْتُلُوهُ خطاب بلفظ الجمع للتعظيم. عَسى أَنْ يَنْفَعَنا فإن فيه مخايل اليمن ودلائل النفع. أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً أو نتبناه ، فإنه أهل له. هُمْ لا يَشْعُرُونَ أي والحال أنهم لا يشعرون بعاقبة أمرهم معه ، وأنهم مخطئون في التقاطه وفي طمع النفع منه.

وَأَصْبَحَ فُؤادُ أُمِّ مُوسى فارِغاً أي خاليا من العقل ، لما دهمها من الخوف والحيرة حين سمعت بوقوعه في يد فرعون عدو بني إسرائيل ، مثل قوله تعالى : وَأَفْئِدَتُهُمْ هَواءٌ [إبراهيم ١٤/ ٤٣] أي لا عقول فيها. إِنْ كادَتْ لَتُبْدِي بِهِ أي لتظهر بأنه ابنها. لَوْ لا أَنْ رَبَطْنا عَلى قَلْبِها بالصبر ، أي سكّناه وثبتناه. لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ المصدقين بوعد اللّه.

وجواب لَوْ لا دل عليه ما قبله.

قُصِّيهِ اقتفي أثره وتتبعي خبره حتى تعلمي مصيره. فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ أي أبصرته عن بعد اختلاسا. وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ لا يدرون أنها أخته وأنها ترقبه. وَحَرَّمْنا عَلَيْهِ الْمَراضِعَ مِنْ قَبْلُ قبل رده إلى أمه ، أي منعناه أن يرتضع من المرضعات ، فلم يقبل ثدي واحدة من المراضع المحضرة له. فَقالَتْ أخته. هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ أي يتكفلون أو يضمنون إرضاعه والقيام بشؤونه لأجلكم. وَهُمْ لَهُ ناصِحُونَ لا يقصرون في إرضاعه وتربيته.

كَيْ تَقَرَّ عَيْنُها بلقائه. وَلا تَحْزَنَ حينئذ بفراقه. وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ لتعلم علم مشاهدة أن وعد اللّه برده إليها صدق. وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ أي ولكن أكثر الناس لا يعلمون بهذا الوعد ، ولا بأن هذه أخته وهذه أمه ، فمكث عندها إلى أن فطمته ، ثم تربى عند فرعون.

وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ غاية نموه ، وهو مفرد جاء على وزن الجمع ، وبلوغ الأشد : من ثلاثين إلى أربعين سنة ، فإن العقل يكمل حينئذ. وَاسْتَوى اكتملت أو نضجت قواه الجسدية والعقلية

ج ٢٠ ، ص : ٦٣

ببلوغ أربعين سنة. آتَيْناهُ حُكْماً حكمة أي معرفة أسرار الشريعة. وَعِلْماً فقها في الدين.

وَكَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ أي كما جزيناه نجزي المحسنين لأنفسهم.

التفسير والبيان :

بعد بيان منة اللّه على بني إسرائيل بإنقاذهم من بأس فرعون في قوله تعالى :

وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا ابتدأ تعالى بذكر أوائل نعمه عليهم فقال : وَأَوْحَيْنا إِلى أُمِّ مُوسى أَنْ أَرْضِعِيهِ أي وألهمنا أم موسى إرضاعه ما أمكنها إخفاؤه عن العدو ، فأرضعته ثلاثة أو أربعة أشهر كما

يقال.

فَإِذا خِفْتِ عَلَيْهِ ، فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ ، وَلا تَخافِي وَلا تَحْزَنِي أي فإذا خفت عليه من القتل بسبب سماع أحد من الجيران صوته ، فألقيه في بحر النيل ، ولكن لا تخافي عليه حينئذ من الغرق ومن الضياع ومن الوقوع في يد بعض جواسيس فرعون الذين يبحثون عن الولدان ، وغير ذلك من المخاوف ، ولا تحزني لفراقه.

وهكذا طمأنها الحق تعالى عن مخاوفها وهواجسها الجديدة بعد إلقائه في البحر ، بإلقاء الأمان والسكينة في قلبها لأن عناية اللّه ورعايته تحوط بأنبيائه ورسله منذ بدء الحمل وفي عهد الطفولة.

(٢٠/٦٣)

و ذلك أنه كانت دارها على حافة النيل ، فاتخذت تابوتا ، ومهدت فيه مهدا ، فلما كان ذات يوم دخل عليها من تخافه ، فذهبت فوضعته في ذلك التابوت ، وألقته في النيل ، فذهب مع الماء واحتمله على سطحه ، حتى مرّ به على دار فرعون ، فالتقطه الجواري وذهبن به إلى امرأة فرعون آسية بنت مزاحم ، فلما كشفت عنه ، أوقع اللّه محبته في قلبها ، فآثرت الإبقاء عليه ، ولم تزل تكلم فرعون حتى تركه لها.

إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ أي إنا سنرده عليك لتكوني أنت المرضعة له ، وسنجعله نبيا مرسلا إلى أهل مصر والشام.

ج ٢٠ ، ص : ٦٤

و قد جمعت هذه الآية الواحدة بين أمرين ونهيين ، وخبرين وبشارتين والأمران : هما أرضعيه وألقيه ، والنهيان : هما وَلا تَخافِي وَلا تَحْزَنِي ، والخبران : هما إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجاعِلُوهُ ، والبشارتان : في ضمن الخبرين ، وهما الرد والجعل من المرسلين.

فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَناً أي فأخذه أهل فرعون ، لتكون عاقبة أمره أن يكون عدوا لهم بمجاهدته بمخالفة دينهم ، وموقعا لهم في الحزن بإغراقهم وزوال ملكهم.

ولام لِيَكُونَ لام العاقبة ، وليست لام التعليل لأنهم لم يريدوا قطعا بالتقاطه ذلك ، ولكن اللّه جعل دمارهم بما صنعت أيديهم ، فالتقطوه وربوه ، ليكون في نهاية أمره سببا لمأساتهم وتحقق ما توقعوه من زوال ملكهم. قال الرازي : واعلم أن التحقيق ما ذكره صاحب الكشاف وهو أن هذه اللام هي لام التعليل ، على سبيل المجاز دون الحقيقة لأن مقصود الشيء وغرضه يؤول إليه أمره ، فاستعملوا هذه اللام فيما يؤول إليه الشيء على سبيل التشبيه ، فإن اتخاذه عدوا لم يكن سبب التقاطهم له ، ولكن

شبهت المحبة والتبني بالسبب الذي يؤدي إلى الفعل ، ويفعل الفعل لأجله ، كاستعارة الأسد للرجل الشجاع.

(٢٠/٦٤)

و سبب ذلك على يد موسى عليه السلام هو ما قاله تعالى :

إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهامانَ وَجُنُودَهُما كانُوا خاطِئِينَ أي إن هؤلاء كانوا مذنبين مجرمين ، فعاقبهم اللّه بأن ربّى عدوهم ومن هو سبب هلاكهم على أيديهم ، فهو من الخطيئة أي الإثم ، ويصح أن يكون من الخطأ فإنهم كانوا مخطئين في كل شيء ، فليس خطؤهم في تربية عدوهم ببدع منهم. قال الحسن البصري : معنى كانُوا خاطِئِينَ ليس من الخطيئة ، بل المعنى : وهم لا يشعرون أنه الذي يذهب بملكهم.

ج ٢٠ ، ص : ٦٥

أما جمهور المفسرين فقالوا : معناه كانوا خاطئين فيما كانوا عليه من الكفر والظلم ، فعاقبهم اللّه تعالى بأن ربي عدوهم ومن هو سبب هلاكهم على أيديهم ، كما ذكرنا.

وأما سبب عدم قتله فهو تشفع امرأة فرعون له ، فقال تعالى :

وَقالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ : قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ ، لا تَقْتُلُوهُ أي قالت زوجة فرعون له : هو قرة عين لنا أي يكون لنا سلوى ، وتقرّ به عيوننا ، وتفرح به نفوسنا ، فلا تقتلوه ، لأن اللّه تعالى ألقى عليه المحبة ، فكان يحبه كل من شاهده عليه السلام ، كما قال سبحانه : إِذْ أَوْحَيْنا إِلى أُمِّكَ ما يُوحى ، أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ ، فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ ، فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ ، وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي ، وَلِتُصْنَعَ عَلى عَيْنِي [طه ٢٠/ ٣٨- ٣٩].

وكما هو مصدر سرور وسكن وسلوى قد يكون نافعا :

(٢٠/٦٥)

عَسى أَنْ يَنْفَعَنا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً ، وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ أي لعله يكون سببا للنفع والخير ، لما رأيت فيه من مخايل اليمن وأمارات النجابة ، أو نتخذه ولدا ونتبناه ، لما يتمتع به من الوسامة والجمال ، ولم يكن لها ولد من فرعون ، فحقق اللّه أملها بأن هداها به وأسكنها الجنة بسببه ، ولكن لا يشعر فرعون وقومه أن هلاكهم بسببه وعلى يده ، وأنه سيظهر على يديه من الحكمة والحجة ومعجزة النبوة ما سيكون سببا في تكذيبهم له ، مما يؤدي إلى هلاكهم ، فاللّه تعالى وحده عالم الغيب والشهادة ، ينصر رسله ، ويؤيد دينه ، ويخذل أعداءه ، ليكون ذلك عبرة وعظة للمؤمن والكافر.

وإذا كان الفرح غمر قلب آسية امرأة فرعون ، فإن الوساوس والهواجس ألمت بقلب أمه ، فقال تعالى :

ج ٢٠ ، ص : ٦٦

وَ أَصْبَحَ فُؤادُ أُمِّ مُوسى فارِغاً ، إِنْ كادَتْ لَتُبْدِي بِهِ ، لَوْ لا أَنْ رَبَطْنا عَلى قَلْبِها ، لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أي أصبح فؤاد أم موسى حين ذهب ولدها في البحر فارغا من كل شيء من شواغل الدنيا إلا من موسى ، كما أنه طار عقلها ، وسيطر عليها الخوف والفزع ، حين سمعت بوقوعه في يد فرعون ، وكادت من شدة حزنها وأسفها أن تظهر أنه ذهب لها ولد ، وتخبر بحالها أنها أمه ، لو لا أن اللّه ثبّتها وصبّرها ، لتكون من المصدقين الواثقين بوعد اللّه برده إليها : إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ.

والخلاصة : لو لا تثبيت اللّه قلبها وتصبيره إياها لكشفت أمرها ، وباحت بسرها ، وأظهرت أنه ابنها ، بحكم العاطفة والشفقة ، فألهمها اللّه أن تتعرف خبره بأخته :

(٦٦/٢٠)

وَ قالَتْ لِأُخْتِهِ : قُصِّيهِ ، فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ ، وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ أي وقالت أم موسى لابنتها الكبيرة التي تعي ما يقال لها : تتبعي أثره ، وتعرفي خبره ، واطلبي شأنه من نواحي البلد ، فخرجت لذلك ، فهداها اللّه لمقرّ وجوده في بيت فرعون ، وأبصرته عن بعد أو من بعيد ، وهم لا يحسون بأنها تتعقبه ، وتتعرف حاله ، وأنها أخته.

وتتابعه عناية اللّه ويسوقه القدر إلى إرجاعه لمهد أمه ، فقال تعالى :

وَحَرَّمْنا عَلَيْهِ الْمَراضِعَ مِنْ قَبْلُ ، فَقالَتْ : هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ ، وَهُمْ لَهُ ناصِحُونَ ؟ أي ومنعنا موسى أن يرضع ثديا غير ثدي أمه قبل رده إلى أمه وقبل مجيء أخته ، لكرامته عند اللّه وصيانته له أن يرتضع غير ثدي أمه ، والتحريم : استعارة للمنع ، لأن من حرم عليه الشيء فقد منعه.

فقالت أخته لما رأت ارتباكهم واهتمامهم برضاعه : أتريدون أن أدلكم على أهل بيت يتكفلون بشأنه وإرضاعه وتربيته ، وهم حافظون له ، ناصحون ، يعنون بخدمته والمحافظة عليه ؟

ج ٢٠ ، ص : ٦٧

قال ابن عباس : فلما قالت ذلك ، أخذوها وشكّوا في أمرها ، وقالوا لها :

وما يدريك بنصحهم له وشفقتهم عليه ؟ فقالت لهم : نصحهم له وشفقتهم عليه رغبتهم في سرور الملك ، ورجاء منفعته ، أي عطائه ، فلما قالت لهم ذلك ، وخلصت من أذاهم ، ذهبوا معها إلى منزلهم ، فدخلوا به على أمه ، فأعطته ثديها ، فالتقمه ، ففرحوا بذلك فرحا شديدا ، وذهب البشير إلى امرأة الملك ، فاستدعت أم موسى ، وأحسنت إليها ، وأعطتها عطاء جزيلا ، وهي لا تعرف أنها أمه في الحقيقة ، ولكن لكونه وافق ثديها.

ثم سألتها آسية أن تقيم عندها ، فترضعه ، فأبت عليها وقالت : إن لي بعلا وأولادا ، ولا أقدر على المقام عندك ، ولكن إن أحببت أن أرضعه في بيتي فعلت ، فأجابتها امرأة فرعون إلى ذلك ، وأجرت عليها النفقة والصلات والكسا والإحسان الجزيل ، فرجعت أم موسى بولدها راضية مرضية قد أبدلها اللّه بعد خوفها أمنا ، في عز وجاه ورزق دارّ « ١ » .

جاء في الحديث : « مثل الذي يعمل ويحتسب في صنعته الخير كمثل أم موسى ، ترضع ولدها ، وتأخذ أجرها » .

فَرَدَدْناهُ إِلى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُها وَلا تَحْزَنَ ، وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ أي فأرجعناه إلى أمه بعد التقاط آل فرعون له ، من أجل أن تقر عينها بابنها وتسرّ بوجوده لديها وسلامته عندها ، ولا تحزن عليه بفراقه ، ولتتيقن أن وعد اللّه فيما وعدها من رده إليها حق لا شك فيه حين قال لها : إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ ، وَجاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ فحينئذ تحققت برده إليها أنه كائن رسولا ، فعاملته في تربيته ما ينبغي له طبعا وشرعا من كمال الأخلاق.

وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ أي ولكن أكثر الناس لا يعلمون حكم اللّه في

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ٣٨٢.

أفعاله وعواقبها المحمودة في الدنيا والآخرة ، فربما كان الأمر كريها إلى النفوس في الظاهر ، محمود العاقبة في الحقيقة ونفس الأمر ، كما قال تعالى : وَعَسى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً ، وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ، وَعَسى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ [البقرة ٢/ ٢١٦] وقال تعالى : فَعَسى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً ، وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً [النساء ٤/ ١٩].

وَ لَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوى ، آتَيْناهُ حُكْماً وَعِلْماً ، وَكَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ أي ولما اكتملت قواه الجسدية والعقلية آتيناه الحكمة والعلم وفقه الدين وعلم الشريعة ، ومثل ذلك الذي فعلنا بموسى وأمه نجزي المحسنين على إحسانهم. وقد رجح الرازي أن المراد بالحكم هنا الحكمة والعلم ، لا النبوة « ١ » .

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يأتي :

١- قد يطلق الوحي على الإلهام لأن الوحي لا يكون إلا لنبي ، وقد أجمع العلماء على أن أم موسى وأم عيسى لم تكن واحدة منهما نبية ، وإنما ذلك من قبيل الإلهام ، كإلهام النحل اتخاذ البيوت.

وقد ألهم اللّه أم موسى بعد ولادته أن ترضعه ، فإذا خافت عليه من القتل ألقته في البحر ، دون خوف عليه من الغرق ولا حزن على فراقه ، فإن اللّه تكفل برده إليها وبجعله من الأنبياء المرسلين إلى أهل مصر.

٢- قد يقصد الإنسان شيئا ويحدث شيء آخر ، فإن أهل فرعون التقطوا موسى الصغير ليكون لهم قرّة عين ، فكان عاقبة ذلك أن كان لهم عدوا وحزنا ، وللّه في خلقه شؤون.

---

(١) تفسير الرازي ٢٤/ ٢٣٢.

٣- كان إنقاذ موسى من البحر سببا في إسعاد الناس برسالته وإنزال التوراة عليه ، وهداية آسية امرأة فرعون إلى الإيمان باللّه تعالى ، بعد أن أقنعت زوجها فرعون بإبقائه وعدم قتله رجاء أن يكون مصدر نفع لهم أو أن يتبنوه ، علما بأنها كانت لا تلد ، فاستوهبت موسى من فرعون ، فوهبه لها ، وكان فرعون لما رأى الرؤيا وقصها على كهنته وعلمائه ، قالوا له : إن غلاما من بني إسرائيل يفسد ملكك فأخذ بني إسرائيل بذبح الأطفال ، فرأى أنه يقطع نسلهم ، فعاد يذبح عاما ويستحيي عاما ، فولد هارون في عام الاستحياء (إبقاء الأولاد) وولد موسى في عام الذبح. يروى أن آسية امرأة فرعون رأت التابوت يعوم في البحر ، فأمرت بسوقه إليها وفتحه ، فرأت فيه صبيا صغيرا ، فرحمته وأحبته ، فقالت لفرعون : قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ.

٤- لا يشعر الناس بتدبير اللّه وتخطيطه ، وقد تكرر ذلك المعنى في الآيات فقال تعالى : وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ [٩] أي وهم لا يشعرون أن هلاكهم بسببه ، ثم كرر تعالى ذلك في الآية [١١] ثم قال : وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ.

٥- هجمت الوساوس والمخاوف والهواجس على قلب أم موسى ، وطار عقلها لوقوع ابنها في يد فرعون عدو الإسرائيليين ، وقاربت أن تظهر أمره لو لا أن ثبّتها اللّه وصبّرها وملأ قلبها بالإيمان والاطمئنان والسكينة ، لتكون من المصدقين بوعد اللّه حين قال لها : إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ.

٦- كان لأخت موسى الذكية الحصيفة مريم بنت عمران كاسم مريم أم عيسى عليه السلام دور طيب

ناجح في إقناع حاشية فرعون وامرأته بمن يقبل ثديها من النساء ، لحاجتها إلى عطاء الملك ، وطيبها وطيب رائحتها ، دون أن يشعروا أنها أخته ، لأنها كانت تمشي على ساحل البحر ، حتى رأتهم قد أخذوه ، فأرشدتهم بلباقة إلى أهل بيت يكفلونه ، وهم للملك ناصحون ، يحرصون على مسرّته ، ويطمعون في عطائه.

ج ٢٠ ، ص : ٧٠

(٧٠/٢٠)

٧- إن تدبير اللّه الخفي الذي لا يصلح غيره في أي شيء أشد نفاذا وأنجح خطة من تدبير البشر ، فقد منع موسى الطفل من الارتضاع من قبل مجيء أمه وأخته ، ثم رده إليها ، وفاء بوعده لها ، وكان قد عطف اللّه قلب العدو عليه ، ولتعلم أن وعد اللّه حق ، أي لتعلم وقوعه ، فإنها كانت عالمة بأن رده إليها سيكون.

٨- لم يؤت اللّه النبوة لأحد غير يحيى وعيسى عليهما السلام قبل بلوغ سن الأربعين الذي تكتمل فيه القوى العقلية والجسمية ، وتحقيق هذا في شأن موسى ، فإنه لما بلغ أشده ، أي غاية نموه ، ونضج وبلغ أربعين سنة آتاه اللّه النبوة والحكمة قبل النبوة والعلم والفقه في الدين ، يروى أنه لم يبعث نبي إلا على رأس أربعين سنة.

وكما جزى اللّه موسى على طاعته وصبره على أمر ربه ، وجزى أم موسى لما استسلمت لأمر اللّه ، وألقت ولدها في البحر ، وصدّقت بوعد اللّه ، فرد ولدها إليها وهي آمنة ، ووهب له العقل والحكمة والنبوة ، كذلك يجزي كل محسن.

الخلاصة : أن هذا الفصل من قصة موسى عليه السلام بيان لما أنعم اللّه عليه في صغره من إنجائه من القتل والغرق في النيل ، وما أنعم عليه في كبره من إيتائه العلم والحكمة والنبوة والرسالة إلى بني إسرائيل والمصريين ، كما قال تعالى : وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرى ، إِذْ أَوْحَيْنا إِلى أُمِّكَ ما يُوحى ، أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ ، فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ ، يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ ، وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلى عَيْنِي ، إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ : هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى مَنْ يَكْفُلُهُ ، فَرَجَعْناكَ إِلى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُها وَلا تَحْزَنَ .. [طه ٢٠/ ٣٧- ٤٠].

ج ٢٠ ، ص : ٧١

(٧١/٢٠)

- ٣- قتل المصري خطأ وخروجه من مصر [سورة القصص (٢٨) : الآيات ١٥ الى ٢١]

وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِها فَوَجَدَ فِيها رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلانِ هذا مِنْ شِيعَتِهِ وَهذا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسى فَقَضى عَلَيْهِ قالَ هذا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ (١٥) قالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٦) قالَ رَبِّ بِما أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ (١٧) فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خائِفاً يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قالَ لَهُ مُوسى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ (١٨) فَلَمَّا أَنْ أَرادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُما قالَ يا مُوسى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَما قَتَلْتَ نَفْساً بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلاَّ أَنْ تَكُونَ جَبَّاراً فِي الْأَرْضِ وَما تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ (١٩)

وَ جاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعى قالَ يا مُوسى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ (٢٠) فَخَرَجَ مِنْها خائِفاً يَتَرَقَّبُ قالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢١)

الإعراب :

هذا مِنْ شِيعَتِهِ وَهذا مِنْ عَدُوِّهِ أراد بالجملة حكاية حال كانت فيما مضى ، كقوله تعالى : وَكَلْبُهُمْ باسِطٌ ذِراعَيْهِ بِالْوَصِيدِ [الكهف ١٨/ ١٨] فأعمل اسم الفاعل ، وإن كان للماضي ، على حكاية الحال. وقوله : مِنْ عَدُوِّهِ أي من أعدائه ، وعدو : يصلح للواحد والجمع.

خائِفاً يَتَرَقَّبُ خبر أصبح المنصوب. ويجوز أن يكون فِي الْمَدِينَةِ خبرها ، وخائِفاً حال منصوب. والَّذِي مبتدأ مرفوع ، وخبره إما يَسْتَصْرِخُهُ وإما

فَإِذَا ويستصرخه في موضع نصب على الحال.

يَسْعى صفة رجل ، أو حال منه إذا جعل : من أقصى المدينة صفة له.

البلاغة :

رَبِّ بِما أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ استعطاف.

جَبَّاراً لَغَوِيٌّ مُبِينٌ صيغ مبالغة على وزن فعّال وفعيل. وكذلك الْغَفُورُ الرَّحِيمُ.

إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّاراً فِي الْأَرْضِ وَما تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ بينهما طباق أي بين « جبار » وهو المفسد في الأرض وبين كلمة الْمُصْلِحِينَ.

إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ التأكيد بإن واللام ليناسب مقتضى الحال ، ليجد موسى مخرجا.

المفردات اللغوية :

وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ أي دخل موسى مصر آتيا من قصر فرعون ، وقيل : منف مدينة فرعون ، أو عين شمس من نواحي مصر. عَلى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِها أي في وقت لا يعتاد دخولها ولا يتوقعونه فيه ، قيل : كان وقت القيلولة ، أو بين العشاءين. مِنْ شِيعَتِهِ إسرائيلي ، أي من حزبه وجماعته الذين شايعوه وتابعوه في الدين ، وهم بنو إسرائيل. وَهذا مِنْ عَدُوِّهِ قبطي ، أي من مخالفيه في الدين ، وهم القبط. فَاسْتَغاثَهُ طلب منه الغوث والنصرة والإعانة ، ولذلك عدّي بعلى ، وقرئ : فاستعانه. فَوَكَزَهُ فضرب القبطي بجمع كفه أي بيده ، وكان شديد القوة والبطش ، وقرئ : فلكزه ، أي فضرب به صدره. فَقَضى عَلَيْهِ قتله خطأ ، فأنهى حياته ، ولم يكن قصد قتله ، ودفنه في الرمل.

(٧٣/٢٠)

هذا أي قتله. مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ أي من تزيينه الذي هيج غضبي. ولا يقدح ذلك في عصمته لكونه خطأ ، وسماه ظلما ، واستغفر منه ، لاستعظام الصغائر ، بل وكان ذلك قبل النبوة في عهد الشباب ، في سن دون الثلاثين لأنه أوحي عليه في سن الأربعين بعد زواجه بابنة شعيب في مدين ، ورعيه الماشية عشر سنوات. إِنَّهُ عَدُوٌّ لابن آدم. مُضِلٌّ موقع في الضلال والخطأ. مُبِينٌ ظاهر العداوة والإضلال.

قالَ موسى نادما. ظَلَمْتُ نَفْسِي بقتله. فَاغْفِرْ لِي فاستر ذنبي. فَغَفَرَ لَهُ باستغفاره. الْغَفُورُ لذنوب عباده. الرَّحِيمُ بهم. رَبِّ بِما أَنْعَمْتَ عَلَيَّ أي بحق

ج ٢٠ ، ص : ٧٣

إنعامك علي بالمغفرة اعصمني فهو استعطاف ، أو هو قسم محذوف الجواب ، أي أقسم بإنعامك علي بالمغفرة وغيرها لأتوبن. فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ أي فلن أكون معينا لمن أجرم بعد هذه إن عصمتني.

خائِفاً يَتَرَقَّبُ ينتظر ما يناله من أذى أي استقادة أو قود (قصاص). اسْتَنْصَرَهُ طلب نصره وعونه. يَسْتَصْرِخُهُ يستغيث به على قبطي آخر. لَغَوِيٌّ ضال. مُبِينٌ بيّن الغواية. فَلَمَّا أَنْ زائدة. يَبْطِشَ يضرب بسطوة وقوة وصولة. بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُما لموسى والمستغيث به. قالَ القبطي المصري ، أو قال الإسرائيلي المستغيث لأنه سماه غويا ، فظن أنه يبطش به. إِنْ تُرِيدُ ما تريد. جَبَّاراً فِي الْأَرْضِ تتطاول على الناس ولا تنظر العواقب. مِنَ الْمُصْلِحِينَ يبغون الإصلاح بين الناس ، فتدفع التخاصم بالتي هي أحسن. ولما قال هذا سمع القبطي ، وانتشر الحديث وبلغ الخبر إلى فرعون وملئه ، فعلم أن القاتل موسى ، فأخبر فرعون بذلك ، فأمر فرعون الذبّاحين بقتل موسى ، فهموا بقتله.

وَجاءَ رَجُلٌ هو مؤمن آل فرعون. أَقْصَى الْمَدِينَةِ آخرها أو من أبعد جهاتها.

(٧٤/٢٠)

يَسْعى يسرع في مشيه من طريق أقرب من طريقهم. إِنَّ الْمَلَأَ أشراف قوم فرعون.
يَأْتَمِرُونَ بِكَ يتشاورون فيك ، وسميت المشاورة ائتمارا ، لأن كلا من المتشاورين يأمر الآخر ويأتمر به.
فَاخْرُجْ من المدينة. إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ في الأمر بالخروج. واللام للبيان ، وليس صلة للناصحين لأن معمول الصلة لا يتقدم الموصول. يَتَرَقَّبُ يتلفّت يمنة ويسرة.

المناسبة :

بعد بيان ما أنعم اللّه به على موسى عليه السلام من إنجائه صغيرا من الذبح على يد فرعون ، وإيتائه الحكمة والعلم كبيرا تهيئة للنبوة ، ذكر ما أنعم به عليه من الخروج آمنا من مصر بعد قتله قبطيا مصريا ، كان سبب خروجه من الديار المصرية إلى بلاد مدين.

التفسير والبيان :

وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِها أي ودخل موسى المدينة التي كان يسكنها فرعون ، وهي قرية على بعد فرسخين من مصر ، هي- كما قال

ج ٢٠ ، ص : ٧٤

الضحاك- عين شمس ، وذلك في وقت لا يتوقع دخوله فيها ، وهو إما وقت القيلولة في نصف النهار وقت الظهيرة والناس نيام ، أو ما بين المغرب والعشاء.

فَوَجَدَ فِيها رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلانِ ، هذا مِنْ شِيعَتِهِ ، وَهذا مِنْ عَدُوِّهِ ، فَاسْتَغاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ ، فَوَكَزَهُ مُوسى فَقَضى عَلَيْهِ ، قالَ : هذا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ أي فوجد موسى في تلك المدينة رجلين يتضاربان ويتنازعان ، أحدهما إسرائيلي من حزبه وجماعته ، والآخر قبطي مصري مخالف لموسى في العقيدة والدين ، وهو طباخ فرعون ، كان قد طلب منه أن يحمل حطبا للمطبخ فأبى ، فطلب الإسرائيلي من موسى النجدة والعون على عدوه القبطي ، فضربه موسى بيده ، فقضي عليه ، أي كان الضرب مفضيا إلى الموت ، وواراه التراب ، دون أن يعلم بذلك أحد إلا الرجل العبراني الذي نصره موسى.

ثم ندم موسى على ما فعل ، فقال : هذا الحادث من تزيين الشيطان وإغرائه.

إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ أي إن الشيطان عدو للإنسان ، مضل له أي موقع له في الضلال والخطأ ، بيّن العداوة والإضلال ، ثم تاب من فعله فقال :

قالَ : رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي أي قال موسى : يا رب ، إني ظلمت نفسي بهذا الفعل ، وهو

قتل نفس بريئة ، فاستر لي ذنبي ، ولا تؤاخذني بما جنت يدي ، فإني أتوب إليك ، وأندم على فعلي. وقد عدّ ذلك ذنبا ، لأن القتل لا يحل أصلا ، وذلك معروف من شرائع الأنبياء المتقدمين. قال النقاش : لم يقتله عن عمد مريدا للقتل ، وإنما وكزه وكزة يريد بها دفع ظلمه ، وإن هذا كان قبل النبوة.

روى مسلم عن سالم بن عبد اللّه أنه قال : يا أهل العراق! ما أسألكم عن الصغيرة ، وأركبكم للكبيرة! سمعت أبي عبد اللّه بن عمر يقول : سمعت

ج ٢٠ ، ص : ٧٥

رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم يقول : « إن الفتنة تجيء من هاهنا- وأومأ بيده نحو المشرق- من حيث يطلع قرنا الشيطان ، وأنتم بعضكم يضرب رقاب بعض ، وإنما قتل موسى الذي قتل من آل فرعون خطأ ، فقال اللّه عز وجل : وَقَتَلْتَ نَفْساً ، فَنَجَّيْناكَ مِنَ الْغَمِّ ، وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً » .

فَغَفَرَ لَهُ ، إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ أي فعفا عنه وقبل توبته ، إنه تعالى الستار لذنوب عباده المنيبين إليه ، الرحيم بهم أن يعاقبهم بعد التوبة والإنابة ، فشكر موسى ربه :

قالَ : رَبِّ بِما أَنْعَمْتَ عَلَيَّ ، فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ أي قال موسى : يا رب اعصمني من الخطأ بحق ما أنعمت علي من المعرفة والحكمة والتوحيد ، ومن الجاه والعز والنعمة ، فلن أكون إن عصمتني معينا لمن ظلم وأجرم وأشرك. أو أقسم بإنعامك علي بهذه النعم الكثيرة لأتوبن ، ولن أناصر المشركين.

(٧٦/٢٠)

قال القشيري : ولم يقل لما أنعمت علي من المغفرة لأن هذا قبل الوحي ، وما كان عالما بأن اللّه غفر له ذلك القتل.

وذكر الماوردي وغيره أن الإنعام بالمغفرة أو الهداية. قال القرطبي : فَغَفَرَ لَهُ يدل على المغفرة ، واللّه أعلم.

وأراد بمظاهرة المجرمين : إما صحبة فرعون وانتظامه في جملته ، وتكثير سواده ، حيث كان يركب بركوبه كالولد مع الوالد ، وكان يسمى ابن فرعون وإما بمظاهرة من أدّت مظاهرته إلى الجرم والإثم ، كمظاهرة الإسرائيلي المؤدية إلى القتل الذي لم يحل له قتله.

ونظير الآية قوله تعالى : وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا ، فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ [هود ١١/ ١١٣].

ج ٢٠ ، ص : ٧٦

فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خائِفاً يَتَرَقَّبُ ، فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ ، قالَ لَهُ مُوسى : إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ أي فصار موسى بعد حادثة قتل القبطي المصري خائفا من أن يظهر أنه هو القاتل ، فيطلب به ، وصار يتلفت ويتوقع أن يقتل بسبب جنايته ، فسار في بعض الطرق متخفيا مستترا ، فإذا ذلك

الإسرائيلي الذي استنصره بالأمس على المصري ، يطلب منه العون والغوث على مصري آخر ، فقال له موسى : إنك ظاهر الغواية ، كثير الفساد والشر والضلال.

(٧٧/٢٠)

فَلَمَّا أَنْ أَرادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُما ، قالَ : يا مُوسى : أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَما قَتَلْتَ نَفْساً بِالْأَمْسِ أي فلما أراد موسى زجر عدوهما وهو القبطي ، قال له مستنكرا مستهجنا : أتريد الإقدام على قتلي كما قتلت نفسا البارحة ، وقد كان عرف القصة من الإسرائيلي ، قال الرازي : والظاهر هذا الوجه لأنه تعالى قال : فَلَمَّا أَنْ أَرادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُما ، قالَ : يا مُوسى فهذا القول إذن منه ، لا من غيره ، وأيضا فقوله : إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّاراً فِي الْأَرْضِ لا يليق إلا بأن يكون قولا للكافر.

وقال بعضهم : لما خاطب موسى الإسرائيلي بأنه غوي مبين ، ورآه على غضب ، ظن- لما همّ بالبطش- أنه يريده لخوره وضعفه وذلته ، فقال هذا القول ، وصار ذلك سببا لظهور القتل ومزيد الخوف لأنه لم يكن يعلم بحادثة الأمس غير هذا العبري ، فلما سمعها ذلك القبطي ، نقلها إلى فرعون ، فاشتد حنقه وعزم على قتل موسى.

إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّاراً فِي الْأَرْضِ ، وَما تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ أي ما تريد يا موسى إلا أن تكون قتّالا بطاشا ، مستعليا ، كثير الأذى في الأرض ، دون أن تنظر في العواقب ، ولا تريد أن تكون من أهل

ج ٢٠ ، ص : ٧٧

الإصلاح الذين يفصلون في خصومات الناس بالحسنى والحكمة ، ولو كان أحد الخصوم من ذوي القربى أو العشيرة الواحدة.

(٧٨/٢٠)

وَ جاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعى قالَ : يا مُوسى ، إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ ، فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ أي وجاء رجل مؤمن من آل فرعون ، يخفي إيمانه عن الناس ، من أبعد مكان في المدينة ، يسرع ليخبر موسى بما دبره القوم من سوء له ، وقال : يا موسى ، إن فرعون وأشراف دولته يتشاورون فيك ، ويدبرون مؤامرة لقتلك ، فاخرج بسرعة من البلد ، إني لك ناصح أمين. ووصف بالرجولة لسلوكه طريقا أقرب من طريق المبعوثين وراء موسى.

فَخَرَجَ مِنْها خائِفاً يَتَرَقَّبُ أي فخرج موسى من مدينة فرعون خائفا على نفسه يتلفّت ، ويترقب متابعة

أحد له.

قالَ : رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ أي قال موسى في هذه المحنة الشديدة : رب نجني من هؤلاء الظالمين : فرعون وملئه ، فاستجاب اللّه دعاه ونجاه ووصل إلى مدين ، كما قال تعالى : وَقَتَلْتَ نَفْساً ، فَنَجَّيْناكَ مِنَ الْغَمِّ ، وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً [طه ٢٠/ ٤٠].

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يأتي :

١- وقوع حادثة قتل خطأ غير عمد من موسى عليه السلام.

٢- ندم موسى عليه السلام على ذلك الوكز (الضرب بجمع الكف مجموعا كعقد ثلاثة وسبعين) ونسب الفعل إلى الشيطان ، وقال : رب ، إني ظلمت نفسي ، فاغفر لي ، فغفر له ، وحمله ندمه على الخضوع لربه والاستغفار من ذنبه ، قال قتادة : عرف واللّه المخرج فاستغفر ثم لم يزل عليه السلام يعدّد ذلك

على نفسه ، مع علمه بأنه قد غفر له ، حتى إنه في القيامة يقول : إني قتلت نفسا لم أومر بقتلها. وكان ذلك القتل قبل النبوة ، كما عرفنا.

و القتل الخطأ ذنب ، بدليل إيجاب الكفارة عليه في شرعنا ، ولأنه لا يخلو عن إهمال أو تقصير أو تجاوز الحدود المألوفة ، قال تعالى : وَما كانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلَّا خَطَأً ، وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِناً خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ ، وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا [النساء ٤/ ٩٢].

٣- كان من توابع توبة موسى عليه السلام من فعله أنه أقسم بما أنعم اللّه عليه ألا يظاهر ولا يعاون مجرما.

ويصح أن يكون قوله : رَبِّ بِما أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ استعطافا كأنه قال : رب اعصمني بحق ما أنعمت علي من المغفرة أو غيرها من النعم كالمعرفة والحكمة والتوحيد ، فلن أكون إن عصمتني ظهيرا (معينا) للمجرمين.

٤- دلت آية فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ على أنه لا يجوز معاونة الظلمة والفسقة. قال عطاء : فلا يحل لأحد أن يعين ظالما ، ولا يكتب له ، ولا يصحبه ، وأنه إن فعل شيئا من ذلك فقد صار معينا للظالمين. و

في الحديث : « ينادي مناد يوم القيامة : أين الظلمة وأشباه الظلمة وأعوان الظلمة ، حتى من لاق لهم

دواة ، أو برى لهم قلما ؟ فيجمعون في تابوت من حديد ، فيرمى به في جهنم » .

و

في حديث آخر رواه الديلمي عن معاذ : « من مشى مع ظالم فقد أجرم »

و

يروى أيضا عن النبي صلّى اللّه عليه وسلم أنه قال : « من مشى مع مظلوم ليعينه على مظلمته ، ثبّت اللّه قدميه على الصراط يوم القيامة يوم تزلّ فيه الأقدام ، ومن مشى مع ظالم ليعينه على ظلمه ، أزلّ اللّه قدميه على الصراط يوم تدحض فيه الأقدام » .

٥- دل قوله تعالى : فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خائِفاً على أن الخوف غريزة

ج ٢٠ ، ص : ٧٩

في النفس البشرية ، وإن كان المرء قويا كموسى عليه السلام ، كما أن الخوف لا ينافي المعرفة باللّه ولا التوكل عليه ، وهو أيضا سبيل الأمان. وكان خوفه من الملاحقة والطلب ، فقد يؤخذ غرّة على حين غفلة.

٦- يوصف الشرير بأنه غوي (خائب) مبين ، ويوصف القاتل بأنه جبار ، أي قتّال ، قال عكرمة والشعبي : لا يكون الإنسان جبارا حتى يقتل نفسين بغير حق. والجبار : الذي يفعل ما يريد من الضرب والقتل بظلم ، لا ينظر في العواقب ، ولا يدفع بالتي هي أحسن.

٧- إن الإيمان رابطة وثيقة بين المؤمنين ، لذا بادر مؤمن آل فرعون وهو حزقيل بن صبور ، ابن عم فرعون إلى إخبار موسى عليه السلام بمكيدة فرعون وملئه له ، وأنهم يتشاورون في قتله بالقبطي الذي قتله بالأمس ، ونصحه بالخروج مسرعا من مدينة فرعون أو من مصر.

٨- شأن المؤمن دائما أن يلجأ إلى اللّه تعالى ، فقد خرج موسى عليه السلام من مصر ، خائفا يترقب الطلب ، قائلا : رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ.

فنجاه اللّه ووصل إلى بلاد مدين.

- ٤- ذهاب موسى عليه السلام إلى أرض مدين وزواجه بابنة شعيب عليه السلام [سورة القصص (٢٨) : الآيات ٢٢ الى ٢٨]

وَ لَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقاءَ مَدْيَنَ قالَ عَسى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَواءَ السَّبِيلِ (٢٢) وَلَمَّا وَرَدَ ماءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودانِ قالَ ما خَطْبُكُما قالَتا لا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعاءُ وَأَبُونا شَيْخٌ كَبِيرٌ (٢٣) فَسَقى لَهُما ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقالَ رَبِّ إِنِّي لِما أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (٢٤) فَجاءَتْهُ إِحْداهُما تَمْشِي عَلَى اسْتِحْياءٍ قالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ ما سَقَيْتَ لَنا فَلَمَّا جاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قالَ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢٥) قالَتْ إِحْداهُما يا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ (٢٦)

قالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هاتَيْنِ عَلى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِنْدِكَ وَما أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٢٧) قالَ ذلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلا عُدْوانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلى ما نَقُولُ وَكِيلٌ (٢٨)

ج ٢٠ ، ص : ٨٠

الإعراب :

حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعاءُ يُصْدِرَ بالضم : مضارع فعل رباعي ، والمفعول محذوف ، أي حتى يصدر الرعاء إبلهم ومواشيهم. وقرئ بالفتح على أنه مضارع فعل ثلاثي.

أَجْرَ ما سَقَيْتَ لَنا إِحْداهُما مصدرية ، أي أجر سقيك لنا ، وليست موصولة لأنها لو كانت موصولة ، كان المعنيّ بها الماء ، والأجر على السقي أو العمل لا على الماء أو العين.

تَمْشِي عَلَى اسْتِحْياءٍ جملة فعلية في موضع نصب على الحال من إِحْداهُما وعامله جاءت وعَلَى اسْتِحْياءٍ في موضع نصب على الحال من ضمير تَمْشِي وعامله تَمْشِي.

عَلى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمانِيَ حِجَجٍ أي تأجرني نفسك في ثماني سنوات ، وثَمانِيَ منصوب على الظرف.

أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلا عُدْوانَ عَلَيَّ أي : منصوب ب قَضَيْتُ وما : زائدة ، والْأَجَلَيْنِ مجرور بالإضافة ، وتقديره : أيّ الأجلين قضيت ، وقَضَيْتُ مجزوم

ج ٢٠ ، ص : ٨١

ب أَيَّمَا وفاء فَلا .. مع ما بعده مجزوم لأنه جواب الشرط ، والجملة : في موضع نصب مفعول قالَ.

ذلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ مبتدأ وخبر.

البلاغة :

رَبِّ إِنِّي لِما أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ استعطاف وترحم.

وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ بينهما جناس اشتقاق.

المفردات اللغوية :

تَوَجَّهَ قصد بوجهه تِلْقاءَ تجاه مَدْيَنَ قرية شعيب على مسيرة ثمانية أيام من مصر ، وسميت باسم مدين بن إبراهيم عَسى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَواءَ السَّبِيلِ أي قال ذلك توكلا على اللّه وحسن ظن به ، لأنه لم يكن يعرف طريقها ، وسواء السبيل : الطريق الأقوم ، والطريق الوسط إليها ، وكان هناك ثلاثة طرق ، فأخذ في أوسطها وَرَدَ ماءَ مَدْيَنَ وصل إلى بئر فيها كانوا يستقون منها وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً جماعة كثيرة من الناس مختلفين ، يسقون مواشيهم.

وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ سواهم تَذُودانِ تمنعان وتطردان أغنامهما عن الماء ، خوفا من السقاة الأقوياء قالَ موسى لهما ما خَطْبُكُما أي ما شأنكما لا تسقيان مع هؤلاء ؟ يُصْدِرَ الرِّعاءُ يصرف الرعاة مواشيهم عن الماء ، وحينئذ نسقي خوف الزحام ومزاحمة الرجال ، يقال :

صدر عن الماء مقابل ورد : انصرف عنه ، وقرئ : يصدر الرعاء أي يرجعون من سقيهم ، والرعاء : جمع راع وَأَبُونا شَيْخٌ كَبِيرٌ لا يقدر أن يسقي.

فَسَقى لَهُما مواشيهما من بئر أخرى بقربهما ، رحمة عليهما ، بأن رفع حجرا عنها لا يرفعه إلا عشرة أنفس أو سبعة ، بالرغم من تعبه وجوعه وجرح قدمه.

وَ

فرجعتايل :

ج ٢٠ ، ص : ٨٢

الكبرى ، واسمها صفوراء أو صفراء ، وهي التي تزوجها موسى لِيَجْزِيَكَ ليكافئك أو ليثيبك أَجْرَ ما سَقَيْتَ لَنا جزاء سقيك لنا. وقد أجابها موسى ليتبرك برؤية الشيخ ، ويستظهر بمعرفته ، لا طمعا في الأجر ، بل روي أنه لما جاءه قدم إليه طعاما ، فامتنع عنه ، وقال : إنا أهل بيت لا نبيع ديننا بالدنيا ، أو لا نطلب على عمل خير عوضا ، فأجابه شعيب : هذه عادتنا مع كل من ينزل بنا ، أو قال : لا ، عادتي وعادة آبائي نقري الضيف ، ونطعم الطعام. علما بأن من فعل معروفا ، فأهدي إليه شيء ، لم يحرم أخذه.

قَصَّ روى له القصة وأخبره بحاله الْقَصَصَ مصدر بمعنى الحديث المقصوص أي المخبر به ، من قتله القبطي ، وقصدهم قتله ، وخوفه من فرعون نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ فرعون وقومه إذ لا سلطان له على مدين.

قالَتْ إِحْداهُما التي استدعته الكبرى أو الصغرى اسْتَأْجِرْهُ اتخذه أجيرا يرعى غنمنا بدلنا إِنَّ خَيْرَ مَنِ

اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ فإنها أخبرته عن رفعه حجر البئر ، وعن قوله لها أثناء السير : امشي خلفي ، وقابل حياءها بحياء ، فلما جاءته وعلم بها ، صوّب رأسه فلم يرفعه.

والجملة تعليل جامع ، يجري مجرى الدليل على أنه حقيق بالاستئجار. وللمبالغة فيه جعل خيرا اسما ، وذكر الفعل بلفظ الماضي ، للدلالة على أنه أمين مجرب معروف.

(٨٤/٢٠)

إِحْدَى ابْنَتَيَّ هاتَيْنِ الكبرى أو الصغرى عَلى أَنْ تَأْجُرَنِي تكون أجيرا لي أو تأجر نفسك مني في رعي غنمي ثَمانِيَ حِجَجٍ سنين ، جمع حجة أي سنة فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً رعي عشر سنين فَمِنْ عِنْدِكَ التمام وَما أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ باشتراط العشر سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللَّهُ للتبرك مِنَ الصَّالِحِينَ في حسن المعاملة ولين الجانب والوفاء بالمعاهدة.

قالَ موسى ذلِكَ الذي قلته بَيْنِي وَبَيْنَكَ أي ذلك الذي عاهدتني فيه قائم بيننا لا نخرج عنه أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ أطولهما وأقصرهما للرعي قَضَيْتُ وفيتك إياه فَلا عُدْوانَ عَلَيَّ بطلب الزيادة عليه ، أو فلا مجاوزة للحد ، أي فكما لا أطالب بالزيادة على العشر لا أطالب بالزيادة على الثماني وَاللَّهُ عَلى ما نَقُولُ وَكِيلٌ أي على ما نقول أنا وأنت حفيظ أو شاهد ، فتم العقد بذلك.

المناسبة :

بعد أن تمالأ فرعون وقومه على قتل موسى ، وأخبره مؤمن من آل فرعون بما عزموا عليه ، ونصحه بالخروج من مصر ، فخرج متجها إلى أرض مدين ، ماشيا ، برعاية اللّه وهدايته الطريق ، للنسب الذي بين الإسرائيليين وبين أهل مدين ،

ج ٢٠ ، ص : ٨٣

لأن مدين من ولد إبراهيم ، والإسرائيليون من أولاد يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام. وهناك تزوج بابنة شعيب عليه السلام ، ثم عاد إلى مصر بعد أن أوتي النبوة في الطريق.

التفسير والبيان :

وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقاءَ مَدْيَنَ ، قالَ : عَسى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَواءَ السَّبِيلِ أي لما اتجه موسى جهة مدين تاركا مدينة فرعون لأنه كما بينا وقع في نفسه أن بينهم وبينه قرابة لأنهم من ولد مدين بن إبراهيم عليه السلام ، وهو كان من بني إسرائيل ، لكن لما لم يكن عالما بالطريق ، اعتمد على فضل اللّه تعالى ، قائلا :

(٨٥/٢٠)

ربي اهدني الطريق الأقوم ، فامتن اللّه عليه ، وهداه إلى الصراط المستقيم ، واختار الطريق الوسط من بين ثلاث طرق ، وكان يسأل الناس عن كيفية الطريق ، بحكم العادة. قال ابن إسحاق : خرج من مصر إلى مدين بغير زاد ولا ظهر (أي راحلة) وبينهما مسيرة ثمانية أيام ، ولم يكن له طعام إلا ورق الشجر.

ومدين :

شمال خليج العقبة في بلاد فلسطين.

وكانت أحداث مدين كما يلي :

١- حال الرعاء على الماء : وَلَمَّا وَرَدَ ماءَ مَدْيَنَ ، وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ ، وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودانِ قالَ : ما خَطْبُكُما ؟ قالَتا : لا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعاءُ ، وَأَبُونا شَيْخٌ كَبِيرٌ أي ولما وصل إلى مدين ، وورد ماءها ، وكان لها بئر يرده رعاة الماشية ، فوجد جماعة من الناس يسقون أنعامهم ومواشيهم ، ووجد في مكان أسفل من مكانهم امرأتين تمنعان غنمهما من ورود الماء مع الرعاة الآخرين ، لئلا يؤذيا وتختلط أغنامهما مع غيرها ، فلما رآهما موسى عليه السلام رقّ لهما ورحمهما ، فسألهما : ما شأنكما وما خبركما لا تردان الماء مع هؤلاء ؟ قالتا : لا نسقي غنمنا ، أي لا نتمكن من سقي الغنم إلا بعد فراغ هؤلاء

ج ٢٠ ، ص : ٨٤

القوم من السقي ، وأبونا شيخ كبير هرم لا يستطيع الرعي والسقي بنفسه ، مما ألجأنا إلى الحال التي ترى. وهذا شأن الضعيف مع القوي دائما ، يشرب القوي أولا من الماء الصافي ، ويشرب الضعيف بقية الماء. وفي هذا اعتذار لموسى عن مباشرتهما السقي بأنفسهما ، وتنبيه على أن أباهما لا يقدر على السقي لشيخوخته وكبره ، واستعطاف لموسى في إعانتهما.

(٨٦/٢٠)

٢- السقي للمرأتين والمناجاة : فَسَقى لَهُما ، ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ ، فَقالَ : رَبِّ ، إِنِّي لِما أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ أي فسقى غنمهما لأجلهما من بئر مغطى بصخرة ، لا يطيق رفعها إلا عشرة رجال ، كما روى ابن أبي شيبة عن عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه ، ثم أعاد الصخرة على البئر ، ثم انزوى إلى ظل شجرة للراحة ، فناجى ربه قائلا : إني لمحتاج إلى الخير القليل أو الكثير وهو الطعام ، لدفع غائلة الجوع. وإنما عدى فقيرا باللام لأنه ضمن معنى سائل وطالب.

وفيه دلالة على أنه سقى لهما في حر من الشمس ، وعلى كمال قوة موسى عليه السلام ، وعلى أنه رغم نعومة عيشه في بلاط فرعون كان مخشوشنا جلدا صابرا.

قال ابن عباس : سار موسى من مصر إلى مدين ، ليس له طعام إلا البقل وورق الشجر ، وكان حافيا ،

فما وصل إلى مدين حتى سقطت نعل قدميه ، وجلس في الظل ، وهو صفوة اللّه من خلقه ، وإن بطنه للاصق بظهره من الجوع ، وإن خضرة البقل لترى من داخل جوفه ، وإنه لمحتاج إلى شقّ تمرة.

٣- الفرج بعد الشدة : فَجاءَتْهُ إِحْداهُما تَمْشِي عَلَى اسْتِحْياءٍ قالَتْ : إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ ما سَقَيْتَ لَنا أي لما رجعت المرأتان سريعا بالغنم إلى أبيهما استغرب وسألهما عن خبرهما ، فقصتا عليه ما فعل موسى عليه السلام ، فبعث إحداهما إليه لتدعوه إلى أبيها ، فجاءت إحداهما تمشي مشي الحرائر ، مستحيية ، متخمرة بخمارها ، ساترة وجهها بثوبها ، ليست جريئة على الرجال ،

ج ٢٠ ، ص : ٨٥

فقالت في أدب وحياء وخفر : إن أبي يطلبك ليكافئك على إحسانك لنا ، ويعطيك أجر سقيك لغنمنا.

واختلف العلماء في تعيين الأب من هو ، والجمهور- أو المشهور عند كثير من العلماء- على أن الداعي أباهما هو شعيب عليه السلام الذي أرسل إلى أهل مدين ، وهما ابنتاه « ١ » . وليس في ذلك شيء يأباه الدين كما قال الرازي.

و قد أجابها موسى عليه السلام للتبرك بالشيخ ، لا طلبا للأجرة ، روي أنها لما قالت لِيَجْزِيَكَ كره ذلك ، ولما قدم إليه الطعام امتنع ، وقال : إنا أهل بيت لا نبيع ديننا بدنيانا ، ولا نأخذ على المعروف ثمنا ، حتى قال شعيب عليه السلام : هذه عادتنا مع كل من ينزل بنا. هذا فضلا عن أن الضرورات تبيح المحظورات.

وتبع موسى المرأة إلى منزل أبيها ، وطلب منها أن تسير خلفه كيلا ينظر إليها ، وأن ترشده إلى الطريق ، وهي خلفه ، وهذا من أدب الرجال الذين أعدهم اللّه للنبوة.

٤- حديث الأمان مع الشيخ الكبير : فَلَمَّا جاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قالَ : لا تَخَفْ ، نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ أي فلما جاء موسى إلى الشيخ ، وأخبره عن قصته مع فرعون وقومه في كفرهم وطغيانهم ، وظلمهم بني إسرائيل ، وتآمرهم على قتله وسبب خروجه من بلده مصر ، قال له : لا تخف واطمئن وطب نفسا ، فإنك نجوت من سطوة الظالمين ، وخرجت من مملكتهم ، ولا سلطان لهم في بلادنا ، فاطمأن موسى وهدأت نفسه من القلق.

٥- طلب البنت استئجار القوي الأمين : قالَتْ إِحْداهُما : يا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ ، إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ أي قالت إحدى ابنتي الشيخ

---

(١) البحر المحيط : ٧/ ١١٤ ، تفسير ابن كثير : ٣/ ٣٨٤

ج ٢٠ ، ص : ٨٦

الكبير التي ذهبت تدعوه لأبيها : يا أبت استأجره لرعي هذه الغنم ، فإن خير مستأجر هو لأنه القوي على حفظ الماشية والقيام بشؤونها ، المؤتمن الذي لا تخاف خيانته.

(٨٨/٢٠)

و صفته بأفضل صفات الأجير : القوة في القيام بالأمر ، والأمانة في حفظ الشي ء. ومصدر هاتين الصفتين ما شاهدت من حاله ، قال لها أبوها : وما علمك بذلك ؟ قالت له : إنه رفع الصخرة التي لا يطيق حملها إلا عشرة رجال ، وإني لما جئت معه تقدمت أمامه ، فقال لي : كوني من ورائي ، فإذا اختلف عليّ الطريق ، فاقذفي لي بحصاة أعلم بها كيف الطريق لأهتدي إليه.

قال عبد اللّه بن مسعود رضي اللّه عنه : أفرس الناس ثلاثة : أبو بكر حين تفرس في عمر ، وصاحب يوسف حين قال : أَكْرِمِي مَثْواهُ وصاحبة موسى حين قالت : يا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ ، إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ.

٦- مصاهرة موسى لشعيب : قالَ : إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هاتَيْنِ عَلى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمانِيَ حِجَجٍ ، فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِنْدِكَ ، وَما أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ، سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ

أي إن شعيب اقتنع بأن موسى رجل قوي أمين ، فقال له : أريد مصاهرتك وتزويجك إحدى هاتين البنتين ، فاختر ما تشاء ، وهما صفوريا وليا ، والمهر : أن ترعى غنمي ثماني سنين ، فإن تبرعت بزيادة سنتين ، فهو إليك ، وإلا ففي الثماني كفاية.

ولا أشاقك بعد ذلك بشيء من المناقشة في الوقت أو غيره ، وستجدني صالحا على العموم ، ومن ذلك حسن المعاملة ، ولين الجانب. وإنما قال : إِنْ شاءَ اللَّهُ للتبرك والاتكال على توفيق اللّه ومعونته.

فأجابه موسى بقوله :

قالَ : ذلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ، أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلا عُدْوانَ عَلَيَّ أي قال

ج ٢٠ ، ص : ٨٧

(٨٩/٢٠)

موسى لصهره : الأمر على ما قلت ، لي الخيار في إحدى البنتين ، وفي إحدى المدتين : ثماني أو عشر سنين ، كل واحد على ما شرط على نفسه ، فإن أتممت عشرا فمن عندي ، وإن قضيت ثمانيا فقد برئت من العهد ، وخرجت من الشرط ، فلا حرج علي من اختيار إحدى المدتين ، وليس لك أن

تطالبني بزيادة عليهما ، وإن كان المهيأ للنبوة سيختار الأكمل ، وإن كان مباحا غير لازم ، وقد فعل موسى عليه السلام أكمل الأجلين.

روى ابن جرير وغيره عن ابن عباس بأن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم قال : « سألت جبريل ، أيّ الأجلين قضى موسى ؟ قال : أتمهما وأكملهما » « ١ »

هو المعاهدة التي حدثت بين موسى وشعيب عليهما السلام.

وقوله : ذلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ وقوله : أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ أي أطول الأجلين الذي هو العشر أو أقصرهما الذي هو الثمان. وقوله : فَلا عُدْوانَ عَلَيَّ أي لا يعتدي أحد على آخر في طلب الزيادة.

وَاللَّهُ عَلى ما نَقُولُ وَكِيلٌ أي واللّه حفيظ أو شاهد على ما ألزم كل واحد نفسه به للآخر. والوكيل في الأصل : الذي وكل إليه الأمر ، ولما استعمل الوكيل في معنى الشاهد عدّي بعلى. وهذا من قول موسى ، وقيل : هو من قول شعيب والد المرأة.

فقه الحياة أو الأحكام :

يستنبط من الآيات ما يأتي :

١- انتقل موسى عليه السلام ماشيا من مصر إلى مدين شمال خليج العقبة بفلسطين مدة ثماني ليال.

---

(١) تفسير ابن كثير : ٣/ ٣٨٦.

٢- ليس سقي ابنتي شعيب عليه السلام الماشية بمحظور في الدين ، ولا يأباه الدين والمروءة جريا على عادة العرب وأحوالهم.

٣- لم يذق موسى عليه السلام طعاما في طريقه إلى مدين سبعة أيام ، حتى التصق بطنه بظهره ، فلجأ إلى الدعاء تعريضا ، ولم يصرح بالسؤال ، وإنما طلب إنزال أي خير قليل أو كثير ، فدل هذا الكلام على الحاجة إلى الطعام أو إلى غيره ، إلا أن المفسرين حملوا هذا الكلام على الطعام. قال ابن عباس : وكان قد بلغ به الجوع ، وأخضر لونه من أكل البقل في بطنه ، وإنه لأكرم الخلق على اللّه.

وفي هذا إشعار بهوان الدنيا على اللّه.

٤- إن سقي موسى عليه السلام ماشية المرأتين اللتين عجلتا بالذهاب إلى أبيهما كان سببا في دعوته وتناوله الطعام عند شعيب عليه السلام ، وإجابة لدعائه ومناجاته ربه.

وبالرغم من حاجته إلى الطعام قال موسى : لا آكل ، إنا أهل بيت لا نبيع ديننا بملء الأرض ذهبا ،

فقال شعيب : ليس هذا عوض السقي ، ولكن عادتي وعادة آبائي قرى الضيف ، وإطعام الطعام ، فحينئذ أكل موسى عليه السلام.

٥- دل قوله : نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ على أن سلطان الحكام كان محصورا في إقليم معين ، فكانت مدين خارجة عن مملكة فرعون.

٦- دل قوله تعالى : قالَتْ إِحْداهُما : يا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ على مشروعية الإجارة ، وهي فعلا كانت مشروعة في كل ملة ، لحاجة الناس إليها ، وتحقيق مصالحهم بها.

٧- قوله تعالى : إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ فيه دليل على جواز عرض الولي ابنته على الرجل لخطبتها ، وهذه سنة شائعة قديمة ، فقد عرض صالح

ج ٢٠ ، ص : ٨٩

مدين ابنته على صالح بني إسرائيل ، وعرض عمر بن الخطاب ابنته حفصة على أبي بكر وعثمان ، وعرضت الواهبة نفسها على النبي صلّى اللّه عليه وسلم ، أخرج البخاري والنسائي عن ابن عمر قال : « لما تأيمت حفصة من حذافة بن خنيس السهمي قال عمر لعثمان : إن شئت أنكحك حفصة بنت عمر » وكذلك قال لأبي بكر ، لكنهما امتنعا لأن النبي صلّى اللّه عليه وسلم ذكرها بخير ، فلم يفشيا سره ، وفهما أنه يريد الزواج بها.

٨- قوله : أُنْكِحَكَ دليل على أن النكاح إلى الولي ، لا للمرأة لأن صالح مدين تولاه ، وهو رأي جمهور العلماء ، وخالف في ذلك أبو حنيفة ، كما تقدم في تفسير آيات النكاح.

٩- والآية تدل أيضا على أن للأب أن يزوّج ابنته البكر البالغ من غير استئمار ، وهو قول الجمهور. وقال أبو حنيفة : إذا بلغت الصغيرة فلا يزوجها أحد إلا برضاها لأنها بلغت حد التكليف ، فأما إذا كانت صغيرة ، فإنه يزوجها بغير رضاها ، لأنه لا إذن لها ولا رضا بغير خلاف.

١٠- استدل الشافعية بآية : إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ على أن النكاح موقوف على لفظ التزويج والإنكاح فقط. وقال المالكية : ينعقد النكاح بكل لفظ. وقال أبو حنيفة : ينعقد بكل لفظ يقتضي التمليك على التأبيد ، بلفظ الهبة وغيره إذا كان قد أشهد عليه لأن الطلاق يقع بالصريح والكناية ، فكذلك النكاح ، والذي خص به النبي صلّى اللّه عليه وسلم كون الزواج بلا مهر ، لا الزواج بلفظ الهبة.

١١- قوله تعالى : إِحْدَى ابْنَتَيَّ هاتَيْنِ عرض للزواج ، لا عقد لأنه لو كان عقدا لعين المعقود عليها له.

١٢- قال مكّي : في هذه الآية خصائص في النكاح ، منها أنه لم يعين الزوجة ، ولا حدّ أول الأمد ، وجعل المهر إجارة ، ودخل ولم ينقد شيئا.

أما التعيين فالواقع أنه تم في اتفاق آخر ، وإنما عرض الأمر مجملا ، وعيّن بعد ذلك.
ج ٢٠ ، ص : ٩٠

(٩٢/٢٠)

و أما ذكر أول المدة فليس في الآية ما يقتضي إسقاطه ، بل هو مسكوت عنه ، فإما أنهما اتفقا عليه ، وإلا فهو من أول وقت العقد.
وأما الزواج بمنفعة الإجارة فظاهر من الآية ، وهو أمر أقره شرعنا ، بدليل ما روى الأئمة من الزواج على شيء من القرآن ، وفي بعض طرقه : « فعلّمها عشرين آية وهي امرأتك » .
وللعلماء فيه ثلاثة أقوال : كرهه مالك ، ومنعه ابن القاسم ، والحنفية ، وأجازه ابن حبيب والشافعية والحنابلة ، بدليل هذه الآية.
وأما قول مكي : دخل ولم ينقد ، ففيه خلاف ، منعه ابن القاسم ، فليس للزوج الدخول حتى ينقد ولو ربع دينار ، وأجازه متأخر والمالكية لأن تعجيل الصداق أو شيء منه مستحب.
١٣- دلت الآية على اجتماع عقدين هما الإجارة والزواج ، وقد أجازه ابن العربي المالكي على الصحيح لأن الآية تدل عليه ، وقد قال مالك : النكاح أشبه شيء بالبيوع ، فأي فرق بين إجارة وبيع ، أو بين بيع ونكاح « ١ » . ومنعه ابن القاسم في المشهور ، وقال : لا يجوز ويفسخ قبل الدخول وبعده لاختلاف مقاصدهما ، كسائر العقود المتباينة.
١٤- يدل قوله تعالى : عَلى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمانِيَ حِجَجٍ على جواز ذكر الخدمة مطلقا ، دون بيان نوع العمل ، مع بيان الأجل فقط ، وقد أجازه مالك وقال : إنه جائز ويحمل على العرف. فلم يكن لصالح مدين إلا رعي الغنم.
وقال أبو حنيفة والشافعي : لا يجوز حتى يسمى نوع العمل لأنه مجهول.
١٥- أجمع العلماء على جواز استئجار الراعي شهورا معلومة ، بأجرة

---

(١) أحكام القرآن ٣/ ١٤٦٤.
ج ٢٠ ، ص : ٩١
معلومة ، لرعاية غنم معدودة. فإن كانت مطلقة غير مسماة ولا معينة جازت الإجارة عند المالكية عملا بالعرف. وقال أبو حنيفة والشافعي : لا تجوز لجهالتها.

(٩٣/٢٠)

١٦- دلت آية ثَمانِيَ حِجَجٍ ، فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِنْدِكَ على مذهب الأوزاعي فيما إذا قال : بعتك هذا بعشرة نقدا ، أو بعشرين نسيئة ، أنه يصح ويختار المشتري ، فبأيهما أخذ يصح ، وحمل الحديث المروي في سنن أبي داود : « من باع بيعتين فله أوكسهما أو الربا » على هذا المذهب.

١٧- استدل الحنابلة بهذه الآية المتقدمة على صحة استئجار الأجير بطعامه وكسوته ، ويؤيدهم ما رواه ابن ماجه في السنن عن عتبة بن المنذر السّلمي قال : كنا عند رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم ، فقرأ طسم ، حتى إذا بلغ قصة موسى قال : « إن موسى آجر نفسه ثماني سنين أو عشر سنين على عفة فرجه وطعام بطنه » . « ١ » .

١٨- قال مالك : وليس على الراعي ضمان ، وهو مصدّق فيما هلك أو سرق لأنه أمين كالوكيل ، ولا ضمان عليه فيما تلف عليه باجتهاده ، إن كان من أهل الصلاح ، وممن يعلم إشفاقه على المال ، ولصاحب المال تضمينه إن كان من أهل الفسوق والفساد.

١٩-

روى عيينة بن حصن أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم قال : « أجر موسى نفسه بشبع بطنه وعفّة فرجه » .

والإجارة بالعوض المجهول كشيء مما تلده الغنم لا تجوز ، فإن ولادة الغنم غير معلومة لأن النبي صلّى اللّه عليه وسلم فيما رواه مسلم عن أبي هريرة نهى عن الغرر ، و

روى البزار بسند ضعيف عن أبي هريرة أنه صلّى اللّه عليه وسلم نهى عن المضامين والملاقيح.

---

(١) لكن فيه راو ضعيف الرواية عند الأئمة هو مسلمة بن علي الخشني الدمشقي البلاطي.

و المضامين : ما في بطون الإناث ، والملاقيح : ما في أصلاب الفحول. على أن راشد بن معمر أجاز الإجازة على الغنم بالثلث والربع. وقال ابن سيرين وعطاء : ينسج الثوب بنصيب منه ، وبه قال أحمد.

٢٠- الكفاءة في النكاح معتبرة ، واختلف العلماء هل في الدّين والمال والحسب أو في بعض ذلك ؟ والصحيح لدى المالكية جواز نكاح الموالي للعربيات والقرشيات ، لقوله تعالى : إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقاكُمْ [الحجرات ٤٩/ ١٣].

وقد جاء موسى إلى صالح مدين غريبا طريدا خائفا وحيدا جائعا عريانا ، فأنكحه ابنته لما تحقق من دينه ، ورأى من حاله ، وأعرض عما سوى ذلك.

٢١- إذا اشترط ولي المرأة لنفسه شيئا ، فقد اختلف العلماء فيما يخرجه الزوج من يده ، ولا يدخل في يد المرأة على قولين : أحدهما- أنه جائز ، والآخر- لا يجوز ، فهو حلوان وزيادة على المهر ، وهو حرام.

ويؤيد الرأي الأول ما جرى من شعيب حيث اشترط لنفسه إجارة الرعي ثماني سنين ، وترك المهر مفوضا ، ونكاح التفويض جائز ، ويجب حينئذ مهر المثل.

٢٢- يكتب في العقود الشروط المتفق عليها ، ثم يقال : وتطوع بكذا ، فينفذ الشرط على حدة ، ويترك الطوع لتنفيذه مختارا على حدة. وهذا ما فعله شعيب حيث ذكر اشتراط الإجارة ثماني سنين ، وترك التطوع لموسى ، وهو سنتان أخريان إن شاء.

٢٣- قوله تعالى : وَاللَّهُ عَلى ما نَقُولُ وَكِيلٌ فيه جعل الإشهاد عليهما في الزواج باللّه تعالى ، ولم يشهد شعيب وموسى عليهما أحدا من الخلق ، وقد اختلف العلماء في وجوب الإشهاد في الزواج على قولين :

أحدهما- وهو قول الجمهور : أنه لا ينعقد الزواج إلا بشاهدين. فسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج ، ج ٢٠ ، ص : ٩٣

و الثاني- قال مالك : إنه ينعقد دون شهود لأنه عقد معاوضة ، فلا يشترط فيه الإشهاد ، وإنما يشترط فيه الإعلان والتصريح ، وفرق ما بين النكاح والسفاح : الدّفّ.

- ٥- عودة موسى عليه السلام إلى مصر ونبوته [سورة القصص (٢٨) : الآيات ٢٩ الى ٣٢]

فَلَمَّا قَضى مُوسَى الْأَجَلَ وَسارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جانِبِ الطُّورِ ناراً قالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ ناراً لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْها بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (٢٩) فَلَمَّا أَتاها نُودِيَ مِنْ شاطِئِ الْوادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يا مُوسى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ (٣٠) وَأَنْ أَلْقِ عَصاكَ فَلَمَّا رَآها تَهْتَزُّ كَأَنَّها جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ يا مُوسى أَقْبِلْ وَلا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ (٣١) اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَناحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذانِكَ بُرْهانانِ مِنْ رَبِّكَ إِلى فِرْعَوْنَ وَمَلائِهِ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ (٣٢)

الإعراب :

أَنْ يا مُوسى أَنْ مفسرة لا مخففة في موضع نصب بتقدير حذف حرف الجر ، وتقديره : بأن يا موسى.

وَأَنْ أَلْقِ عَصاكَ معطوف على قوله : أَنْ يا مُوسى .

ج ٢٠ ، ص : ٩٤

فَلَمَّا رَآها تَهْتَزُّ كَأَنَّها جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ تَهْتَزُّ جملة فعلية ، في موضع الحال من الهاء والألف في رَآها أي مهتزة مشبهة جانا. وَلَّى : أصله وَلَّى فتحركت الياء وانفتح ما قبلها ، فقلبها ألفا ، وهو جواب « لمّا » . ومُدْبِراً حال من ضمير وَلَّى وعامله وَلَّى. ولَمْ يُعَقِّبْ جملة فعلية في موضع نصب على الحال من ضمير وَلَّى وهو العامل فيها أيضا.

فَذانِكَ بُرْهانانِ

مبتدأ وخبر ، وذان : تثنية ذا ، قرئ بتخفيف النون وتشديدها ، والتشديد عوض عن حذف ألف ذا التي كانت في الواحد.

البلاغة :

تَهْتَزُّ كَأَنَّها جَانٌّ تشبيه مرسل مجمل ، حذف فيه وجه الشبه ، فصار مجملا.

(٢٠/٩٦)

وَ اضْمُمْ إِلَيْكَ جَناحَكَ كناية ، كنى بالجناح عن اليد لأنها للإنسان كالجناح للطائر.

المفردات اللغوية :

قَضى ... الْأَجَلَ أتم المدة المحددة المتفق عليها بينهما ، وهو رعيه عشر سنين وَسارَ بِأَهْلِهِ زوجته بإذن أبيها نحو مصر ، روي أنه قضى أقصى الأجلين ، ثم عزم على الرجوع آنَسَ أبصر من بعيد مِنْ جانِبِ الطُّورِ من الجهة التي تلي الطور : وهو اسم لجبل في سينا بِخَبَرٍ عن الطريق ، وكان قد أخطأها أَوْ جَذْوَةٍ جمرة ملتهبة أو عود غليظ في رأسه نار تَصْطَلُونَ تستدفئون.

مِنْ شاطِئِ الْوادِ من جانب الْأَيْمَنِ لموسى فِي الْبُقْعَةِ الْمُبارَكَةِ المكان الذي بارك اللّه فيه لموسى لسماعه كلام اللّه فيها مِنَ الشَّجَرَةِ بدل من شاطئ بدل الاشتمال لأنها كانت نابتة على الشاطئ ، وهي شجرة عناب أو عليق أو عوسج أَنْ يا مُوسى أي يا موسى تَهْتَزُّ تتحرك كَأَنَّها جَانٌّ الجانّ : الحية الصغيرة التي توجد في الدور ولا تؤذي ، أي تشبه الحية في الهيئة والجثة ، أو السرعة ، أو الجني في سرعة الحركة وعظم الخلقة وَلَّى مُدْبِراً أدبر هاربا منهزما منها من الخوف وَلَمْ يُعَقِّبْ لم يرجع يا مُوسى أي نودي يا موسى إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ من المخاوف ، فإنه لا يخاف لدي المرسلون.

اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ أي أدخلها في طوق قميصك وأخرجها مِنْ غَيْرِ سُوءٍ أي عيب كبرص ونحوه وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَناحَكَ يديك المبسوطتين تتقي بهما الحية كالخائف الفزع مِنَ الرَّهْبِ الخوف الحاصل من إضاءة اليد ، بأن تدخلها في جيبك (فتحة القميص من جهة الرأس) وعبر عن اليد بالجناح لأنها

للإنسان كالجناح للطائر.

ج ٢٠ ، ص : ٩٥

فَذانِكَ أي العصا واليد بُرْهانانِ دليلان مرسلان ، أو حجتان فاسِقِينَ خارجين عن حدود اللّه ، فكانوا أحقاء بأن يرسل إليهم.

المناسبة :

بعد أن أتم موسى عليه السلام أوفى الأجلين ، عزم على العودة إلى مصر ، لزيارة أقاربه ، وبينا هو في الطريق ، وكانت الليلة باردة شاتية ، أبصر من ناحية جبل الطور نارا ، فطلب من أهله المكث في مكانهم ، ليحضر لهم جذوة نار ، فناداه ربه ، وآتاه النبوة والرسالة.

التفسير والبيان :

فَلَمَّا قَضى مُوسَى الْأَجَلَ ... لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ أي فلما أكمل الأجلين وأتمهما وهو رعي غنم شعيب عشر سنين ، وهذا مستفاد أيضا من الآية الكريمة حيث قال تعالى فَلَمَّا قَضى مُوسَى الْأَجَلَ أي الأكمل منهما ، وأن ذلك الإيناس حصل عقيب مجموع الأمرين ، وليس فقط عقيب أحدهما ، وهو قضاء الأجل.

وسار إلى ما يريد مع أهله أي زوجته ، أبصر نارا تضيء على بعد من ناحية جبل الطور ، فطلب من أهله المكوث في مكانهم حتى يذهب إلى النار ، فيأتي من أهلها بخبر الطريق أو بقطعة أو شعلة من النار ليستدفئوا بها من البرد ، وذلك لأنه سار في ليلة مظلمة مطيرة باردة ، وكان قد أخطأ الطريق ، وكان موسى منفردا مع أهله.

وخاطب أهله بقوله : امْكُثُوا بصيغة الجمع للتعظيم. وقوله :

بِخَبَرٍ فيه دلالة على أنه ضل الطريق ، وقوله : لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ فيه دلالة على البرد.

فَلَمَّا أَتاها نُودِيَ مِنْ شاطِئِ الْوادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يا مُوسى : إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ أي فلما وصل إلى مكان وجود النار التي

ج ٢٠ ، ص : ٩٦

رآها من بعيد ، ناداه ربه من جانب الوادي الأيمن ، أي عن يمين موسى من ناحية الغرب ، كما قال تعالى : وَما كُنْتَ بِجانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنا إِلى مُوسَى الْأَمْرَ [القصص ٢٨/ ٤٤] مما يدل على أنه قصد النار إلى جهة القبلة ، والجبل الغربي عن يمينه.

ناداه ربه في البقعة المباركة من ناحية الشجرة : يا موسى ، إني أنا اللّه رب العالمين ، إني أنا ربك فاخلع نعليك ، إنك بالوادي المقدس طوى ، أي الذي يخاطبك ويكلمك هو رب العالمين ، الفعال لما يشاء ، لا إله غيره ، ولا رب سواه ، تنزه عن مماثلة المخلوقات في ذاته وصفاته وأقواله وأفعاله.

ووصف البقعة بكونها مباركة ، لأنه حصل فيها ابتداء الرسالة ، وتكليم اللّه تعالى إياه. ومن الأولى : مِنْ شاطِئِ والثانية : مِنَ الشَّجَرَةِ لابتداء الغاية ، أي أتاه النداء من شاطئ الوادي من قبل الشجرة.

وقد خلق اللّه تعالى في موسى أثناء ذلك علما يقينيا بأن ذلك الكلام هو كلام اللّه ، وسمع الكلام القديم من اللّه تعالى ، لا من الشجرة ، على رأي أبي الحسن الأشعري ، وسمع الصوت والحرف المخلوق في الشجرة والمسموع منها ، على رأي أبي منصور الماتريدي.

ثم أيده بمعجزتين هما :

أولا- وَأَنْ أَلْقِ عَصاكَ ، فَلَمَّا رَآها تَهْتَزُّ كَأَنَّها جَانٌّ ، وَلَّى مُدْبِراً ، وَلَمْ يُعَقِّبْ أي ونودي بأن ألق عصاك التي في يدك ، فألقاها فصارت حية تسعى ، فعرف وتحقق أن الذي يكلمه ويخاطبه هو الذي يقول للشي ء : كُنْ فَيَكُونُ فلما رآها تتحرك وتضطرب كأنها جان من الحيات أو ثعبان ، لسرعة حركتها ، أو شبهها بالجانّ من حيث الاهتزاز والحركة ، لا من حيث المقدار ، ولّى هاربا ولم يرجع ولم يلتفت إلى ما وراءه لأن طبع البشر ينفر من ذلك.

ج ٢٠ ، ص : ٩٧

فهدّأ الحق تعالى روعه قائلا :

يا مُوسى ، أَقْبِلْ وَلا تَخَفْ ، إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ أي يا موسى ارجع إلى مكانك أو مقامك الأول ، ولا تخف من الحية أو الثعبان ، فأنت آمن من كل سوء.

ثانيا- اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ أي أدخل يدك في جيب أو فتحة قميصك العليا من جهة الرأس ، ثم أخرجها ، تخرج تتلألأ ، ولها شعاع ، كأنها قطعة قمر ، من غير عيب ولا برص فيها.

وإزالة لخوفه من الآيتين المعجزتين السابقتين قال تعالى له :

وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَناحَكَ مِنَ الرَّهْبِ أي وضع يدك على صدرك ، يذهب عنك ما تجده من الخوف ، فكان إذا خاف من شيء ضم إليه يده ، فإذا فعل ذلك ذهب ما طرأ عليه من الخوف. وقوله : مِنَ الرَّهْبِ أي من أجل الرهب.

وربما إذا استعمل أحد ذلك على سبيل الاقتداء ، فوضع يده على فؤاده ، فإنه يزول عنه ما يجده أو يخيفه ، إن شاء اللّه تعالى ، وبه الثقة سبحانه.

قال ابن عباس : كل خائف إذا وضع يده على صدره ، زال خوفه.

فَذانِكَ بُرْهانانِ مِنْ رَبِّكَ إِلى فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِ ، إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ أي فتلك الآيتان المعجزتان وهما إلقاء العصا وجعلها حية تسعى ، وإدخال يدك في جيبك ، فتخرج بيضاء من غير سوء ، هما دائما دليلان قاطعان واضحان على قدرة اللّه وصحة نبوتك ، يؤيدانك في رسالتك إلى فرعون وقومه من الرؤساء والكبراء والأتباع ، إنهم قوم خارجون عن طاعة اللّه ، مخالفون لأمره ودينه ، فكانوا جديرين بإرسالك إليهم مؤيدا بهاتين المعجزتين.

ج ٢٠ ، ص : ٩٨

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى الآتي :

١- يسير المهيّؤون للنبوة بتوجيه وإلهام من اللّه تعالى ، فلما انتهي موسى من الوفاء بما عاهد عليه شعيب من رعي غنمه مهرا للزواج بابنته ، اتجه عائدا مع زوجته إلى مصر ، في ليلة ظلماء شاتية باردة ، مشيا من دون راحلة في الإياب كما كان الحال في الذهاب من مصر إلى مدين ، وكان قد أتم أكمل الأجلين ، عملا بخلق النبوة ، وأخذا بالأكمل ، كما ثبت في الخبر عن نبينا عليه السلام.

و في أثناء الطريق الذي أخطأه وفي شدة البرد التي ألمت به وبأهله رأى نارا من بعيد ، فطلب من أهله المقام في المكان الذي وقفا فيه ، وبادر إلى الإتيان بشعلة نار أو قطعة جمر للتدفئة ، وللسؤال من أهل النار عن الطريق.

٢- دل قوله : وَسارَ بِأَهْلِهِ على أن الرجل يذهب بأهله حيث شاء ، لما له عليها من فضل القوامة وزيادة الدرجة ، إلا أن يلتزم لها أمرا ، فالمؤمنون عند شروطهم ، وأحق الشروط أن يوفى به شروط الزواج.

٣- كان ترائي النار استدعاء من رب الكون لمائدة تكليم رب العزة وإيتائه النبوة والرسالة ، وهنيئا لموسى عليه السلام بتلك الدعوة التي هي أكرم وأشرف دعوة على الإطلاق ، إذ صار بضيافتها كليم اللّه ، ورسول رب العالمين إلى عظيم الطغاة فرعون وحاشيته.

٤- ناداه ربه بكلام لطيف في بقعة مباركة من شاطئ الوادي المقدس الأيمن : على يمين موسى ، طوى من ناحية شجرة ، على الجانب الغربي اتجاها ، من جبل الطور ، وكان مطلع النداء التعريف بالمنادي :

إني أنا اللّه رب العالمين. وهذا نفي لربوبية غيره سبحانه.

ج ٢٠ ، ص : ٩٩

فصار بهذا الكلام من أصفياء اللّه عز وجل ، لا من رسله لأنه لا يصير رسولا إلا بعد أمره بالرسالة ، وقد أمر بها بعد هذا الكلام وهو : إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ أي من المرسلين لقوله تعالى : إِنِّي لا يَخافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ وقوله إِلى فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ ٥- أيده اللّه بمعجزتي العصا واليد ، فخاف منهما لأول وهلة ، ثم هدّأ اللّه روعه ، وسكّن خوفه ، وأعاده بعد الهرب إلى ساحة المناجاة مع ربه ، وجعل له علاجا للخوف بضم يده إلى صدره ، وكان موسى يرتعد خوفا إما من آل فرعون ، وإما من الثعبان ، فأوحى اللّه له : إذا هالك أمر يدك وشعاعها ، فأدخلها في جيبك وارددها إليه تعد كما كانت.

(١٠١/٢٠)

٦- قدمنا قول ابن عباس : ليس من أحد يدخله رعب بعد موسى عليه السلام ، ثم يدخل يده ، فيضعها على صدره إلا ذهب عنه الرعب. وهكذا تكون محن الأنبياء عليهم السلام دائما فرجا ومخرجا للأمة. وبه تبين الهدف من قوله :

اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ وهو خروج اليد بيضاء ، ومن قوله : وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَناحَكَ وهو إخفاء الرهب.

وقد تساءل الزمخشري ثم الرازي بقوله : قد جعل الجناح وهو اليد في أحد الموضعين مضموما : وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَناحَكَ وفي الآخرة مضموما إليه : وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلى جَناحِكَ والجواب أن المراد بالجناح المضموم هو اليد اليمنى ، وبالمضموم إليه اليد اليسرى ، وكل من اليدين جناح « ١ » .

---

(١) الكشاف : ٢/ ٤٧٣ ، تفسير الرازي : ٢٤/ ٢٤٧ وما بعدها.

ج ٢٠ ، ص : ١٠٠

- ٦- نبوة هارون وتكذيب فرعون [سورة القصص (٢٨) : الآيات ٣٣ الى ٣٧]

قالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْساً فَأَخافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (٣٣) وَأَخِي هارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِساناً فَأَرْسِلْهُ مَعِي رِدْءاً يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (٣٤) قالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُما سُلْطاناً فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُما بِآياتِنا أَنْتُما وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغالِبُونَ (٣٥) فَلَمَّا جاءَهُمْ مُوسى بِآياتِنا بَيِّناتٍ قالُوا ما هذا إِلاَّ سِحْرٌ مُفْتَرىً وَما سَمِعْنا بِهذا فِي آبائِنَا الْأَوَّلِينَ (٣٦) وَقالَ مُوسى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جاءَ بِالْهُدى مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٣٧)

الإعراب :

(١٠٢/٢٠)

يُصَدِّقُنِي بالرفع وصف ل رِدْءاً. وقرئ بالجزم على أنه جواب الأمر بتقدير حرف الشرط ، أو على أن جزم القاف لكثرة الحركات ، كقولهم في : عضد : عضد ، والوجه الأول أوجه.

بِآياتِنا متعلق بمحذوف أي اذهبا بآياتنا ، أو متعلق ب نَجْعَلُ أي نسلطكما بها.

بَيِّناتٍ حال إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ الهاء : ضمير الأمر والشأن.

البلاغة :

يُصَدِّقُنِي يُكَذِّبُونِ بينهما طباق.

سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ مجاز مرسل عن التقوية ، من قبيل إطلاق السبب وإرادة المسبب لأن شد العضد يستلزم شد اليد ، وشد اليد مستلزم للقوة.

ج ٢٠ ، ص : ١٠١

المفردات اللغوية :

إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْساً هو القبطي (المصري ، الفرعوني) أَنْ يَقْتُلُونِ أي به أَفْصَحُ مِنِّي لِساناً أبين رِدْءاً معينا يُصَدِّقُنِي بتوضيح ما قلته ، وتقرير الحجة وإقامة الأدلة ، ومجادلة المشركين وتزييف الشبهة.

سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ سنقويك به ونعينك به ، والعضد : ما بين المرفق إلى الكتف سُلْطاناً غلبة وتفوقا أو حجة قوية فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُما بسوء بَيِّناتٍ واضحات مُفْتَرىً مختلق فِي آبائِنَا الْأَوَّلِينَ أي كائنا في أيامهم رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جاءَ بِالْهُدى مِنْ عِنْدِهِ أي عالم يعلم أني محق وأنتم مبطلون والضمير في عِنْدِهِ عائد للرب وَمَنْ معطوف على بِمَنْ المتقدمة عاقِبَةُ الدَّارِ العاقبة المحمودة في الآخرة ، والمراد بالدار : الدنيا ، وعاقبتها الأصلية هي الجنة لأن الدنيا خلقت جسرا للآخرة ، والمقصود منها بالذات : هو الثواب والعقاب إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ لا يفوزون بالهدى في الدنيا وحسن العاقبة في الآخرة ،

والظالمون :

الكافرون.

المناسبة :

بعد أن قال اللّه سبحانه : فَذانِكَ بُرْهانانِ مِنْ رَبِّكَ إِلى فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِ علم موسى عليه السلام أنه يذهب بهذين البرهانين إلى فرعون وقومه ، فطلب من اللّه تعالى ما يقوي قلبه ، ويزيل خوفه من فرعون ، فيرسل معه أخاه هارون وزيرا ، فأجابه اللّه إلى طلبه.

وكان الرسولان موسى وهارون محاجين فرعون في الربوبية بحجة ساطعة ، فلم يكن منه إلا المكابرة

والعناد ، والافتراء والاتهام الزائف بأن المعجزتين سحر مختلق.

التفسير والبيان :

لما أمر اللّه تعالى موسى بالذهاب إلى فرعون ، الذي خرج من ديار مصر فرارا منه ، وخوفا من سطوته :

ج ٢٠ ، ص : ١٠٢

قالَ : رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْساً ، فَأَخافُ أَنْ يَقْتُلُونِ أي قال موسى :

يا ربّ كيف أذهب إلى فرعون وقومه ، وقد قتلت منهم فرعونيا ، فأخاف إذا رأوني أن يقتلوني ثأرا منهم.

وَأَخِي هارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِساناً ، فَأَرْسِلْهُ مَعِي رِدْءاً يُصَدِّقُنِي ، إِنِّي أَخافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ أي إن أخي هارون أفصح لسانا مني ، وأحسن بيانا بسبب ما في لساني من لثغة أو عقدة من حين الصغر حين تناولت الجمرة ، لما خيرت بينها وبين التمرة ، فوضعتها على لساني ، فحصل فيه شدة في التعبير ، فاجعل معي هارون أخي رسولا وزيرا ومعينا يصدقني فيما أقوله وأخبر به عن اللّه عز وجل ، ويوضح البراهين والأدلة ، ويفنّد الشبهات المثارة من قبل هؤلاء الجاحدين ، وإني أخاف أن يكذبوني في رسالتي. ونظير الآية : وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي ، وَاجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي ، هارُونَ أَخِي ، اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ، وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي [طه ٢٠/ ٢٧- ٣٢].

فأجابه اللّه تعالى إلى طلبه :

قالَ : سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ ، وَنَجْعَلُ لَكُما سُلْطاناً ، فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُما أي قال الرب لموسى :

سنقويك ونعزّز جانبك بأخيك الذي سألت أن يكون نبيا معك ، كما قال تعالى : قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يا مُوسى [طه ٢٠/ ٣٦] وَوَهَبْنا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنا أَخاهُ هارُونَ نَبِيًّا [مريم ١٩/ ٥٣] ونجعل لكما حجة قاهرة ، وغلبة ظاهرة على عدوكما ، فلا سبيل لهم إلى الوصول إلى أذاكما ، بسبب إبلاغكما آيات اللّه تعالى.

قال بعض السلف عن طلب موسى بعثة أخيه هارون : ليس أحد أعظم منّة على أخيه من موسى على هارون عليهما السلام ، فإنه شفع فيه ، حتى جعله اللّه نبيا ورسولا معه إلى فرعون وملئه ، ولهذا قال تعالى في حق موسى : وَكانَ

ج ٢٠ ، ص : ١٠٣

عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً

[الأحزاب ٣٣/ ٦٩]. وقال السدي : إن نبيين وآيتين أقوى من نبي واحد وآية واحدة.
بِآياتِنا ، أَنْتُما وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغالِبُونَ أي اذهبا بآياتنا ، أو نجعل لكما سلطانا ، أي نسلطكما بآياتنا ، أو لا يصلون إليكما أي تمتنعون منهم بآياتنا ، أنت يا موسى وأخوك ومن آمن بكما وتبعكما في رسالتكما الغالبون بالحجة والبرهان لأن حزب اللّه دائما هم الغالبون.
وتعليق الآيات بالسلطان يجعل انقلاب العصا حية معجزة ، ومانعا أيضا من وصول ضرر فرعون إلى موسى وهارون عليهما السلام ، ولذا يجوز الوقوف على إِلَيْكُما ويكون في الكلام تقديم وتأخير ، كما يجوز الوصل.

(١٠٥/٢٠)

ثم أبان تعالى موقف فرعون من محاجة موسى وهارون فقال : فَلَمَّا جاءَهُمْ مُوسى بِآياتِنا بَيِّناتٍ ، قالُوا : ما هذا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرىً ، وَما سَمِعْنا بِهذا فِي آبائِنَا الْأَوَّلِينَ أي حين عرض موسى وهارون على فرعون وملئه ما آتاهما اللّه من المعجزات الباهرة الواضحة والدلالة القاهرة على صدقهما فيما أخبرا به عن اللّه عز وجل من توحيده واتباع أوامره ، قالوا : ما هذا إلا سحر مفتعل مصنوع ، مكذوب موضوع ، وما سمعنا بما تدعونا إليه من عبادة اللّه وحده لا شريك له في أيام الأسلاف ، وما رأينا أحدا من آبائنا على هذا الدين ، ولم نر الناس إلا يشركون مع اللّه آلهة أخرى.
وهذا مجرد تمسك بالتقليد الذي لا دليل على صحة العمل به. فأجابهم موسى :
وَقالَ مُوسى : رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جاءَ بِالْهُدى مِنْ عِنْدِهِ ، وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عاقِبَةُ الدَّارِ ، إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ
أي أجاب موسى فرعون وملأه بقوله : ربي اللّه الذي لا إله غيره الذي خلق كل شيء ويعلم غيب السموات والأرض أعلم مني ومنكم
ج ٢٠ ، ص : ١٠٤
بالمحق من المبطل ، وبمن جاء بالحق الداعي إلى الرشاد ، وأهله للفلاح الأعظم ، ومن الذي له العاقبة المحمودة في الدنيا بالنصر والظفر والتأييد ، وفي الآخرة بالثواب والرحمة والرضوان كقوله : أُولئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ، جَنَّاتُ عَدْنٍ [الرعد ١٣/ ٢٢- ٢٣] وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ [الرعد ١٣/ ٤٢] ، وسيفصل بيني وبينكم ، إنه لا يفلح المشركون باللّه عز وجل ، ولا يظفرون بالفوز والنجاة والمنافع ، بل يكونون على ضد ذلك.

(١٠٦/٢٠)

و في الآية أسلوب أدبي رفيع من الخطاب والجدل والمناظرة ، فهو لم يعلن أنه المحق وغيره المبطل الضال ، وإنما ردد ذلك ليجعل للعقل في النقاش دورا في الحكم النهائي وتغليب الأصح الأصوب ، وهذا كقوله صلّى اللّه عليه وسلم للمشركين : وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلى هُدىً أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ [سبأ ٣٤/ ٢٤].

كما أن نهاية الآية زجر لهم عن العناد الذي ظهر منهم ، وإيماء بأنهم خاسرون في هذا الجدال ، وسيكون لهم الخيبة والفشل في المستقبل.

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى ما يأتي :

١- ضرورة التسلح بمختلف القوى المادية والمعنوية عند لقاء العدو ، فقد طلب موسى من ربه تأييده بأخيه هارون ، ليكون له عونا ووزيرا ، ومدافعا ومبينا حجج اللّه وبيّناته في دعوة فرعون وقومه إلى عبادة اللّه وحده لا شريك له ، فإنه إذا لم يكن له وزير ولا معين لا يكادون يفقهون عنه ، وربما تعرّض لأذى ، فيدفعه عنه.

٢- إن السؤال المنطقي والدعاء المناسب للحال مستجاب متحقق ، لذا أجاب اللّه طلب موسى عليه السلام ، وقال له : سنقويك بأخيك ، ونجعل لكما حجة

ج ٢٠ ، ص : ١٠٥

و برهانا ، فلا يصلون إليكما بالأذى ، وتمتنعان منهم بآياتنا ، فأنتما وأتباعكما الغالبون عليهم بآياتنا ، أي سائر المعجزات.

٣- لقد أعمى فرعون وقومه إدراك الحق ، فتمسكوا بالمكابرة والعناد ، واعتصموا بتقليد الآباء والأسلاف الذي لا حجة ولا دليل عليه ، وهذا مذموم عقلا وعادة ، لذا قالوا : ما هذه المعجزات إلا سحر مكذوب مفترى ، ولم نسمع بدعوة التوحيد والتخلي عن الإشراك في التاريخ الغابر ، ولا قيمة لتلك الحجج العقلية التي أوردها موسى لإثبات توحيد اللّه تعالى!!.

٤- لا بد من استعمال الحكمة في الإجابة والجدال والمناظرة للسلاطين والحكام الجبابرة ، كفرعون الطاغية ، توقيا من الأذى ، وتأملا في اللين ، والإذعان للحق ، لذا كان جواب موسى حكيما حين أعلن أن اللّه أعلم بمن جاء بالرشاد من عنده سبحانه ، ومن المستحق لدار الجزاء ، وإنه لا يظفر الظالمون أنفسهم بالشرك والكفر والمعصية بشيء عند اللّه وفي الآخرة.

- ٧- محاجة فرعون في ربوبية اللّه تعالى وعاقبة عناده مع قومه [سورة القصص (٢٨) : الآيات ٣٨

الى ٤٣]

وَقالَ فِرْعَوْنُ يا أَيُّهَا الْمَلَأُ ما عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يا هامانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلى إِلهِ مُوسى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكاذِبِينَ (٣٨) وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنا لا يُرْجَعُونَ (٣٩) فَأَخَذْناهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْناهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (٤٠) وَجَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيامَةِ لا يُنْصَرُونَ (٤١) وَأَتْبَعْناهُمْ فِي هذِهِ الدُّنْيا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ (٤٢)

وَ لَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ مِنْ بَعْدِ ما أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولى بَصائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدىً وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٤٣)

ج ٢٠ ، ص : ١٠٦

الإعراب :

وَ يَوْمَ الْقِيامَةِ يَوْمَ منصوب من أربعة أوجه : إما لأنه مفعول به توسعا ، كأنه قال : وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة ولعنة يوم القيامة ، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه ، وإما معطوف بالنصب على موضع الجار والمجرور وهو : فِي هذِهِ الدُّنْيا وإما منصوب بما دل عليه قوله : مِنَ الْمَقْبُوحِينَ لأن الصلة لا تعمل فيما قبل الموصول ، وإما منصوب على الظرف بالمقبوحين ، أي وهم من المقبوحين يوم القيامة.

بَصائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدىً وَرَحْمَةً كلها منصوبات على الحال من الْكِتابَ.

البلاغة :

فَأَوْقِدْ لِي يا هامانُ عَلَى الطِّينِ قال الزمخشري (٢/ ٤٧٧) : ولم يقل : اطبخ لي الآجرّ ، لأنه أول من عمل الآجرّ ، فهو يعلمه الصنعة ، ولأن هذه العبارة أحسن طباقا لفصاحة القرآن وعلوّ طبقته وأشبه بكلام الجبابرة. وأمر هامان- وهو وزيره ورديفه بالإيقاد على الطين- منادى باسمه بيا في وسط الكلام : دليل التعظيم والتجبر.

بَصائِرَ لِلنَّاسِ تشبيه بليغ ، حذفت فيه أداة الشبه ووجه الشبه ، أي أعطيناه التوراة كأنها أنوار لقلوب الناس.

المفردات اللغوية :

هامانُ وزير فرعون فَأَوْقِدْ لِي يا هامانُ عَلَى الطِّينِ فاصنع لي الآجرّ أي الطوب ، قال عمر رضي اللّه عنه حين سافر إلى الشام ورأى القصور المشيدة بالآجرّ : ما علمت أن أحدا بنى بالآجر

ج ٢٠ ، ص : ١٠٧

غير فرعون صَرْحاً قصرا عاليا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلى إِلهِ مُوسى أصعد وأرتقي ، ثم أنظر إليه وأوقف عليه ، كأنه توهم أنه لو كان ، لكان جسما في السماء يمكن الترقي إليه وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكاذِبِينَ في ادعائه إلها آخر وأنه رسول.

(١٠٩/٢٠)

فِي الْأَرْضِ أرض مصر بِغَيْرِ الْحَقِّ بغير استحقاق لا يُرْجَعُونَ بالنشور فَنَبَذْناهُمْ طرحناهم فِي الْيَمِّ في البحر المالح ، فغرقوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الظَّالِمِينَ حين صاروا إلى الهلاك. وقوله : فَأَخَذْناهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْناهُمْ فِي الْيَمِّ قال البيضاوي : فيه تفخيم لشأن الآخذ ، واستحقار للمأخوذين ، كأنه أخذهم مع كثرتهم في كف ، وطرحهم في اليم.

أَئِمَّةً قادة ، قدوة للضلال يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ يدعون إلى موجبات النار من الكفر والمعاصي وَيَوْمَ الْقِيامَةِ لا يُنْصَرُونَ بدفع العذاب عنهم لَعْنَةً طردا عن الرحمة ، وخزيا الْمَقْبُوحِينَ المطرودين المبعدين المخ الْكِتابَ هنا التوراة الْقُرُونَ الْأُولى

المناسبة :

قوبل موس

ظيمه وعبادته ، أي عبادة الملك صاحب السلطة والنفوذ المطلق والانقياد التام لأوامره. وهذا من إغراءات الحكم والسلطان ، وغرور الملك والعظمة.

فَأَوْقِدْ لِي يا هامانُ عَلَى الطِّينِ ، فَاجْعَلْ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلى إِلهِ مُوسى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكاذِبِينَ أي فاصنع لي يا هامان الوزير آجرّا ، تبني لي به قصرا عاليا جدا ، شامخا في الفضاء حتى أصعد به وأرتقي إلى السماء ، فأشاهد إله موسى الذي يعبده ، توهما منه أنه جسم كالأجسام المادية الأخرى. وإني لأعتقد أنه كاذب في قوله : إن هناك ربا آخر غيري ، كما في آية أخرى : وَقالَ فِرْعَوْنُ : يا هامانُ ابْنِ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبابَ ، أَسْبابَ السَّماواتِ ، فَأَطَّلِعَ إِلى إِلهِ مُوسى ، وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كاذِباً ، وَكَذلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ ، وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ ، وَما كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبابٍ [غافر ٤٠/ ٣٦- ٣٧].

وقد أراد فرعون بادعاء الألوهية وبناء أعلى صرح في زمانه التلبيس

)

(١١٠/٢٠)

(١) تفسيره المعروف بالتفسير الكبير : ٢٤/ ٢٥٣.

ج ٢٠ ، ص : ١٠٩

و الترويج على الناس ، والإظهار لرعيته تكذيب موسى فيما زعمه من دعوى إله غير فرعون. ثم ذكر اللّه تعالى سبب غروره وعناده فقال :

وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ، وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنا لا يُرْجَعُونَ أي لقد طغى فرعون وقومه وأتباعه وتجبروا ، وأكثروا في الأرض الفساد ، واعتقدوا أنه لا قيامة ولا معاد ، ولا حساب ولا عقاب ، وكل من توهم ذلك هان عليه الطغيان والاستكبار والاستعلاء في الأرض ، ولم يعلموا أن اللّه رقيب عليهم ومجازيهم بما يستحقون ، لذا أبان تعالى عقابهم العاجل في الدنيا بعد تهديدهم بعقاب الآخرة فقال :

فَأَخَذْناهُ وَجُنُودَهُ ، فَنَبَذْناهُمْ فِي الْيَمِّ ، فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الظَّالِمِينَ أي أغرقناهم في البحر في صبيحة واحدة ، فلم يبق منهم أحد ، فانظر أيها المتأمل في قدرة اللّه وعظمته وآياته كيف كان مصير هؤلاء الظالمين الذي ظلموا أنفسهم ، وكفروا بربهم ، وادعى كبيرهم الألوهية من دون اللّه.

ثم ذكر اللّه تعالى ما يوجب مضاعفة عذابهم فقال :

وَجَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ، وَيَوْمَ الْقِيامَةِ لا يُنْصَرُونَ أي وجعلنا فرعون وأشراف قومه قادة ضلال في تكذيب الرسل وإنكار وجود الإله الصانع ، فلم يكتفوا بضلال أنفسهم ، بل قاموا بإضلال غيرهم ، فاستحقوا جزاءين : جزاء الضلال والإضلال ، ولا أمل لهم في النجاة ونصرة الشفعاء ، فهم يوم القيامة لا نصير ولا شفيع لهم ينصرهم من بأس اللّه ويدفع عنهم عذاب اللّه ، فاجتمع عليهم خزي الدنيا وذل الآخرة ، كما قال :

وَ أَتْبَعْناهُمْ فِي هذِهِ الدُّنْيا لَعْنَةً ، وَيَوْمَ الْقِيامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ أي وألزمناهم بصفة دائمة في الدنيا لعنة وخزيا وغضبا على ألسنة المؤمنين والأنبياء المرسلين ، كما أنهم يوم القيامة من المطرودين المبعدين عن رحمة اللّه ، كما قال تعالى :

ج ٢٠ ، ص : ١١٠

وَ أُتْبِعُوا فِي هذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيامَةِ ، بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ [هود ١١/ ٩٩].

وأما موسى وجند الإيمان بعد إغراق فرعون وقومه ، فلهم نور التوراة :

وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ مِنْ بَعْدِ ما أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولى ، بَصائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدىً وَرَحْمَةً ، لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ أي لقد أنعم اللّه على عبده ورسوله موسى الكليم عليه السلام بإنزال التوراة بعد ما أهلك

فرعون وقومه ومن تقدمهم من قوم نوح وهود وصالح ولوط ، ليكون ذلك الكتاب مصدر إشعاع للحياة وأنوارا للقلوب ، يميز به بين الحق والباطل ، وهداية من الضلال والعمى ، ورحمة لمن آمن به ، وإرشادا إلى العمل الصالح ، لعل الناس يتذكرون به ويتعظون ، ويهتدون بسببه.

روى ابن جرير وابن أبي حاتم والبزار عن أبي سعيد الخدري مرفوعا إلى النبي صلّى اللّه عليه وسلم قال : « ما أهلك اللّه قوما بعذاب من السماء ولا من الأرض بعد ما أنزلت التوراة على وجه الأرض غير أهل القرية الذين مسخوا قردة بعد موسى ، ثم قرأ : وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ مِنْ بَعْدِ ما أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولى الآية » .

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يلي :

١- نفي فرعون ألوهية اللّه عز وجل وادعاؤه الألوهية ، قال ابن عباس :

كان بين قوله : وَقالَ فِرْعَوْنُ : يا أَيُّهَا الْمَلَأُ ما عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرِي وبين قوله : أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلى أربعون سنة ، وكذب عدو اللّه ، بل علم أن له ثمّ ربّا هو خالقه وخالق قومه : وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ ؟ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ.

٢- بناء أعلى صرح شامخ للصعود إلى اللّه ورؤيته ، فخاب وضل وخسر.

٣- تعاظم فرعون وجنوده عن الإيمان بموسى ظلما وعدوانا دون أن تكون

لهم حجة تدفع ما جاء به موسى ، وتوهموا أنه لا معاد ولا بعث. ويقابل الاستكبار بالباطل الاستكبار بالحق الذي هو للّه تعالى ، فهو المتكبر في الحقيقة ، المبالغ في كبرياء الشأن ، قال النبي صلّى اللّه عليه وسلم فيما حكى عن ربه فيما رواه أبو داود وابن ماجه وابن حبان في صحيحة عن أبي هريرة وابن عباس : « الكبرياء ردائي ، والعظمة إزاري ، فمن نازعني واحدا منهما ألقيته في النار ، ولا أبالي » .

٤- بالرغم من أن فرعون وقومه كانوا عارفين بوجود إله هو اللّه تعالى ، كما تبين ، إلا أنهم كانوا ينكرون البعث : وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنا لا يُرْجَعُونَ فلأجل ذلك تمردوا وطغوا.

٥- كان عقابهم في الدنيا الإغراق في البحر المالح وهو البحر الأحمر ، في صبيحة يوم واحد ، بل في دقائق معدودة ، وإلزامهم اللعن أي البعد عن الخير ، وفي الآخرة هم من المطرودين ، المبعدين عن رحمة اللّه ، الممقوتين.

٦- لهم عقاب مضاعف إذ كانوا في ضلال وأئمة ضلال ودعاة إلى عمل أهل النار ، وزعماء كفر ، يدعون الناس إلى الكفر ويتبعونهم فيه ، فيكون عليهم وزرهم ووزر من اتبعهم حتى يكون عقابهم أشد وأكثر ،

(١١٣/٢٠)

جاء في الحديث النبوي الذي رواه مالك وأحمد والترمذي وابن ماجه والدارمي عن أبي هريرة وجرير بن عبد اللّه البجلي : « من سنّ سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة ، ومن سنّ سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة » .

٧- البقاء للأصلح ، فقد نجى اللّه موسى وقومه ، وأنزل عليه التوراة منارا للحق وتبصرا به ، وهدى من الضلالة إلى الرشاد ، ورحمة للمؤمنين بها ، لعل الناس يتعظون ويرجعون إلى ربهم من قريب ، ويذكرون هذه النعمة ، فيؤمنوا في الدنيا ، ويثقوا بثواب اللّه في الآخرة. قال يحيى بن سلّام : هو أول كتاب- يعني التوراة- نزلت فيه الفرائض والحدود والأحكام.

ج ٢٠ ، ص : ١١٢

و كان إنزال التوراة بعد إهلاك القرون الأولى (الأمم الماضية المكذبة) مثل قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط ، وقيل : من بعد إغراق فرعون وقومه وخسف الأرض بقارون ، ولعل ذلك إشعار بشدة الحاجة إليها ، فإن إهلاك القرون الأولى دليل على اندراس معالم شرائعها ، وحاجة الناس إلى تشريع جديد ينظم لهم شؤون حياتهم.

الحاجة إلى إرسال الرسل وبعثة محمد صلّى اللّه عليه وسلم [سورة القصص (٢٨) : الآيات ٤٤ الى ٤٧]

(١١٤/٢٠)

وَ ما كُنْتَ بِجانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنا إِلى مُوسَى الْأَمْرَ وَما كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٤٤) وَلكِنَّا أَنْشَأْنا قُرُوناً فَتَطاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَما كُنْتَ ثاوِياً فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِنا وَلكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (٤٥) وَما كُنْتَ بِجانِبِ الطُّورِ إِذْ نادَيْنا وَلكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أَتاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٤٦) وَلَوْ لا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنا لَوْ لا أَرْسَلْتَ إِلَيْنا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آياتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٤٧)

الإعراب :

تَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِنا خبر ثان ل كُنْتَ.

وَلكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ رَحْمَةً : إما منصوب على المصدر ، وإما مفعول لأجله ، أي ولكن فعل ذلك لأجل الرحمة ، وإما خبر كان مقدرة ، أي ولكن كان رحمة من ربك.

البلاغة :

أَنْشَأْنا قُرُوناً مجاز عقلي ، أريد به : أمما في تلك الأزمنة ، والعلاقة زمانية.

تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ جناس اشتقاق. وقوله : وَلَوْ لا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ حذف منه الجواب لدلالة السياق عليه ، أي ولو لا خشية وقوع المصيبة بهم ما أرسلناك يا محمد رسولا إليهم ، فهو إيجاز بالحذف.

ج ٢٠ ، ص : ١١٣

بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ مجاز مرسل ، من قبيل إطلاق الجزء وإرادة الكل ، أريد به بما كسبوا لأن أكثر الأعمال تزاول بالأيدي.

المفردات اللغوية :

وَ ما كُنْتَ الخطاب لرسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم ، أي ما كنت حاضرا بِجانِبِ الْغَرْبِيِّ أي بجانب الجبل أو الوادي أو المكان الغربي من موسى حين المناجاة ، فإنه كان في شق الغرب من مقام موسى إِذْ قَضَيْنا أوحينا إِلى مُوسَى الْأَمْرَ أي أمر الرسالة إلى فرعون وقومه ، والمعنى : كلفناه وعهدنا إليه بالرسالة أمرا ونهيا وَما كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ الحاضرين لما حدث ، فتعلمه وتخبر به.

أَنْشَأْنا قُرُوناً أوجدنا أمما مختلفة من بعد موسى فَتَطاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أي بعد الأمد وطال عمرهم ، فنسوا العهود ، وحرّفت الأخبار ، وتغيرت الشرائع ، واندرست العلوم ، وانقطع الوحي. وحذف المستدرك بعد لكِنَّا وأقام سببه مقامه وتقديره : فجئنا بك رسولا ، وأوحينا إليك خبر موسى وغيره ثاوِياً مقيما ، يقال : ثوى بالمكان يثوي به : أقام أَهْلِ مَدْيَنَ قوم شعيب تَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِنا تقرأ عليهم آياتنا التي فيها قصتهم ، فتخبر بها بعد معرفتها كُنَّا مُرْسِلِينَ إياك ومخبرين لك بها ، أي أرسلناك بالرسالة المتضمنة أخبار المتقدمين.

بِجانِبِ الطُّورِ جبل الطور إِذْ نادَيْنا حين نادينا موسى أن خذ الكتاب بقوة وَلكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ أي ولكن علمناك وأرسلناك رحمة من ربك لِتُنْذِرَ قَوْماً هم أهل مكة وغيرهم يَتَذَكَّرُونَ يتعظون لَوْ لا الأولى امتناعية مُصِيبَةٌ عقوبة أو عذاب في الدنيا والآخرة بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ بما كسبوا من الكفر والمعاصي لَوْ لا أَرْسَلْتَ أي هلا ، وهي تحضيضية ، تفيد الحث على حدوث ما بعدها فَنَتَّبِعَ آياتِكَ المرسل بها ، وجواب لو لا محذوف ، أي لو لا قولهم إذا أصابتهم عقوبة بسبب كفرهم ومعاصيهم ، لما أرسلناك

رسولا. والمراد أن إرسال النبي محمد صلّى اللّه عليه وسلم وكل رسول قبله كان لقطع أعذار الناس ، وإبطال احتجاجهم بعدم الاعلام والتبليغ.

المناسبة :

(١١٦/٢٠)

بعد أن قص اللّه تعالى قصة موسى وهارون مع فرعون وقومه وما تضمنه من غرائب الأحداث والعبر ، وأوحى اللّه تعالى بجميع تلك الأخبار إلى نبيه محمد صلّى اللّه عليه وسلم ، ذكّره بإنعامه عليه بذلك وبما خصه من المغيبات التي لا يعلمها ، لا هو ولا قومه ، وأبان الحاجة إلى رسالته ، لئلا يكون للناس على اللّه حجة بعد

ج ٢٠ ، ص : ١١٤

الرسل. وكل ذلك برهان على أن القرآن وحي من عند اللّه ، وعلى نبوة محمد صلّى اللّه عليه وسلم ، حيث أخبر بالغيوب الماضية وهو رجل أمي لا يقرأ شيئا من الكتب.

التفسير والبيان :

وَما كُنْتَ بِجانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنا إِلى مُوسَى الْأَمْرَ ، وَما كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ أي وما كنت يا محمد حاضرا بجانب المكان أو الجبل الغربي- غرب موقف موسى حين كلم اللّه موسى ، وأوحى إليه أمر الرسالة ، وأعطاه ألواح التوراة ، وألزمه العهد ، وما كنت من الحاضرين لذلك ، فتعلمه وتخبر به.

ولكنا أعلمناك بخبره ليكون برهانا على نبوتك ، إذ تخبر بأخبار الماضين كأنها واقعة أمامك ، وأنت أمي لا تقرأ ولا تكتب ، مما يدل على كون ذلك الإخبار بوحي من عند اللّه تعالى ، ثم بين سبب ذلك الإخبار :

(١١٧/٢٠)

وَ لكِنَّا أَنْشَأْنا قُرُوناً فَتَطاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أي والسبب الداعي إلى الإخبار عن الماضين وإنزال الوحي مجددا في القرآن الكريم وجود أمم كثيرة من بعد موسى ، بعد بها الأمد ، وطال عليها العهد ، فاندرست العلوم ، وتغيرت الشرائع ، ونسي الناس حجج اللّه عليهم وما أوحاه إلى الأنبياء المتقدمين ، فجئنا بك يا محمد رسولا تجدد العهد الإلهي ، وتبين للناس رسالة اللّه إليهم ، كما قال سبحانه : يا أَهْلَ الْكِتابِ ، قَدْ جاءَكُمْ رَسُولُنا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا : ما جاءَنا مِنْ بَشِيرٍ وَلا نَذِيرٍ ، فَقَدْ جاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ، وَاللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ [المائدة ٥/ ١٩].

والآية تنبيه على المعجزة ، إذ الإخبار عن قصة مضى عليها مئات السنوات ، دون مشاهدة ولا حضور لأحداثها ، دليل واضح على نبوة المخبر ، وهو رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم. وتلا ذلك مؤيدات أخرى مشابهة :

ج ٢٠ ، ص : ١١٥

١- وَما كُنْتَ ثاوِياً فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِنا ، وَلكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ أي وما كنت مقيما بين قوم شعيب في مدين ، تقرأ عليهم آياتنا المنزلة ، حين أخبرت عن النبي شعيب عليه السلام وما قال لقومه وما ردوا عليه ، ولكن- ذات الجلالة- نحن أوحينا إليك ذلك ، وأرسلناك للناس رسولا ، وأيدناك بهذه الآيات المعجزات ، لتكون برهانا على صحة نبوتك وصدق رسالتك ، ولو لا خبر الوحي ما علمت بذلك ولا أخبرت أحدا بشي ء.

(١١٨/٢٠)

٢- وَما كُنْتَ بِجانِبِ الطُّورِ إِذْ نادَيْنا ، وَلكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أَتاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ أي وما كنت يا محمد أيضا بجانب جبل الطور حين مناداة موسى وتكليمه ومناجاته ، حتى تعرف تفاصيل الخبر وتحدث بين الناس. وهذا شبيه بقوله المتقدم : وَما كُنْتَ بِجانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنا إِلى مُوسَى الْأَمْرَ ولكنه ورد بصيغة أخرى أخص مما سبق وهو النداء ، أي مناداة موسى عليه السلام ليلة المناجاة وتكليمه « ١ » .

ولكن علمناك وأخبرناك وأنزلنا عليك القرآن المتضمن تلك الأخبار وغيرها ، وأرسلناك رحمة مهداة منه بك وبالعباد المرسل إليهم ، لتنذر قوما هم العرب لم ينذروا قبل ، بأس اللّه وعذابه إن لم يؤمنوا به ، وظلموا على وثنيتهم وضلالهم ، لعلهم يهتدون بما جئتهم به من اللّه عز وجل ، فيصيروا من أهل السعادة.

والثابت تاريخيا أنه لم يأت إلى العرب رسول بعد إسماعيل عليه السلام ، وأما رسالة موسى وعيسى فكانت خاصة ببني إسرائيل فقط.

---

(١) الظاهر أن اللّه تعالى كلم موسى مرتين : مرة حين البعثة ، ومرة حين اختار سبعين رجلا من شيوخ بني إسرائيل للميقات ليظهروا توبتهم من عبادة العجل ، ولما كلمه اللّه وهم يسمعون كلام اللّه تمردوا وعصوا وقالوا : لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً.

ج ٢٠ ، ص : ١١٦

ثم صرح اللّه تعالى بسبب إرسال النبي محمد صلّى اللّه عليه وسلم فقال :

وَ لَوْ لا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ، فَيَقُولُوا : رَبَّنا لَوْ لا أَرْسَلْتَ إِلَيْنا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آياتِكَ ، وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أي ولو لا قول الناس ومنهم العرب إذا أصابتهم مصيبة العذاب على كفرهم : ربنا هلا أرسلت إلينا رسولا يبين لنا صحة الاعتقاد أو التوحيد ، ونظامك الشرعي للحياة ، فنؤمن بك ربا واحدا ، ونعمل بشريعتك ، ما أرسلناك للناس رسولا.

ولكنا بعثناك رسولا نذيرا تقيم عليهم الحجة ، وتبلغهم رسالة ربهم في العقيدة والأخلاق ودستور الحياة ، وتقطع عذرهم وتبطل حجتهم بأنهم لم يأتهم رسول ولا نذير ، كما قال تعالى : رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ، وَكانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً [النساء ٤/ ١٦٥] وقال سبحانه : أَنْ تَقُولُوا : إِنَّما أُنْزِلَ الْكِتابُ عَلى طائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنا ، وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِراسَتِهِمْ لَغافِلِينَ ، أَوْ تَقُولُوا : لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتابُ لَكُنَّا أَهْدى مِنْهُمْ ، فَقَدْ جاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ .. [الأنعام ٦/ ١٥٦- ١٥٧]. وهذا كله من رحمة اللّه بعباده ألا يعذب إنسانا إلا بعد بيان ، ولا يعاقب إلا بعد تكليف وإرسال رسول.

فقه الحياة أو الأحكام :

تضمنت الآيات موضوعين :

الأول- إقامة بعض الأدلة على كون القرآن موحى به من عند اللّه وعلى صحة نبوة النبي محمد صلّى اللّه عليه وسلم : وهي الإخبار عن أحوال الأنبياء المتقدمين وقصصهم مع أقوامهم. وخص بالذكر قصتين : هما أولا- مناجاة اللّه موسى وتكليمه في جبل الطور في المكان الغربي من موقف موسى في الوادي المقدس طوى ، حيث

ج ٢٠ ، ص : ١١٧

بعثه رسولا ، وأنزل عليه ألواح التوراة ، وثانيا- قصة شعيب مع قومه أهل مدين.

و لو لا الإخبار القرآني بذلك ، ما علم بالخبر محمد صلّى اللّه عليه وسلم وقومه العرب ومنهم أهل مكة ، وإنما فعل تعالى ذلك رحمة منه برسوله صلّى اللّه عليه وسلم وبعباده ، لينذرهم بها ، وينذر العرب الذين لم يشاهدوا تلك الأخبار.

الثاني- بيان الحكمة من إرسال النبي محمد صلّى اللّه عليه وسلم بل وكل الرسل : وهي تبليغ شريعة اللّه ووحيه ، وتصحيح العقيدة ، وإعلان كلمة التوحيد ، حتى لا يبقى لهم عذر بالجهل بالأحكام أو

الاعتقاد بعد بلوغ خبر الرسل لهم ، وإكمال البيان ، وقد حكم اللّه بأنه لا يعاقب عبدا إلا بعد إكمال البيان وإقامة الحجة وبعثة الرسل.

وهذا يدل على مبلغ الحاجة الداعية إلى إرسال الرسل وإنزال الكتب السماوية.

تكذيب أهل مكة بالقرآن وبرسالة النبي صلّى اللّه عليه وسلم. [سورة القصص (٢٨) : الآيات ٤٨ الى ٥١]

فَلَمَّا جاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنا قالُوا لَوْ لا أُوتِيَ مِثْلَ ما أُوتِيَ مُوسى أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِما أُوتِيَ مُوسى مِنْ قَبْلُ قالُوا سِحْرانِ تَظاهَرا وَقالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كافِرُونَ (٤٨) قُلْ فَأْتُوا بِكِتابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدى مِنْهُما أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (٤٩) فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّما يَتَّبِعُونَ أَهْواءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَواهُ بِغَيْرِ هُدىً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥٠) وَلَقَدْ وَصَّلْنا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٥١)

ج ٢٠ ، ص : ١١٨

البلاغة :

لَوْ لا أُوتِيَ مِثْلَ ما أُوتِيَ مُوسى لَوْ لا هنا : أي هلا للتحضيض ، لا لامتناع الوجود.

قُلْ : فَأْتُوا بِكِتابٍ يراد بالأمر هنا التعجيز.

المفردات اللغوية :

فَلَمَّا جاءَهُمُ الْحَقُّ أي الأمر الحق وهو القرآن المنزل على محمد الرسول المؤيد بالمعجزات.

لَوْ لا أُوتِيَ هلا. مِثْلَ ما أُوتِيَ مُوسى من الآيات كاليد البيضاء والعصا وغيرهما والكتاب جملة واحدة.

أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِما أُوتِيَ مُوسى مِنْ قَبْلُ أي أولم يكفر أمثالهم من بني جنسهم في الرأي والمذهب ، وهم كفرة زمان موسى ، وكان فرعون عربيا من أبناء عاد. قالُوا : سِحْرانِ أي القرآن والتوراة ، وقرئ : ساحران ، أي موسى وهارون أو موسى ومحمد. تَظاهَرا تعاونا وتناصرا. وَقالُوا : إِنَّا بِكُلٍّ أي من النبيين والكتابين. كافِرُونَ جاحدون.

هُوَ أَهْدى مِنْهُما من الكتابين ، وهو يؤيد أن المراد بالساحرين : موسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام. صادِقِينَ في قولكم : إنا ساحران مختلفان ، ويراد بذلك الإلزام والتبكيت. فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ أي لدعائك إلى الإتيان بالكتاب الأهدى ، فحذف المفعول للعلم به ، ولأن فعل الاستجابة يعدّى بنفسه إلى الدعاء وباللام إلى الداعي ، فإذا عدّي إليه حذف الدعاء غالبا ، والمراد : فإن لم يفعلوا ما كلفتهم به. يَتَّبِعُونَ أَهْواءَهُمْ في كفرهم ، إذ لو اتبعوا حجة لأتوا بها. وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَواهُ .. استفهام بمعنى النفي. بِغَيْرِ هُدىً مِنَ اللَّهِ في موضع الحال للتأكيد ، أو التقييد ، فإن هوى النفس قد يوافق

الحق. إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ الكافرين الذين ظلموا أنفسهم بالانهماك في اتباع الهوى. وَصَّلْنا لَهُمُ الْقَوْلَ أي أتبعنا بعضه بعضا في الإنزال ليتصل التذكير ، فنزل القرآن منجما مفرقا يتصل بعضه ببعض ، ويتبع نزول الكتب المتقدمة. لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ يتعظون فيؤمنوا ويطيعوا.

المناسبة :

بعد أن حكى اللّه تعالى عن كفار مكة وغيرهم أنهم عند الخوف من المصيبة

ج ٢٠ ، ص : ١١٩

(١٢٢/٢٠)

قالوا : هلا أرسلت إلينا رسولا ، فنتّبع آياتك ، بيّن أنه بعد إرسال الرسول محمد صلّى اللّه عليه وسلم إلى أهل مكة قالوا : لو لا أوتي مثل ما أوتي موسى من قبل ، فكفروا وكذبوا بالقرآن وبرسالة محمد ، وتعلقوا بشبهة قبل البعثة ، وبعد البعثة ، مما يدل على أنه لا قصد لهم سوى الزيغ والعناد ، لذا طلبوا معجزات مادية كمعجزات موسى كاليد والعصا ، وقد كفر أمثالهم المعاندون قبلهم بما جاء به موسى من المعجزات ، ووصفوه بالسحر ، فإن استطاعوا الإتيان بكتاب آخر غير كتابي موسى ومحمد ، فليأتوا به ، وما أنزل القرآن منجما إلا لتجديد الذكرى والعبرة.

التفسير والبيان :

فَلَمَّا جاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنا قالُوا : لَوْ لا أُوتِيَ مِثْلَ ما أُوتِيَ مُوسى أي حينما جاء الحق من عند اللّه وهو القرآن المنزل على رسول اللّه ، قال أهل مكة الذين لم يأتهم رسول من قبل ، على وجه التعنت والعناد والتمادي في الكفر والجهل والضلال : هلا أوتي محمد مثلما أوتي موسى قبله من المعجزات والآيات الكثيرة مثل العصا واليد وتظليل الغمام وإنزال المنّ والسلوى وانفجار الماء من الحجر ، ونحو ذلك من الآيات الباهرة التي أجراها اللّه على يدي موسى حجة وبرهانا له على فرعون وقومه وبني إسرائيل.

ولكن هذا مجرد عناد ومكابرة وتهرب من الإيمان :

أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِما أُوتِيَ مُوسى مِنْ قَبْلُ أي أولم يكفر أمثالهم من البشر المعاندين بما أوتي موسى من تلك الآيات العظيمة ، وهم الذين كفروا في زمان موسى بما جاء به ، فهذا شأن المكابرين المعاندين دائما.

قالُوا : سِحْرانِ تَظاهَرا ، وَقالُوا : إِنَّا بِكُلٍّ كافِرُونَ أي قال هؤلاء القوم المشركون في مكة : القرآن والتوراة سحران ، ومحمد وموسى ساحران ، تعاونا على التدجيل والتضليل ، وصدّق كلّ منهما الآخر ، وإنا بكلّ منهما

ج ٢٠ ، ص : ١٢٠

كافرون ، لا نصدق بما جاءا به.

فتحداهم اللّه بأن يأتوا بكتاب آخر أهدى للبشر :

قُلْ : فَأْتُوا بِكِتابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدى مِنْهُما أَتَّبِعْهُ ، إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ أي قل يا محمد لقومك : ائتوا بكتاب آخر من عند اللّه أصلح لهداية البشر من التوراة والقرآن ، وأكثر نفعا وهداية ، لكي أتبعه مع غيري ، إن كنتم صادقين فيما تقولون أو تدّعون ، وتدافعون به الحق ، وتعارضون به من الباطل.

وهذا تنبيه على عجزهم عن الإتيان بمثل القرآن.

فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّما يَتَّبِعُونَ أَهْواءَهُمْ أي فإن لم يجيبو

وَمن سار مع هواه ، وانقاد لشهواته بغير حجة مأخوذة من كتاب اللّه ، ولم يقم له دليل صائب عن اللّه ، وهذا دليل على بطلان أو فساد التقليد في العقائد ، وأنه لا بدّ من الحجة والاستدلال.

إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ أي إن اللّه لا يوفق للحق والرشاد الذين ظلموا أنفسهم بالشرك والعصيان ، وتكذيب الرسل ، واتّباع الأهواء. وهذا عام يتناول كل كافر.

وأما حكمة إنزال القرآن منجما فهي :

وَلَقَدْ وَصَّلْنا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ أي ولقد أتبعنا بعض القرآن بعضا في النزول لقريش ، حسبما تقتضي الحكمة ، وتدل عليه المصلحة ، ويلائم كل

ج ٢٠ ، ص : ١٢١

عصر وأوان ، لعلهم وأمثالهم من البشر يتعظون ويتنبهون إلى ما فيه خيرهم وصلاحهم ، فيؤمنوا بالقرآن وبمن أنزله وبمن أنزل عليه ، وهو مصدّق لما بين يديه من الكتاب ومهيمن عليه.

فقه الحياة أو الأحكام :

يستفاد من الآيات ما يأتي :

١- إن خطة الكفار واحدة في كل زمان ، دأبهم المكابرة والعناد والإنكار ، وطلب المعجزات المادية المحسوسة ، فإنه بالرغم من حدوثها لن يؤمنوا لأن المكذب بمعجزة واحدة مكذب بكل المعجزات.

و إذا نزل على محمد صلّى اللّه عليه وسلم مثل معجزات موسى عليه السلام كانقلاب العصا حية ، واليد البيضاء ، وفلق البحر ، وتظليل الغمام ، وانفجار الحجر بالماء ، وإنزال المنّ والسلوى ، وكتابة الألواح في التوراة ، وتكليم اللّه له ، وإنزال القرآن جملة واحدة كالتوراة ، إذا نزل مثل ذلك فهم

معتصمون بالكفر مقيمون عليه.

٢- إن حجة الكفار في تكذيب كتب اللّه ورسله واحدة أيضا ، وهي الاتهام بأن تلك الكتب سحر مختلق ، وأولئك الرسل سحرة مبطلون ، بل إنهم متواطئون على السحر والتدجيل ، كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا.

٣- إن اليهود علّموا المشركين أن يقولوا لمحمد صلّى اللّه عليه وسلم : لو لا أوتيت مثل ما أوتي موسى ، فإنه أوتي التوراة دفعة واحدة. وهؤلاء اليهود الذين توارثوا الكفر هم الذين كفروا بما جاء به موسى من قبل ، فقالوا في موسى وهارون : هما ساحران ، فقلدهم كفار قريش وقالوا عن موسى ومحمد مثل ذلك القول ، واتفق الفريقان على الكفر بكلّ من التوراة والإنجيل والقرآن ، وعلى الكفر بموسى وعيسى ومحمد على نبينا وعليهم الصلاة والسلام.

ج ٢٠ ، ص : ١٢٢

٤- يقابل التحدي والعناد بتحدّ أشد منه ، فإذا كفرتم معاشر اليهود والمشركين بكتب اللّه المنزلة على رسله ، فأحضروا كتابا أهدى منها يتبعه الناس ، ليكون ذلك عذرا لكم في الكفر ، ومسوغا لما أنتم عليه ، إن كنتم صادقين في أن تلك الكتب سحر مفترى ، وقد مهر اليهود والعرب بالسحر.

٥- إذا لم يؤمن الناس بهذا القرآن ولم يأتوا بكتاب من عند اللّه ، فهم أهل ضلال وأهواء ، يتبعون ما تملي عليهم شهواتهم وآراؤهم الخاصة وشياطينهم ، دون حجة لهم ولا دليل.

٦- لا أحد أضل ممن سار مع هواه ، فهو ظالم ، واللّه لا يوفق الظالمين للخير ، وهداية اللّه تعالى خاصة بالمؤمنين.

(١٢٥/٢٠)

٧- لقد تتابع إنزال الكتب من عند اللّه ، وإرسال الرسل ، وأخبار الأنبياء بعضها ببعض ، كتابا بعد كتاب ، ورسولا بعد رسول ، وخبرا بعد خبر ، وتتابع أيضا نزول القرآن منجما مقسطا بحسب الوقائع والمناسبات ، وعلى وفق الحكمة والمصلحة ، ليستمر صوت التذكير والتنبيه ، وتتجدد الدعوة إلى الإيمان حالا بعد حال ، وزمانا إثر زمان.

ثم خلد اللّه صوت الحق الإلهي بهذا القرآن ، وجعله ذكرى متجددة دائمة للأجيال ، بما تكفل له من الصون والحفظ عن التغيير والتبديل ، والتحريف والتصحيف ، وبما اشتمل عليه من التنوع في الأسلوب والخطاب وعدا ووعيدا ، وقصصا وعبرا ، ونصائح ومواعظ ، إرادة أن يتذكر الناس به فيؤمنوا به ويعملوا بموجبه ، فيفلحوا ، ويقلعوا عن اتباع الأديان الباطلة المنسوخة ، وعن الأهواء والشهوات البائدة الفارغة ، والوثنية البدائية المنافية لكرامة الإنسان ، والمصادمة للعقل البشري السوي.

ج ٢٠ ، ص : ١٢٣

٨- لا يقبل التقليد في العقائد ، وإنما لا بدّ من غرس العقيدة بالحجة والبرهان.

٩- نبّه القرآن بتحدي العرب وغيرهم الإتيان بمثله على عجز محاكاته على الدوام ، وأنه كتاب موحى به من عند اللّه تعالى ، فهو حجة اللّه على خلقه إلى يوم القيامة : وَإِنَّهُ لَكِتابٌ عَزِيزٌ ، لا يَأْتِيهِ الْباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ ، تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ [فصلت ٤١/ ٤١- ٤٢].

١٠- تنطق الآيات جملة وتفصيلا بالدلالة على نبوة النبي محمد صلّى اللّه عليه وسلم.

إيمان طوائف من أهل الكتاب بالقرآن [سورة القصص (٢٨) : الآيات ٥٢ الى ٥٥]

(١٢٦/٢٠)

الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ (٥٢) وَإِذا يُتْلى عَلَيْهِمْ قالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ (٥٣) أُولئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِما صَبَرُوا وَيَدْرَؤُنَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ (٥٤) وَإِذا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقالُوا لَنا أَعْمالُنا وَلَكُمْ أَعْمالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجاهِلِينَ (٥٥)

المفردات اللغوية :

مِنْ قَبْلِهِ أي قبل القرآن ، بدليل قوله الآتي : وَإِذا يُتْلى عَلَيْهِمْ قالُوا : آمَنَّا بِهِ أي صدقنا بأنه كلام اللّه تعالى. مُسْلِمِينَ منقادين خاضعين للّه تعالى. يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بإيمانهم بالكتابين : كتابهم والقرآن. بِما صَبَرُوا بصبرهم على العمل بهما. وَيَدْرَؤُنَ يدفعون. بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أي بالطاعة المعصية ، لقوله صلّى اللّه عليه وسلم فيما رواه أحمد والترمذي والحاكم والبيهقي عن أبي ذرّ : « و أتبع السيئة الحسنة تمحها » .

يُنْفِقُونَ يتصدقون.

اللَّغْوَ هو الساقط من القول ، والمقصود به هنا الشتم والأذى من الكفار. أَعْرَضُوا عَنْهُ تكرما. سَلامٌ عَلَيْكُمْ سلام متاركة لهم وتوديع أو دعاء لهم بالسلامة عما هم فيه.

لا نَبْتَغِي الْجاهِلِينَ لا نطلب صحبتهم ولا نريدها ، ولا نريد أن نكون من أهل السفه والجهل ، فنعاملكم بالمثل.

ج ٢٠ ، ص : ١٢٤

سبب النزول : نزول الآية (٥٢) :

وَإِذا يُتْلى عَلَيْهِمْ : أخرج ابن جرير عن علي بن رفاعة قال : خرج عشرة رهط من أهل الكتاب ، منهم

رفاعة- يعني أباه- إلى النبي صلّى اللّه عليه وسلم ، فآمنوا فأوذوا ، فنزلت : الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ.
وأخرج أيضا عن قتادة قال :

(١٢٧/٢٠)

كنا نتحدث أنها نزلت في ناس من أهل الكتاب كانوا على الحق ، حتى بعث اللّه محمدا صلّى اللّه عليه وسلم ، فآمنوا به ، منهم سلمان الفارسي وعبد اللّه بن سلام.
وقال سعيد بن جبير : نزلت هذه الآية في سبعين من القسيسين بعثهم النجاشي ، فلما قدموا على النبي صلّى اللّه عليه وسلم قرأ عليهم : يس وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ حتى ختمها ، فجعلوا يبكون ، وأسلموا « ١ » .
وعلى كل حال ، العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.
المناسبة :
بعد أن أقام اللّه تعالى الدليل على أن القرآن وحي من عند اللّه ، وعلى صحة نبوة محمد صلّى اللّه عليه وسلم ، أكد ذلك بأن جماعات من أهل الكتاب الذين آمنوا باللّه وحده قبل نزول القرآن ، أسلموا وآمنوا بمحمد صلّى اللّه عليه وسلم ، حين اقتنعوا بصدقه وصحة ما أنزل عليه ، فكان غير أهل الكتاب أولى بالإيمان أو الإسلام.
التفسير والبيان :
الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ أي إن جماعة من علماء أهل الكتاب الأولياء الأصفياء ، من اليهود والنصارى ، الذين عاصروا النبي محمدا صلّى اللّه عليه وسلم ، آمنوا بالقرآن ، لمطابقته لأصول كتبهم المتقدمة ، وبشارة تلك

---

(١) تفسير ابن كثير : ٣/ ٣٩٣ [.....]
ج ٢٠ ، ص : ١٢٥
الكتب بمحمد وتطابق الأوصاف عليه. فقوله : مِنْ قَبْلِهِ أي قبل القرآن.
وهُمْ بِهِ أي بالقرآن أو بمحمد صلّى اللّه عليه وسلم أو بهما معا يصدّقون.

(١٢٨/٢٠)

و للآية نظائر كثيرة منها : الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ ، أُولئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ [البقرة ٢/ ١٢١] ، ومنها : وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ ، وَما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَما أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خاشِعِينَ لِلَّهِ [آل عمران ٣/ ١٩٩] ، ومنها : إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذا يُتْلى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقانِ سُجَّداً ، وَيَقُولُونَ : سُبْحانَ رَبِّنا إِنْ كانَ وَعْدُ رَبِّنا لَمَفْعُولًا [الإسراء ١٧/ ١٠٧- ١٠٨].

وَإِذا يُتْلى عَلَيْهِمْ قالُوا : آمَنَّا بِهِ ، إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنا ، إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ أي وإذا قريء عليهم القرآن ، قالوا : صدقنا به ، وآمنا بأنه الكلام الحق الصدق الثقة من ربّنا ، وكنا مصدقين باللّه مسلمين له أي موحدين ، مخلصين للّه ، مستجيبين له ، من قبل نزول هذا القرآن ، أو من قبل بعثة محمد صلّى اللّه عليه وسلم.

وهذا دليل على قدم إيمانهم ، لما وجدوه في كتب الأنبياء عليهم السلام المتقدمين من البشارة بمقدم النبي محمد صلّى اللّه عليه وسلم ، فمدحهم تعالى بهذا المدح العظيم وقال :

أُولئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِما صَبَرُوا أي إن هؤلاء المتصفين بهذه الصفة الذين آمنوا بالكتاب الأول وهو كتابهم ، ثم بالثاني وهو القرآن لهم ثواب مضاعف مرتين ، جزاء صبرهم وثباتهم على الإيمانين ، فإن تجشم مثل هذا شديد على النفوس ، فإنهم لم يأبهوا بإيذاء قومهم.

ونظير الآية : يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ [الحديد ٥٧/ ٢٨] ، و

ورد في الحديث الصحيح عند البخاري ومسلم عن أبي موسى الأشعري رضي اللّه عنه قال :

قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم : « ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين : رجل من أهل الكتاب آمن

بنبيه ثم آمن بي ، وعبد مملوك أدّى حق اللّه وحق مواليه ، ورجل كانت له أمة ، فأدّبها ، فأحسن تأديبها ، ثم أعتقها فتزوجها » .

و

روى الإمام أحمد عن أبي أمامة قال : إني لتحت راحلة رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم يوم الفتح ، فقال قولا حسنا جميلا وقال فيما قال : « من أسلم من أهل الكتاب ، فله أجره مرتين ، وله ما لنا ، وعليه ما علينا » .

وبعد أن مدحهم اللّه تعالى بالإيمان أولا ، أثنى عليهم بالطاعات البدنية في قوله : وَيَدْرَؤُنَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ ثم بالطاعات المالية في قوله :

وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ ثم باشتغالهم بالطاعات والأفعال والأخلاق الحسنة في قوله : وَإِذا سَمِعُوا اللَّغْوَ

أَعْرَضُوا عَنْهُ فقال :

– وَيَدْرَؤُنَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أي يدفعون السيئة بالحسنة ، فلا يقابلون السيء بمثله ، ولكن يعفون ويصفحون.

– وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ أي وينفقون من رزق اللّه الحلال في النفقات الواجبة لأهليهم وأقاربهم ، ويؤدون الزكاة المفروضة ، والمستحبة من التطوعات وصدقات النفل والقربات.

– وَإِذا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ ، وَقالُوا : لَنا أَعْمالُنا ، وَلَكُمْ أَعْمالُكُمْ ، سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجاهِلِينَ أي وإذا سمعوا من المشركين أو غيرهم لغو الكلام وهو الساقط من القول من أذى وتعيير وسبّ وشتم وتكذيب ، أعرضوا عن أهله ، ولم يخالطوهم ولم يعاشروهم ، بل كانوا كما قال تعالى : وَإِذا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِراماً [الفرقان ٢٥/ ٧٢].

وقالوا إذا سفه عليهم سفيه ، وكلّمهم بما لا يليق : لنا أعمالنا فنحن المسؤولون عنها ثوابا وعقابا ، ولكم أعمالكم عليكم تبعاتها ، لا نرد عليكم ، سلام عليكم سلام متاركة وتوديع ، أو سلمكم اللّه مما أنتم فيه ، لا نريد اتباع طريق

ج ٢٠ ، ص : ١٢٧

(١٣٠/٢٠)

الجاهلين ولا نحبها ولا نصاحب أهلها ، ونؤثر الكلام الطيب ، ولا نقابل الكلام القبيح بمثله. ونظير الآية وَإِذا خاطَبَهُمُ الْجاهِلُونَ قالُوا : سَلاماً [الفرقان ٢٥/ ٦٣] قال الحسن رحمه اللّه عن كلمة سَلامٌ عَلَيْكُمْ : هذه الكلمة تحية بين المؤمنين ، وعلامة الاحتمال من الجاهلين.

روى محمد بن إسحاق في سيرته : أنه قدم على رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم ، وهو بمكة ، عشرون رجلا أو قريب من ذلك من النصارى ، حين بلغهم خبره من الحبشة ، فوجدوه في المسجد ، فجلسوا إليه وكلموه وساءلوه ، ورجال من قريش في أنديتهم حول الكعبة ، فلما فرغوا من مساءلة رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم عما أرادوا ، دعاهم إلى اللّه تعالى ، وتلا عليهم القرآن.

فلما سمعوا القرآن ، فاضت أعينهم من الدمع ، ثم استجابوا للّه ، وآمنوا به ، وصدقوه ، وعرفوا منه ما كان يوصف لهم في كتابهم من أمره ، فلما قاموا عنه اعترضهم أبو جهل بن هشام في نفر من قريش ، فقالوا لهم : خيّبكم اللّه من ركب ، بعثكم من وراءكم من أهل دينكم ، ترتادون لهم لتأتوهم بخبر الرجل ، فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم ، وصدقتموه فيما قال ، ما نعلم ركبا أحمق منكم.

فقالوا لهم : سلام عليكم ، لا نجاهلكم ، لنا ما نحن عليه ، ولكم ما أنتم عليه ، لم نأل أنفسنا خيرا.

ويقال : إن هؤلاء النفر النصارى من أهل نجران « ١ » .

فقه الحياة أو الأحكام :

يستدل بالآيات على ما يأتي :

---

(١) تفسير ابن كثير : ٣/ ٣٩٤ ، وهو مروي عن عروة بن الزبير.

ج ٢٠ ، ص : ١٢٨

١- إذا كان الإيمان باللّه صحيحا منسجما مع الوحي الثابت الصحيح ، سهل التقاء رافدي الإيمان ، وتيسر الدمج بين الإيمانين ، إن تجرد الإنسان عن العصبية والهوى ، والمصلحة الذاتية ، والنفع المادي. وهذا ما تحقق لجماعة من أهل الكتاب من بني إسرائيل ، آمنوا باللّه ربّا واحدا لا شريك له قبل القرآن بمقتضى كتابهم السماوي ، ثم آمنوا بالقرآن ، لمطابقته مع أصل ذلك الكتاب المتقدم ، وهؤلاء كعبد اللّه بن سلام وسلمان الفارسي ، ومن أسلم من علماء النصارى ، وهم أربعون رجلا قدموا مع جعفر بن أبي طالب المدينة ، اثنان وثلاثون رجلا من الحبشة ، وثمانية نفر أقبلوا من الشام ، وكانوا أئمة النصارى ، منهم بحيرا الراهب وأبرهة والأشرف وعامر وأيمن وإدريس ونافع. وقيل : أكثر من ذلك.

٢- هؤلاء المؤمنون بالقرآن من أهل الكتاب يضاعف لهم الثواب أو الأجر مرتين : مرة لإيمانهم بكتابهم ، ومرة لإيمانهم بالقرآن بسبب صبرهم على الأذى الذي يلقونه من الكفار.

٣- المؤمن الكامل الإيمان شأنه الاشتغال بمرضاة اللّه تعالى ، فيبادر إلى الطاعات البدنية والمالية ، ويتحلى بالخلق الفاضل ، وقد وصف اللّه تعالى هؤلاء المؤمنين من أهل الكتاب بأنهم يقابلون السيئة بالحسنة ، أي بالاحتمال والعفو والصفح والكلام الحسن ، وهذا من مكارم الأخلاق ، وينفقون من أموالهم في الطاعات والقربات ، فيحسنون إلى البائسين والمعوزين ، وفي ذلك حضّ على الصدقات ، ويعرضون عن لغو الكلام ، فلا يتكلمون بالكلام القبيح ، وإنما ينطقون دائما بالكلام الطيب ، فإذا سمعوا ما قال لهم المشركون من الأذى والشتم ، أعرضوا عنه ، أي لم يشتغلوا به ،

قال صلّى اللّه عليه وسلم لمعاذ في حديث أبي ذر المتقدم والمروي أيضا عن معاذ : « و أتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن »

و من الخلق الحسن : دفع المكروه والأذى ، والصبر على الجفا ، بالإعراض عنه ولين

ج ٢٠ ، ص : ١٢٩

الحديث ، وهذا مؤيد لمعنى الآية : وَقالُوا : لَنا أَعْمالُنا وَلَكُمْ أَعْمالُكُمْ ، سَلامٌ عَلَيْكُمْ أي سلام متاركة ومفارقة ، لنا ديننا ولكم دينكم ، فهذا ليس من التحية في شي ء.

ولا نبتغي الجاهلين ، أي لا نطلبهم للجدال والمراجعة والمشاتمة ، ولا نرغب في مصاحبتهم ، ولا نودّ معاشرتهم ، ولا نجازيهم بالباطل على باطلهم.

الرد على شبهات المشركين [سورة القصص (٢٨) : الآيات ٥٦ الى ٦١]

إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (٥٦) وَقالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنا أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبى إِلَيْهِ ثَمَراتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقاً مِنْ لَدُنَّا وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٥٧) وَكَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَها فَتِلْكَ مَساكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلاَّ قَلِيلاً وَكُنَّا نَحْنُ الْوارِثِينَ (٥٨) وَما كانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّها رَسُولاً يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِنا وَما كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرى إِلاَّ وَأَهْلُها ظالِمُونَ (٥٩) وَما أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا وَزِينَتُها وَما عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقى أَفَلا تَعْقِلُونَ (٦٠)

أَ فَمَنْ وَعَدْناهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْناهُ مَتاعَ الْحَياةِ الدُّنْيا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (٦١)

ج ٢٠ ، ص : ١٣٠

الإعراب :

رِزْقاً مِنْ لَدُنَّا مفعول لأجله.

وَكَمْ أَهْلَكْنا كَمْ : منصوبة ب أَهْلَكْنا.

بَطِرَتْ مَعِيشَتَها منصوب بحذف حرف الجر ، أي بطرت في معيشتها ، ولا يجوز نصبه على التمييز ، لأن التمييز لا يكون إلا نكرة ، ومعيشتها : معرفة.

البلاغة :

إِنَّكَ لا تَهْدِي وَلكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي بينهما طباق السلب.

حَرَماً آمِناً مجاز عقلي ، نسب الأمن إلى الحرم ، وهو لأهله ، وعلاقته المكانية.

أَ فَمَنْ وَعَدْناهُ وَعْداً حَسَناً ... أورد الكلام بصيغة الاستفهام ليكون أبلغ في الاعتراف بترجيح منافع الآخرة على منافع الدنيا.

المفردات اللغوية :

إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ هدايته ، أي لا تقدر أن تدخله في الإسلام. يَهْدِي مَنْ يَشاءُ فيدخله في الإسلام ، والهداية نوعان : الدلالة والإرشاد إلى الخير ، والتوفيق بعد توافر أصل الهداية. وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ عالم بالمستعدين للهداية. وَقالُوا أي قريش. نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنا ننتزع منها بسرعة ، أي نخرج من البلاد. أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً أو لم نجعل مكانهم حرما ذا أمن من الإغارة والقتل ، بحرمة البيت الذي فيه ويتناحر العرب حوله ، وهم آمنون فيه. يُجْبى إِلَيْهِ يحمل إليه ويجمع فيه ، جبى الماء : جمعه ، والجابية : الحوض العظيم. ثَمَراتُ كُلِّ شَيْءٍ من كل مكان. رِزْقاً مِنْ لَدُنَّا رزقا لهم من عندنا. لا يَعْلَمُونَ أن ما نقوله حق ، فهم جهلة لا يتفطنون له ولا يتفكرون ليعلموا. والمعنى المراد : فإذا كان هذا حالهم ، وهم عبدة الأصنام ، فكيف نعرّضهم للخوف والتخطف إذا ضموا إلى حرمة البيت حرمة التوحيد ؟

(١٣٤/٢٠)

وَ كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَها أي كم من أهل قرية كانت حالهم كحالكم في الأمن وخفض العيش حتى أشروا ، فدمر اللّه عليهم وخرب ديارهم. فقوله : بَطِرَتْ مَعِيشَتَها من البطر : وهو الأشر وقلة احتمال النعمة ، والمراد من بطرت : بغت وتجبرت ولم ترع حق اللّه في زمن معيشتها. إِلَّا قَلِيلًا أي لم تسكن إلا فترات قليلة للمارة يوما أو بعضه ، من شؤم معاصيهم.

وَكُنَّا نَحْنُ الْوارِثِينَ منهم ، إذ لم يخلفهم أحد في ديارهم وتصرفاتهم.

وَما كانَ رَبُّكَ وما كانت عادته. أُمِّها أصلها وعاصمتها (قصبتها) وأعظمها.

ج ٢٠ ، ص : ١٣١

رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِنا لإلزام الحجة وقطع المعذرة. ظالِمُونَ بتكذيب الرسل والعتو في الكفر. وَما أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ من أسباب الدنيا. فَمَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا وَزِينَتُها أي تتمتعون وتتزينون به أيام حياتكم ثم يفنى. وَما عِنْدَ اللَّهِ أي ثوابه. خَيْرٌ في نفسه من ذلك ، لأنه لذة خالصة وبهجة كاملة. وَأَبْقى أدوم وأبدي. أَفَلا تَعْقِلُونَ تتفكرون ، فتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير ، وقرئ يعقلون وهو أبلغ في الموعظة. وَعَدْناهُ وَعْداً حَسَناً وعدا بالجنة ، فإن حسن الوعد بحسن الموعود. فَهُوَ لاقِيهِ مدركه لا محالة ، لامتناع الخلف في الوعد ، ولذلك عطفه بالفاء المتضمنة معنى السببية.

كَمَنْ مَتَّعْناهُ مَتاعَ الْحَياةِ الدُّنْيا الذي يزول عن قريب ، ويختلط بالآلام والمتاعب.

مِنَ الْمُحْضَرِينَ للحساب والعذاب بالنار ، وقوله : ثُمَّ للتراخي في الزمان أو الرتبة. والمراد بقوله : أَفَمَنْ وَعَدْناهُ المؤمن ، وبقوله : كَمَنْ مَتَّعْناهُ الكافر ، أي لا تساوي بينهما ، وهذه الآية كالنتيجة التي قبلها ،

ولذلك رتب عليها بالفاء.

سبب النزول :

نزول الآية (٥٦) :

إِنَّكَ لا تَهْدِي :

(١٣٥/٢٠)

أخرج مسلم وعبد بن حميد والترمذي والبيهقي في الدلائل عن أبي هريرة قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم لعمه : قل : لا إله إلا اللّه ، أشهد لك يوم القيامة ، قال : لو لا أن تعيرني نساء قريش ، يقلن : إنه حمله على ذلك الجزع ، لأقررت بها عينك ، فأنزل اللّه : إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ، وَلكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ.

وأخرج النسائي وابن عساكر في تاريخ دمشق بسند جيد عن أبي سعيد بن رافع قال : سألت ابن عمر عن هذه الآية : إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ في أبي جهل وأبي طالب ؟ قال : نعم.

نزول الآية (٥٧) :

وَقالُوا : إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدى مَعَكَ : أخرج ابن جرير عن ابن عباس : أن أناسا من قريش قالوا للنبي صلّى اللّه عليه وسلم : إن نتبعك تخطفنا الناس ، فنزلت.

ج ٢٠ ، ص : ١٣٢

و أخرج النسائي عن ابن عباس أن الحارث بن عثمان بن عامر بن نوفل بن عبد مناف هو الذي قال ذلك ، وعبارته- كما في البيضاوي- : نحن نعلم أنك على الحق ، ولكنا نخاف إن اتبعناك وخالفنا العرب- وإنما نحن أكلة رأس ، أي قليلو العدد- أن يتخطفونا من أرضنا ، فنزل قوله تعالى : وَقالُوا : إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدى الآية.

نزول الآية (٦)(١) :

أَفَمَنْ وَعَدْناهُ : أخرج ابن جرير عن مجاهد في قوله : أَفَمَنْ وَعَدْناهُ الآية ، قال : نزلت في النبي صلّى اللّه عليه وسلم وفي أبي جهل بن هشام. وأخرج من وجه آخر عنه : أنها نزلت في حمزة وأبي جهل.

المناسبة :

بعد بيان إيمان طوائف من أهل الكتاب ، ذكر اللّه تعالى شبهة المشركين في امتناعهم عن الإيمان ، ثم رد عليها بأجوبة ثلاثة ، مفتتحا الكلام بتقرير أن الهداية للدين وهي هداية التوفيق هي للّه تعالى لا لرسوله ، وأثبت له في آية.

أخرى هي وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ [الشورى ٤٢/ ٥٢] هداية الدلالة والإرشاد والبيان.
التفسير والبيان :

(١٣٦/٢٠)

إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ، وَلكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ أي إنك يا محمد لا تقدر على هداية من أحببت هدايته هداية توفيق ، فليس ذلك إليك ، إنما عليك البلاغ ، واللّه هو الذي يستطيع هداية من يشاء هداية توفيق وشرح صدر ، بأن يقذف نورا في قلبه ، فيحيى به ، كما قال سبحانه : أَوَمَنْ كانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْناهُ وَجَعَلْنا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ
ج ٢٠ ، ص : ١٣٣
[الأنعام ٦/ ١٢٢] وله الحكمة البالغة ، وربّك هو العالم بالمستعدين للهداية ، فيهديهم ، لأنهم مستحقون لها ، وعالم أيضا بالمستعدين للغواية ، فلا يهديهم ، لأنهم لا يستحقونها. والمراد بالآية تسلية الرسول صلّى اللّه عليه وسلم في عدم تمكنه من هداية قومه.
ويلاحظ أنه لا دلالة في ظاهر هذه الآية على كفر أبي طالب ، لكن الثابت في الصحيحين أنها نزلت في أبي طالب عم رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم ، كما بينت ، قال الزجاج : أجمع المسلمون على أنها نزلت في أبي طالب ، وذلك أن أبا طالب قال عند موته : يا معشر بني عبد مناف ، أطيعوا محمدا وصدقوه ، تفلحوا وترشدوا ،
فقال صلّى اللّه عليه وسلم : « يا عم ، تأمرهم بالنصح لأنفسهم وتدعها لنفسك! قال : فما تريد يا ابن أخي ؟ قال : أريد منك كلمة واحدة ، فإنك في آخر يوم من أيام الدنيا أن تقول : لا إله إلا اللّه ، أشهد لك بها عند اللّه تعالى ، قال : يا ابن أخي ، قد علمت أنك صادق ، ولكني أكره أن يقال : جزع عند الموت ، ولو لا أن يكون عليك وعلى بني أبيك غضاضة ومسبّة بعدي لقلتها ولأقررت بها عينك عند الفراق ، لما أرى من شدة وجدك ونصحك ، ولكني سوف أموت على ملة الأشياخ : عبد المطلب ، وهاشم ، وعبد مناف » .

(١٣٧/٢٠)

قال القرطبي : والصواب أن يقال : أجمع جل المفسرين على أنها نزلت في شأن أبي طالب عم النبي صلّى اللّه عليه وسلم ، وهو نص البخاري ومسلم.
ونظير الآية : لَيْسَ عَلَيْكَ هُداهُمْ ، وَلكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ [البقرة ٢/ ٢٧٢] وقوله تعالى : وَما

أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ [يوسف ١٢/ ١٠٣].

والخلاصة : أن الهداية– كما ذكر الرازي : – بمعنى الإلجاء والقسر غير جائز ، لأن ذلك قبيح من اللّه تعالى في حق المكلف ، وفعل القبيح مستلزم للجهل أو

ج ٢٠ ، ص : ١٣٤

الحاجة ، وهما محالان ، ومستلزم المحال محال ، فذلك محال من اللّه تعالى ، والمحال لا يجوز تعليقه في المشيئة « ١ » .

ثم أخبر اللّه تعالى عن شبهة المشركين في عدم إيمانهم بالنبي صلّى اللّه عليه وسلم ، واعتذارهم بعذر واه ، فقال :

وَقالُوا : إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنا أي قال المشركون :

نخشى إن اتبعنا ما جئت به من الهدى ، وخالفنا ما حولنا من أحياء العرب المشركين أن يقصدونا بالأذى والمحاربة ، ويتخطفونا أينما كنا ، ويخرجونا من ديارنا.

فأجاب اللّه تعالى عن شبهتهم بثلاثة أجوبة :

١– تأمين الحرم : أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبى إِلَيْهِ ثَمَراتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقاً مِنْ لَدُنَّا ، وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ أي إن هذا الاعتذار كذب وباطل ، لأن اللّه تعالى جعلهم في بلد أمين ، وحرم آمن معظّم منذ وجد ، فكيف يكون هذا الحرم آمنا لهم في حال كفرهم وشركهم ، ولا يكون آمنا لهم إن أسلموا واتبعوا الحق ؟

و من خصائص الحرم المكي : أنه يحمل إليه من سائر الثمار في كل البلدان ، كما تحمل إليه أصناف المتاجر والأمتعة ، تفضلا بالرزق من عند اللّه ، ولكن أكثرهم جهلة لا يفطنون « ٢ » لما فيه الخير والسعادة ، ولا يتفكرون ليعلموا الأحق بالعبادة ، ويقلعوا عن عبادة ما سواه.

٢– التذكير بإهلاك الأمم : وَكَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَها ، فَتِلْكَ مَساكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ، وَكُنَّا نَحْنُ الْوارِثِينَ أي ليعلم

---

(١) تفسير الرازي : ٢٥/ ٣

(٢) فطن للشيء يفطن بالضم فطنة ، وفطن– بالكسر– فطنة أيضا.

ج ٢٠ ، ص : ١٣٥

هؤلاء المعتذرون من أهل مكة عن الإيمان خوفا من زوال النعم أن عدم الإيمان هو الذي يزيل النعم ،

فكثيرا ما أهلك اللّه من القرى أي أهلها التي أبت الإيمان ، وكفرت ، وبغت وطغت وأشرت ، وجحدت بأنعم اللّه وأرزاقه المغدقة ، فأصبحت مساكنهم خاوية على عروشها ، لا يسكن فيها أحد إلا لمدة قليلة ، يبيت فيها المارة يوما أو بعض يوم ، وأصبح الوارث هو اللّه لأنها رجعت خرابا ليس فيها أحد يخلفهم فيها. ويقال للشيء الذي ترك بلا مالك : إنه ميراث اللّه ، لأنه المالك الحقيقي للكون ، والباقي بعد فناء خلقه.

ونظير الآية قوله تعالى : وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيها رِزْقُها رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكانٍ ، فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ ، فَأَذاقَهَا اللَّهُ لِباسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِما كانُوا يَصْنَعُونَ [النحل ١٦/ ١١٢].

ثم أخبر تعالى عن عدله في إنزال العقاب ، فقال :

وَ ما كانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّها رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِنا ، وَما كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرى إِلَّا وَأَهْلُها ظالِمُونَ أي وما كانت عادة ربك وسنته أن يهلك المدن والقرى بأهلها حتى يرسل في أصلها وعاصمتها وأكبرها رسولا يبين لهم الآيات الدالة على وجود اللّه ووحدانيته وأحقيته بالعبادة ، حتى لا يبقى لهم حجة بالجهل ولا عذر بعدم معرفة الحق ، فيهلك من أهلك بعد قيام الحجة عليهم ، ولا يهلك أهل القرى أو أحدا من خلقه إلا وهم ظالمون أنفسهم بتكذيب الرسل وجحود الآيات.

وهذا دليل على عدل اللّه في خلقه ، فلا عقاب إلا بعد بيان ، ولا إهلاك مع إيمان ، وإنما العقاب والهلاك حال الظلم واجتراح المعاصي ، واقتراف المنكرات والآثام التي أكبرها الشرك باللّه تعالى.

ج ٢٠ ، ص : ١٣٦

و للآية نظائر كثيرة منها : وَما كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا [الإسراء ١٧/ ١٥].

وفي الآية دليل على أن النبي الأمي وهو محمد صلّى اللّه عليه وسلم المبعوث من أم القرى (مكة) رسول إلى جميع القرى من عرب وعجم ، كما قال تعالى : لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرى وَمَنْ حَوْلَها [الشورى ٤٢/ ٧] وقال سبحانه : قُلْ : يا أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً [الأعراف ٧/ ١٥٨] وقال عز وجل : لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ [الأنعام ٦/ ١٩].

٣- التدين أو الإيمان لا يضيع منافع الدنيا : وَما أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا وَزِينَتُها ، وَما عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقى ، أَفَلا تَعْقِلُونَ أي إن الدنيا وما فيها من زينة وزخرف ومتاع فانية حقيرة بالنسبة لما أعده

اللّه لعباده الصالحين من المنافع والنعم في الدار الآخرة ، فكل ما أعطيتم أيها الناس من أموال وأولاد وزينة وزخارف ، فهو مجرد متاع مؤقت وزينة زائلة ، لا يجدي عند اللّه شيئا ، وهو زائل وزهيد إذا قيس بنعم الآخرة ، فنعيم الآخرة باق دائم خير في ذاته من متاع الدنيا ، كما قال تعالى : ما عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَما عِنْدَ اللَّهِ باقٍ [النحل ١٦/ ٩٦] وقال سبحانه : وَما عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرارِ [آل عمران ٣/ ١٩٨] وقال عز وجل : بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَياةَ الدُّنْيا ، وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقى [الأعلى ٨٧/ ١٦- ١٧] و

قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم في الحديث الثابت : « و اللّه ، ما الحياة الدنيا في الآخرة إلا كما يغمس أحدكم أصبعه في اليمّ ، فلينظر ما ذا يرجع إليه » !!

أ فلا يعقل ويتفكر من يقدّم الدنيا على الآخرة ، أفلا يتدبر من يؤثر الفاني على الباقي!! ألا فليفكر الإنسان في اختيار ما هو الخير الدائم له ، ويترك الشر الذي يصيبه بالأذى.

ثم أكّد اللّه تعالى ذلك المعنى فقال :

ج ٢٠ ، ص : ١٣٧

(١٤١/٢٠)

أَ فَمَنْ وَعَدْناهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لاقِيهِ ، كَمَنْ مَتَّعْناهُ مَتاعَ الْحَياةِ الدُّنْيا ، ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ

أي فليقارن الإنسان ليعلم ترجيح ما عند اللّه وتفضيله على زينة الدنيا ، وكيفية المقارنة : أفمن هو مؤمن بكتاب اللّه مصدق بوعد اللّه وثوابه على صالح الأعمال بالجنة وجزيل النعيم ، كمن هو كافر مكذب بلقاء اللّه ووعده ووعيده ، فهو ممتع في الحياة الدنيا أياما قلائل ، ثم يصير أمره يوم القيامة من المعذبين في نار جهنم ؟ ! فقولهم : إنا تركنا الدين خشية فوات منافع الدنيا خطأ وقول غير سديد لأن الدين لا يفوت تلك المنافع ، فهي حقيرة في ميزان اللّه ، وإنما يكون إيثار الدنيا مفوتا لمنافع الآخرة ، وسببا أيضا للعقاب الدائم في الآخرة.

فقه الحياة أو الأحكام :

يستدل بالآيات على ما يلي :

١- يخص اللّه تعالى بعض خلقه بخلق الهداية ومعرفة طريق الجنة ، ويمنع البعض منها ، ولا يسأل عما يفعل. وليس معنى الهداية والضلال القسر والإلجاء عليهما فذلك غير جائز شرعا وعقلا ، وهو قبيح من اللّه تعالى في حق الإنسان المكلف بالتكاليف الشرعية.

ولقد بان من سبب النزول الثابت في الصحيحين أن أبا طالب مات على غير الإيمان ، واللّه أعلم.

٢- اللّه تعالى هو المختص بعلم الغيب ، فيعلم من يهتدي بعد ومن لا يهتدي.

٣- قال مشركو مكة للنبي صلّى اللّه عليه وسلم معتمدين على شبهة واهية وتعلل مرفوض أو عذر غير

واقعي ولا منطقي : إنا لنعلم أن قولك حق ، ولكن يمنعنا أن نتبع الهدى معك ، ونؤمن بك ، مخافة أن يتخطفنا العرب من أرضنا (مكة)

ج ٢٠ ، ص : ١٣٨

لاجتماعهم على خلافنا ، ولا طاقة لنا بهم. قال ابن عباس : قائل ذلك من قريش الحارث بن عثمان بن نوفل بن عبد مناف القرشي.

٤- أجاب اللّه تعالى عن هذه الشبهة بأجوبة ثلاثة :

(١٤٢/٢٠)

الأول- أنه سبحانه جعل حرم مكة ذا أمن ، فكانت العرب في الجاهلية يغير بعضهم على بعض ، ويقتل بعضهم بعضا ، وأهل مكة آمنون حيث كانوا بحرمة الحرم ، فقد أمّنهم بحرمة البيت ، ومنع عنهم عدوهم ، فلا يخافون أن تستحل العرب حرمة في قتالهم ، فما الذي يمنعهم من الإيمان بعد توافر الأمان ؟ ! ومن مزايا الحرم المكي بعد الأمن أنه يجمع إليه ثمرات كل أرض وبلد ، فضلا ورزقا من عند اللّه ، ولكن أكثر المكيين لا يعقلون ، أي هم غافلون عن الاستدلال ، وأن من رزقهم وأمّنهم فيما مضى حال كفرهم يرزقهم لو أسلموا ، ويمنع الكفار عنهم في إسلامهم.

وخلاصة هذا الجواب : أنه تعالى لما جعل الحرم آمنا ، وأكثر فيه الرزق حال كونهم معرضين عن عبادة اللّه تعالى ، مقبلين على عبادة الأوثان ، فلا حرج في إيمانهم إذ لو آمنوا لكان بقاء هذه الحالة أولى. فهذا رد أول على تعللهم بترك الإيمان.

الثاني- بعد أن بيّن تعالى ما خص به أهل مكة من النعم ، أتبعه ببيان ما أنزله على الأمم الماضية المنعمين بنعم الدنيا بسبب تكذيب الرسل ، فإذا توهموا أنه لو آمنوا لقاتلتهم العرب ، فذلك وهم باطل لأن الخوف في ترك الإيمان أكثر.

فكم من قوم كفروا ، ثم حلّ بهم الدمار ، ولما قالوا : إنا لا نؤمن خوفا من زوال نعمة الدنيا ، بيّن اللّه تعالى لهم أن الإصرار على عدم قبول الإيمان هو الذي يزيل هذه النعم ، لا الإقدام على الإيمان والدليل أنه تعالى أهلك كثيرا من

ج ٢٠ ، ص : ١٣٩

الأقوام بسبب البطر وهو ألا يحفظ حق اللّه تعالى في الغنى ، فأصبحت مساكنهم غير مسكونة بعد إهلاك أهلها إلا قليلا من السكنى أو سكونا قليلا ، فلم يسكنها إلا المسافرون أو المارة بالطريق يوما أو بعض يوم ، وكان اللّه هو الوارث لها بعد هلاك أهلها.

ومن المعلوم أنه إذا لم يبق للشيء مالك معين قيل : إنه ميراث اللّه لأنه الباقي بعد فناء خلقه.

ثم أوضح اللّه تعالى سنته في الإهلاك : وهي أنه لم تكن عادة اللّه أو سنته أن يهلك القرى الكافرة ، حتى يبعث في عاصمتها وأعظمها رسولا ، كما أرسل إلى أهل مكة محمدا صلّى اللّه عليه وسلم ، ثم لم يهلكهم إلا وقد استحقوا الإهلاك لظلمهم ولإصرارهم على الكفر بعد إعذارهم وإنذارهم. وهذا بيان لعدله وتقدسه عن الظلم.

والخلاصة : أن إهلاكهم لا يكون إلا بأمرين :

استحقاقهم الإهلاك بظلمهم ، ولا يهلكهم مع كونهم ظالمين إلا بعد تأكيد الحجة ، والإلزام ببعثة الرسل.

الثالث- إن قول أهل مكة : تركنا الدين لئلا تفوتنا الدنيا خطأ عظيم لأن ما يتمتعون به مدة حياتهم زائل ، وما عند اللّه خير وأبقى ، أي أفضل وأدوم ، أفلا تعقلون أن الباقي أفضل من الفاني ؟ ! أما إنه خير : فلأن المنافع في الآخرة أعظم ، ولأنها خالصة عن الشوائب ، أما منافع الدنيا فمشوبة بالمضار ، بل المضار فيها أكثر.

وأما إنها أبقى : فلأنها دائمة غير منقطعة ، ومنافع الدنيا منقطعة ، وإذا قوبل المتناهي بغير المتناهي كان عدما ، ثم إن نصيب كل واحد من منافع الآخرة إذا قورن بمنافع الدنيا كلها يعدّ كالذرة بالقياس إلى البحر.

ج ٢٠ ، ص : ١٤٠

و هل يعقل التسوية بين الموعود وعدا حسنا وهو الجنة وما فيها من الثواب والممتع بمتاع الدنيا ، أي الذي أعطي منها بعض ما أراد ، ثم يوم القيامة كان من المحضرين في النار. قال القشيري : والصحيح أنها نزلت في المؤمن والكافر على التعميم. وقال الثعلبي : وبالجملة ، فإنها نزلت في كل كافر متّع في الدنيا بالعافية والغنى ، وله في الآخرة النار ، وفي كل مؤمن صبر على بلاء الدنيا ثقة بوعد اللّه ، وله في الآخرة الجنة.

والخلاصة : تترجح منافع الآخرة على منافع الدنيا بأمرين : الدوام والبقاء ، وعدم العقاب ، أما منافع الدنيا فهي إلى انقطاع وفناء ، ويحصل بعدها العقاب الدائم إذا لم تقترن بطاعة اللّه.

٥- دل قوله سبحانه : أَفَلا تَعْقِلُونَ على أن من لا يرجح منافع الآخرة على منافع الدنيا ، كان خارجا عن حد العقل السليم.

واستدل الشافعي رحمه اللّه بهذا القول على أن من أوصى بثلث ماله لأعقل الناس ، صرف ذلك الثلث إلى المشتغلين بطاعة اللّه تعالى لأن أعقل الناس من أعطى القليل ، وأخذ الكثير ، وما هم إلا المشتغلون بطاعة اللّه تعالى.

تقريع المشركين يوم القيامة بأسئلة ثلاثة [سورة القصص (٢٨) : الآيات ٦٢ الى ٦٧]

وَيَوْمَ يُنادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (٦٢) قالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنا هؤُلاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنا أَغْوَيْناهُمْ كَما غَوَيْنا تَبَرَّأْنا إِلَيْكَ ما كانُوا إِيَّانا يَعْبُدُونَ (٦٣) وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذابَ لَوْ أَنَّهُمْ كانُوا يَهْتَدُونَ (٦٤) وَيَوْمَ يُنادِيهِمْ فَيَقُولُ ما ذا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ (٦٥) فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْباءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لا يَتَساءَلُونَ (٦٦)

فَأَمَّا مَنْ تابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً فَعَسى أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ (٦٧)

ج ٢٠ ، ص : ١٤١

الإعراب : :

كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ حذف مفعولا الفعل : تَزْعُمُونَ ، أي تزعمونهم شركائي.

هؤُلاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنا هؤُلاءِ مبتدأ ، والَّذِينَ أَغْوَيْنا خبر المبتدأ الثاني ، أي : هؤلاء هم الذين أغوينا.

ما كانُوا إِيَّانا يَعْبُدُونَ كَما : إما نافية ، وإما مصدرية ، أي تبرأنا إليك من عبادتهم إيانا ، والوجه الأول أوجه.

البلاغة :

أَيْنَ شُرَكائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ؟ استفهام على سبيل التهكم والسخرية.

أَغْوَيْناهُمْ كَما غَوَيْنا تشبيه مرسل.

فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْباءُ فيه استعارة تصريحية تبعية ، وقلب ، وتضمين ، أستعير العمى لعدم الاهتداء ، فهم لا يهتدون للأنباء ، ثم قلب للمبالغة فجعل الأنباء لا تهتدي إليهم ، وأصله : فعموا عن الأنباء ، وضمّن معنى الخفاء فعدي ب (على).

المفردات اللغوية :

وَيَوْمَ يُنادِيهِمْ منصوب بفعل محذوف : اذكر ، أو معطوف على : يوم القيامة في الآية السابقة (٦١). كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ أي الذين كنتم تزعمونهم شركائي ، فحذف المفعولان لدلالة الكلام عليهما. حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ وجب وثبت مقتضى القول وحصل مؤداه ، وهو قوله تعالى :

لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ [السجدة ٣٢/ ١٣] وغيره من آيات الوعيد ، أي ثبت القول عليهم بدخول النار ، وهم رؤساء الضلالة.

هؤُلاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنا أَغْوَيْناهُمْ كَما غَوَيْنا قال صاحب الكشاف : هؤُلاءِ مبتدأ ، والَّذِينَ أَغْوَيْنا أي أضللنا : صفة المبتدأ ، وأَغْوَيْناهُمْ الخبر ، وكاف كَما صفة مصدر محذوف تقديره : أغويناهم ، فغووا غيا ، مثل ما غوينا ، يعنون أنا لم نغو إلا باختيارنا ، ولم نكرههم على الغي لأن إغواءنا لهم لم يكن إلا وسوسة وتسويلا ، لا قسرا وإلجاء ، فلا فرق إذن بين

ج ٢٠ ، ص : ١٤٢

غينا وغيهم ، وإن كان تسويلنا داعيا لهم إلى الكفر ، والغواية : الضلال. تَبَرَّأْنا إِلَيْكَ منهم أي من عبادتهم إيانا. ما كانُوا إِيَّانا يَعْبُدُونَ كَما نافية ، أي ما كانوا يعبدوننا ، وإنما كانوا يعبدون أهواءهم.

ادْعُوا شُرَكاءَكُمْ أي الأصنام الذين تزعمون أنهم شركاء اللّه. فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ أي فلم يجيبوا دعاءهم ، لعجزهم عن الإجابة والنصرة. وَرَأَوُا الْعَذابَ أبصروه هم. لَوْ أَنَّهُمْ كانُوا يَهْتَدُونَ في الدنيا ، لما رأوه في الآخرة.

(١٤٦/٢٠)

فَعَمِيَتْ خفيت. الْأَنْباءُ الأخبار والحجج التي تنجيهم. يَوْمَئِذٍ أي يوم القيامة ، لم يجدوا خبرا لهم فيه نجاة ، أي فصارت الأنباء كالعمى عليهم لا تهتدي إليهم ، وأصله :

فعموا عن الأنباء ، لكنه عكس مبالغة ودلالة على أن ما يحضر الذهن إنما يأتي من خارج. فَهُمْ لا يَتَساءَلُونَ لا يسأل بعضهم بعضا عن الجواب لفرط الدهشة.

فَأَمَّا مَنْ تابَ من الشرك. وَآمَنَ صدق بتوحيد اللّه. وَعَمِلَ صالِحاً أدى الفرائض ، وجمع بين الإيمان والعمل الصالح. مِنَ الْمُفْلِحِينَ الناجحين عند اللّه ، وعسى : تحقيق على عادة الكرام ، أو ترج من التائب بمعنى فليتوقع أن يفلح.

المناسبة :

بعد بيان كون التمتع في الدنيا بزخارفها دون طاعة اللّه وشكره على نعمه سببا في عذاب الكافر يوم القيامة ، أبان اللّه تعالى حالة الإهانة والتقريع للمشركين أو الكافرين حين يسألهم اللّه تعالى يوم القيامة ثلاثة أسئلة يحارون في الجواب عنها ، وهي السؤال عن آلهتهم التي عبدوها في الدنيا ، وعن دعوتهم لها ، وعما أجابوا به الرسل الذين دعوهم إلى الإيمان بربهم.

التفسير والبيان :

يخبر اللّه تعالى عما يوبخ به الكفار المشركين يوم القيامة بحيث يناديهم ويسألهم عن ثلاثة أشياء :

الأول- السؤال عن نصرة الآلهة المزعومة : وَيَوْمَ يُنادِيهِمْ فَيَقُولُ : أَيْنَ شُرَكائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ أي واذكر أيها الرسول يوم ينادي الحق تعالى

ج ٢٠ ، ص : ١٤٣

هؤلاء المشركين ، فيقول لهم : أين الآلهة التي كنتم تعبدونها في الدنيا من الملائكة والجن والكواكب والأصنام والأنداد والأشخاص ، وتزعمون أنهم شركائي ، هل يشفعون لكم ، وهل ينصرونكم أو ينتصرون ؟ والمقصود من السؤال الإهانة والتحقير ، والتقريع والتنديد ، فلا جواب لديهم لأنهم عرفوا يوم القيامة بطلان ما كانوا عليه ، وأدركوا صحة التوحيد والنبوة بالضرورة.

(١٤٧/٢٠)

و نظير الآية : وَلَقَدْ جِئْتُمُونا فُرادى كَما خَلَقْناكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ، وَتَرَكْتُمْ ما خَوَّلْناكُمْ وَراءَ ظُهُورِكُمْ ، وَما نَرى مَعَكُمْ شُفَعاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكاءُ ، لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ ، وَضَلَّ عَنْكُمْ ما كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ [الأنعام ٦/ ٩٤].

ثم ذكر جواب أئمة الضلال ودعاة الكفر ، فقال :

قالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ : رَبَّنا هؤُلاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنا أَغْوَيْناهُمْ كَما غَوَيْنا ، تَبَرَّأْنا إِلَيْكَ ما كانُوا إِيَّانا يَعْبُدُونَ أي قال رؤساء الضلال والدعاة إلى الكفر الذين ثبت عليهم مقتضى القول وتحقق فيهم مؤداه ولزمهم الوعيد ، بقوله تعالى : لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ [السجدة ٣٢/ ١٣] : ربنا هؤلاء الأتباع الذين آثروا الكفر على الإيمان كان غيهم باختيارهم ، كما أن غينا باختيارنا ، فإن إغواءنا وإضلالنا لهم ما ألجأهم إلى الغواية والضلال قسرا وإكراها ، بل كانوا مختارين حين أقدموا على تلك العقائد والأعمال. والمراد أن تبعة غيهم عليهم لا علينا.

ونحن نتبرأ إليك منهم ، ومن عقائدهم وأعمالهم ، ومما اختاروه من الكفر والعصيان ، وهم في الحقيقة ما كانوا يعبدوننا ، وإنما كانوا يعبدون أهواءهم ، ويطيعون شياطينهم ، فالمعبودون شهدوا أنهم أغووا الأتباع فاتبعوهم ، ثم تبرؤوا من عبادتهم.

وذلك كما قال تعالى في آية أخرى : وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ

ج ٢٠ ، ص : ١٤٤

عِزًّا ، كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبادَتِهِمْ ، وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا

]

(١٤٨/٢٠)

مريم ١٩/ ٨١- ٨٢] وقال سبحانه : وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ ، وَهُمْ عَنْ دُعائِهِمْ غافِلُونَ. وَإِذا حُشِرَ النَّاسُ كانُوا لَهُمْ أَعْداءً ، وَكانُوا بِعِبادَتِهِمْ كافِرِينَ [الأحقاف ٤٦/ ٥- ٦] وقال عز وجل : إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا ، وَرَأَوُا الْعَذابَ ، وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبابُ [البقرة ٢/ ١٦٦].

السؤال الثاني- السؤال عن جواب الآلهة لدفع العذاب : وَقِيلَ : ادْعُوا شُرَكاءَكُمْ ، فَدَعَوْهُمْ ، فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ ، وَرَأَوُا الْعَذابَ ، لَوْ أَنَّهُمْ كانُوا يَهْتَدُونَ أي وقيل للمشركين باللّه : ادعوا شركاءكم آلهتكم ليخلصوكم مما أنتم فيه كما كنتم ترجون في الدار الدنيا ، فدعوهم لفرط الحيرة والدهشة ، فلم يجيبوهم عجزا منهم عن الجواب ، وتيقنوا أنهم صائرون إلى النار لا محالة ، وودّوا حين عاينوا العذاب عن الجواب ، وتيقنوا أنهم صائرون إلى النار لا محالة ، وودّوا حين عاينوا العذاب المحدق بهم لو أنهم كانوا من المهتدين المؤمنين في الدنيا. وعلى هذا جواب لَوْ محذوف ، أي ودوا حين رأوا العذاب لو كانوا في الدنيا يهتدون.

ونظير الآية : وَيَوْمَ يَقُولُ : نادُوا شُرَكائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ ، فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ ، وَجَعَلْنا بَيْنَهُمْ مَوْبِقاً. وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُواقِعُوها ، وَلَمْ يَجِدُوا عَنْها مَصْرِفاً [الكهف ١٨/ ٥٢- ٥٣].

والقصد من هذا السؤال التوبيخ والتقريع وكشفهم أمام الناس ، بدعائهم من لا نفع له ولا فائدة ترتجى منه ، فهم لو دعوهم لم يوجد منهم إجابة في النصرة ، وأن العذاب مقرر لهم ثابت عليهم. وفي ذلك ردع وزجر عن الشرك وخرافاته في الدنيا.

السؤال الثالث- السؤال عن التوحيد وإجابة الأنبياء : وَيَوْمَ يُنادِيهِمْ فَيَقُولُ : ما ذا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ؟ أي واذكر يوم ينادي اللّه تعالى المشركين لمعرفة جوابهم للمرسلين إليهم ، وكيف كان حالهم معهم ، وعن التوحيد الذي دعوا

ج ٢٠ ، ص : ١٤٥

إليه ، وهذا كما يسأل العبد في قبره : من ربّك ، ومن نبيك ، وما دينك ؟ فأما المؤمن فيشهد أنه لا إله إلا اللّه وأن محمدا عبده ورسوله ، وأما الكافر فيقول : هاه هاه لا أدري ، فلا جواب له يوم القيامة غير السكوت. وفي هذا إثبات النبوات ، وإعلان التوحيد ، والبراءة عن الآلهة المزعومة من أصنام وغيرها.

فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْباءُ يَوْمَئِذٍ ، فَهُمْ لا يَتَساءَلُونَ أي فخفيت عليهم الحجج ، وعموا عن أوجه الدفاع عن أنفسهم يوم القيامة ، ولم يجدوا بدا من السكوت ، ولا يسأل بعضهم بعضا كما يسأل الناس في المشكلات ، لما اعتراهم من الدهشة والذهول ، ولتساوي الناس جميعا في عمى الأنباء عنهم والعجز

عن الجواب ، حتى الأنبياء ، كما قال تعالى : يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ ، فَيَقُولُ : ما ذا أُجِبْتُمْ ، قالُوا : لا عِلْمَ لَنا ، إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ [المائدة ٥/ ١٠٩] فما ظنك بهؤلاء الضلال ؟ ! وسميت حججهم أنباء (أخبارا) لأنها أخبار يخبرونها.

وبعد بيان الصورة القاتمة لحال هؤلاء المشركين وتوبيخهم ، ذكر اللّه تعالى حال التائبين ترغيبا في التوبة

ة الكئيبة والحالة المفجعة ، فتح اللّه أمام أولئك المشركين والكفار باب الأمل بالفوز والفلاح وإحراز السعادة ، وهو باب التوبة ، وطريق أهل الحق والإيمان ، وحكم سبحانه أنه بالرغم من سوء حال المشركين الماضية في الدنيا لو تابوا من الشرك ، وصدقوا باللّه وكتبه ورسله واليوم الآخر ،

ج ٢٠ ، ص : ١٤٧

و عملوا الصالحات بأداء الفرائض والإكثار من النوافل ، لكانوا بالتأكيد من جانب اللّه من الفائزين بالسعادة ، فإن « عسى » من اللّه واجبة ، ومن جانبهم على طريق الأمل والرجاء وتوقع النجاة والفوز.

وفي هذا ترغيب في التوبة والتخلص من ظلمة الكفر ، وضلال الشرك ، وإعمال الفكر في طريق العودة إلى اللّه إيمانا بوجوده ووحدانيته ، وتصديقا بالكتب والرسل والبعث ، ومبادرة إلى القيام بالتكاليف الإلهية.

صاحب الحق المطلق في الاختيار المستحق للحمد والعبادة [سورة القصص (٢٨) : الآيات ٦٨ الى ٧٠]

وَرَبُّكَ يَخْلُقُ ما يَشاءُ وَيَخْتارُ ما كانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحانَ اللَّهِ وَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٨) وَرَبُّكَ يَعْلَمُ ما تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَما يُعْلِنُونَ (٦٩) وَهُوَ اللَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٧٠)

الإعراب :

ما يَشاءُ وَيَخْتارُ ، ما كانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ : ما الأولى : اسم موصول بمعنى الذي ، في موضع نصب مفعول به ل يَخْلُقُ. وما الثانية : نافية لا موضع لها من الإعراب.

البلاغة :

تُكِنُّ ويُعْلِنُونَ الْأُولى وَالْآخِرَةِ بين كل طباق.

المفردات اللغوية :

وَرَبُّكَ يَخْلُقُ ما يَشاءُ وَيَخْتارُ فيه إثبات حرية الخلق والاختيار للّه عز وجل ، دون موجب عليه ولا مانع

له. ما كانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ فيه نفي الاختيار عن المشركين وغيرهم ، والخيرة :
هي الاختيار باصطفاء بعض الأشياء وترك بعض سُبْحانَ اللَّهِ تنزيها للّه أن ينازعه أحد في اختياره. تَعالى تعاظم وتقدس عن إشراكهم. تُكِنُّ صُدُورُهُمْ تخفي أو تسرّ قلوبهم من
ج ٢٠ ، ص : ١٤٨

الكفر وعداوة الرسول صلّى اللّه عليه وسلم والحقد عليه وغير ذلك. وَما يُعْلِنُونَ يظهرون بألسنتهم من الطعن في الرسول صلّى اللّه عليه وسلم وغيره. وَهُوَ اللَّهُ المستحق للعبادة. لا إِلهَ إِلَّا هُوَ لا أحد يستحقها إلا هو. فِي الْأُولى الدنيا. وَالْآخِرَةِ الجنة. لَهُ الْحُكْمُ القضاء النافذ في كل شيء دون مشاركة أحد. وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ بالنشور.
المناسبة :
بعد توبيخ المشركين على اتخاذ الشركاء ودعوتهم للشفاعة والنصرة ، أبان اللّه تعالى أنه هو صاحب الاختيار المطلق في تعيين الشفعاء ، لا المشركون ، وكذا في اصطفاء بعض المخلوقات للرسالة والنبوة وتمييزهم عن غيرهم ، فكان اختيار المشركين جهلا وغباء وضلالا. وسبب كون الاختيار للّه : أنه العالم بالخفايا والظواهر ، وأنه لإنعامه المستحق للعبادة ، فلا يستحقها إلا هو ، وأنه صاحب القضاء النافذ في كل شيء ، وأن إليه المرجع والمآب للسؤال والحساب.
التفسير والبيان :
وَرَبُّكَ يَخْلُقُ ما يَشاءُ وَيَخْتارُ ، ما كانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ ، سُبْحانَ اللَّهِ وَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ أي أنه تعالى يخبر أنه المنفرد بالخلق والاختيار دون منازع ولا معقب ، والمعنى : ربك يا محمد وكل سامع صاحب الحق المطلق في خلق ما يشاء ، واختيار ما يريد ، فما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، والأمور كلها خيرها وشرها بيده ، ومرجعها إليه ، يختار أقواما لأداء الرسالة ، ويصطفي من الملائكة والناس رسلا لأداء المهمة ، ويمنح الحق في الشفاعة لمن يريد ، يميز بعض مخلوقاته على بعض.

و ليس للمشركين ولا لغيرهم أن يختاروا شيئا ، فيقولوا مثلا : لَوْ لا نُزِّلَ هذَا الْقُرْآنُ عَلى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ [الزخرف ٤٣/ ٣١] أي إما على الوليد بن المغيرة أو على عروة بن مسعود الثقفي شيخ الطائف. فقوله تعالى ما كانَ :

ج ٢٠ ، ص : ١٤٩

ما نافية على الصحيح كما نقل عن ابن عباس وغيره ، ولأن المقام في بيان انفراده تعالى بالخلق والتقدير والاختيار ، وأنه لا نظير له في ذلك ، ولهذا نزّه تعالى نفسه في منازعة أحد في سلطانه ، فقال : سُبْحانَ اللَّهِ وَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ أي تنزيها للّه وتقديسا وتعاليا عن إشراك المشركين ، وعن أن ينازعه أحد في اختياره وخلقه من الأصنام والأنداد التي لا تخلق ولا تختار شيئا.

والمقصود أن يعلم أن الخلق والاختيار والإعزاز والإذلال مفوض إلى اللّه تعالى ، ليس لأحد فيه شركة ومنازعة.

ثم بيّن اللّه تعالى كون اختياره مبنيا على علم ثابت صحيح فقال :

وَرَبُّكَ يَعْلَمُ ما تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَما يُعْلِنُونَ أي وربك أيها العبد المخلوق يعلم ما تخفيه صدورهم وما تنطوي عليه ضمائرهم وسرائرهم من الكيد لرسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم وعداوته ، كما يعلم ما تبديه الظواهر من سائر الخلائق ، كما قال :

سَواءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ ، وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ ، وَسارِبٌ بِالنَّهارِ [الرعد ١٣/ ١٠].

وهذا العلم الشامل المطلق صادر ممن له خصائص الألوهية وكونه الإله الفرد الصمد ، فقال :

وَهُوَ اللَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ أي هو المنفرد بالألوهية ، فلا معبود سواه ، كما لا رب يخلق ما يشاء ويختار غيره ، فهو العليم بكل شيء القادر على كل شي ء.

(١٥٣/٢٠)

و فيه تنبيه على كونه قادرا على كل الممكنات ، عالما بكل المعلومات ، منزها عن النقائص والآفات ، لذا كان هو المستحق للحمد والشكر كما قال :

لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولى وَالْآخِرَةِ أي إنه تعالى وحده المستحق للحمد والشكر ، والعبادة ، المحمود في جميع ما يفعله في الدنيا والآخرة لأنه بعدله وحكمته يمنح النعم ويفيض الخير على مخلوقاته.

ج ٢٠ ، ص : ١٥٠

وَ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ أي وهو تعالى له القضاء النافذ في كل شيء ، فلا معقّب لحكمه ، وهو القاهر فوق عباده ، الرحيم اللطيف الخبير ، وإليه ترجع جميع الخلائق يوم القيامة ، فيجزي كل عامل بعمله من خير أو شر ، ولا يخفى عليه منهم خافية في الأرض ولا في السماء.

وفيه نهاية الزجر والردع للعصاة ، ونهاية تقوية القلب للمطيعين ، فلا يخل بميزان العدل ، يجازي المحسنين على طاعتهم ، ويعاقب العصاة على عصيانهم.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يأتي :

١- الاختيار إلى اللّه تعالى في الشفعاء ، لا إلى المشركين.

٢- الخلق أو الاختيار للّه تعالى في أفعاله ، وهو أعلم بوجوه الحكمة فيها ، فليس لأحد من خلقه أن يختار عليه ، كما قال : وَما كانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ [الأحزاب ٣٣/ ٣٦].

روى الترمذي عن أبي بكر رضي اللّه عنه : « أن النبي صلّى اللّه عليه وسلم كان إذا أراد أمرا قال : اللهم خر لي واختر لي »

و

روى ابن السني مرفوعا عن أنس أن النبي صلّى اللّه عليه وسلم قال له : « يا أنس ، إذا هممت بأمر فاستخر ربك فيه سبع مرات ، ثم انظر إلى ما يسبق قلبك ، فإن الخير فيه » .

ومن هنا شرعت صلاة الاستخارة ، بأن يتوضأ ويصلي ركعتين يقرأ في الأولى بعد الفاتحة (الكافرون) وفي الثانية (الإخلاص).

روى البخاري في صحيحة عن جابر بن عبد اللّه قال : « كان النبي صلّى اللّه عليه وسلم يعلّمنا الاستخارة في الأمور كلّها ، كما يعلّمنا السورة من القرآن ، يقول : إذا همّ أحدكم بالأمر ، فليركع ركعتين غير الفريضة ، ثم ليقل :

اللهم إني أستخيرك بعلمك ، وأستقدرك بقدرتك ، وأسألك من فضلك العظيم ، فإنك تقدر ولا أقدر ، وتعلم ولا أعلم ، وأنت علّام الغيوب ، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي في ديني ودنياي ومعاشي وعاقبة أمري ، فاقدره لي ويسّره لي ، ثم بارك لي فيه ، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر شرّ لي في ديني ودنياي ومعاشي وعاقبة أمري ، فاصرفه عني ، واصرفني عنه ، واقدر لي الخير حيث كان ، ثم رضني به » قال : ويسمي حاجته.

قال العلماء : وينبغي له أن يفرّغ قلبه من جميع الخواطر ، حتى لا يكون مائلا إلى أمر من الأمور ، فعند ذلك ما يسبق إلى قلبه يعمل عليه ، فإن الخير فيه إن شاء اللّه ، فإن وجد انشراحا وسرورا وارتياحا فالأمر خير ، وإن وجد انقباضا وضيقا ، فالأمر شر.

٣- إن اختيار الملائكة والرسل لأداء الرسالة إلى اللّه ، فهو يصطفي منهم ما يشاء على وفق الحكمة والمصلحة والعلم الشامل ، وليس ذلك لأحد من الناس ، كما تبادر إلى بعض المشركين أن تكون

الرسالة لأحد زعيمين قويين في المال والأولاد والسلطة والنفوذ : إما الوليد بن المغيرة ، وإما عروة بن مسعود ، كما تقدم بيانه.

٤- تقدس وتمجد اللّه عن إشراك المشركين.

٥- اللّه تعالى عالم الغيب والشهادة ، لا يخفى عليه شي ء.

٦- اللّه جل جلاله هو المنفرد بالألوهية والوحدانية ، وجميع المحامد له ، ولا حكم إلا إليه ، وإليه المرجع والمصير.

ج ٢٠ ، ص : ١٥٢

أدلة العظمة والسلطان الإلهي وتأكيد تقريع المشركين [سورة القصص (٢٨) : الآيات ٧١ الى ٧٥]

(١٥٥/٢٠)

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ مَنْ إِلهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِياءٍ أَفَلا تَسْمَعُونَ (٧(١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهارَ سَرْمَداً إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ مَنْ إِلهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلا تُبْصِرُونَ (٧(٢) وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧(٣) وَيَوْمَ يُنادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (٧(٤) وَنَزَعْنا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً فَقُلْنا هاتُوا بُرْهانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ (٧٥)

الإعراب :

لِتَسْكُنُوا فِيهِ أي في الليل ، ولم يقل : لتسكنوا فيهما لأن السكون إنما يكون بالليل لا بالنهار ، وقوله : وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ أي في النهار لأن الابتغاء للرزق إنما يكون بالنهار في العرف والعادة.

البلاغة :

مَنْ إِلهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِياءٍ وكذا يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ ؟ استفهام للتبكيت والتوبيخ.

وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ لف ونشر مرتب ، ذكر الليل والنهار ، ثم أعاد السكن إلى الليل ، وابتغاء الرزق إلى النهار بالترتيب.

المفردات اللغوية :

قُلْ لأهل مكة وغيرهم. أَرَأَيْتُمْ أخبروني. سَرْمَداً دائما متصلا متتابعا.

بِضِياءٍ نهار تطلبون فيه المعيشة. أَفَلا تَسْمَعُونَ ذلك سماع تدبر وتفهم واستبصار ، فترجعوا عن الإشراك. تَسْكُنُونَ فِيهِ تستقرون وتستريحون فيه من متاعب الأشغال. أَفَلا

ج ٢٠ ، ص : ١٥٣

تُبْصِرُونَ

ما أنتم عليه من الخطأ في الإشراك ، فترجعوا عنه. وقدم السمع لأن استفادة العقل من السمع أكثر من استفادته من البصر.

لِتَسْكُنُوا فِيهِ في الليل. وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ لتطلبوا الرزق من فضل اللّه في النهار بأنواع المكاسب. وَيَوْمَ يُنادِيهِمْ اذكر يوم. أَيْنَ شُرَكائِيَ .. تقريع بعد تقريع للإشعار بأنه لا شيء أجلب لغضب اللّه من الإشراك به أو أن الأول لتقرير فساد آرائهم ، والثاني لبيان أنه لم يكن عن سند أو دليل ، وإنما كان محض تشه وهوى. وَنَزَعْنا أخرجنا. شَهِيداً هو نبيهم يشهد عليهم بما كانوا عليه. فَقُلْنا للأمم. هاتُوا بُرْهانَكُمْ على صحة ما قلتم من الإشراك وما كنتم تدينون به. فَعَلِمُوا حينئذ. أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ أي في الألوهية ، لا يشاركه فيها أحد. وَضَلَّ عَنْهُمْ غاب عنهم غيبة الضائع ، أو تاه. ما كانُوا يَفْتَرُونَ في الدنيا من الباطل وهو أن معه شريكا آخر ، تعالى عن ذلك.

المناسبة :

بعد أن ذكر اللّه تعالى أنه الخالق المختار ، وسفّه آراء المشركين في عبادتهم غير اللّه ، وبعد أن أبان أنه المستحق للحمد على ما تفضل به من النعم ، أردفه بإيراد بعض الأدلة والبراهين الدالة على عظمته وسلطانه وهي النعم التي لا يقدر عليها سواه ، لتذكير الناس بما يجب عليهم من الحمد له ، وشكر المنعم المتفضل به. ثم كرر قوله : وَيَوْمَ يُنادِيهِمْ على جهة الإبلاغ والتأكيد ، ثم ذكر شهادة نبي كل أمة على أعمالهم في الدنيا ، زيادة في الغم وإثباتا للجرم.

التفسير والبيان :

يمتن اللّه على عباده بما سخر لهم من الليل والنهار اللذين لا قوام لهم بدونهما فقال :

- قُلْ : أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ ، مَنْ إِلهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِياءٍ ، أَفَلا تَسْمَعُونَ ؟ أي قل أيها الرسول للمشركين باللّه :

أخبروني إن جعل اللّه وقتكم كله ظلاما ، فجعل الليل عليكم دائما متتابعا إلى يوم القيامة ، فيحصل لكم السأم والضجر والضرر ، كالمناطق القطبية التي يكون فيها

الزمن كله ليلا لمدة ستة أشهر ، ثم يكون مثلها نهارا ، فمن الإله غير اللّه الذي يتمكن من الإتيان بضياء النهار ، أفلا تسمعون ذلك سماع تدبر وتفهم وتفكر ، فتقلعوا عن الإشراك باللّه لأن كل من

سوى اللّه عاجز عن ذلك وغيره ؟ ثم ذكر العكس فقال :

– قُلْ : أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهارَ سَرْمَداً إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ ، مَنْ إِلهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ، أَفَلا تُبْصِرُونَ ؟ أي وقل لهم أيضا أيها الرسول : أخبروني إن جعل اللّه زمنكم كله نهارا ، فجعل النهار دائما متصلا إلى يوم القيامة دون أن يعقبه ليل ، فتتعب الأبدان وتكل الأجسام من كثرة الحركات والأشغال ، فمن ذلك الإله غير اللّه يستطيع الإتيان بليل تستقرون وتستريحون فيه من عناء التعب ، أفلا تبصرون هذه الظاهرة والحقيقة الدالة على القدرة الإلهية التامة ، فتعلموا أن المستحق للعبادة والتأليه هو اللّه المنعم بهذه النعم ؟

(١٥٨/٢٠)

– وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ، وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ أي ومن رحمته بكم أيها الخلق تعاقب الليل والنهار وتفاوتهما ، فجعل لكم الليل ظلاما للراحة والسكن والاستقراء وهدوء النفس من عناء العمل النهاري ، وجعل لكم النهار مضيئا لتبصروا فيه منافعكم ، وتحصلون فيه معايشكم ، وتتنقلوا فيه بالأسفار من بلد لآخر ، ويمتلئ بالحركات والأشغال ، بحثا عن موارد الرزق ، وقضاء الحاجات بأنس ومتعة لا يتوافران في العمل الليلي ، فتشكروا اللّه بأنواع العبادات ليلا ونهارا على ما أنعم به عليكم من هذه النعم دون أن يشاركه فيها شريك ؟

دلّ هذا بحق على أن تعاقب الليل والنهار من أعظم النعم على المخلوقات ، بل ومن البراهين الدالة على كمال القدرة الإلهية ، كما قال سبحانه : وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرادَ شُكُوراً [الفرقان ٢٥/ ٦٢]

ج ٢٠ ، ص : ١٥٥

و نحو ذلك من الآيات الكثيرة. وهذا التعاقب لأغراض ثلاثة : أن تسكنوا في أحدهما وهو الليل ، ولتبتغوا من فضل اللّه في الآخر ، وهو النهار ، ولإرادة شكركم على المنفعتين معا.

ويلاحظ أنه تعالى قرن قوله أَفَلا تَسْمَعُونَ بالليل ، لمناسبته له ، ففي سكون الليل وظلامه يكون إعمال السمع أفيد ، ففيه يدرك الإنسان ما لا يدركه بالبصر من منافع وفوائد. ثم قرن قوله : أَفَلا تُبْصِرُونَ بالنهار ، لمناسبته له ، ففي ضوء النهار يكون إعمال البصر أوقع ، ففيه يدرك الإنسان بعينه من المنافع والفوائد والعظات ما لا يدركه السمع أثناء الضجة والحركة ، وعلى هذا كان التذييل بما هو الأليق بكل من الليل والنهار.

(١٥٩/٢٠)

و أما سبب التذييل بكل منهما فهو الحث على الانتفاع بما يسمعون ويبصرون تأملا وتدبرا ، فلما لم ينتفعوا بالسمع والبصر نزّلوا منزلة من لا يسمع ولا يبصر.

ثم أعاد اللّه تعالى النداء لمن عبد مع اللّه إلها آخر على رؤوس الأشهاد على سبيل التوبيخ والتقريع فقال :

وَيَوْمَ يُنادِيهِمْ فَيَقُولُ : أَيْنَ شُرَكائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ؟ أي واذكر أيها الرسول للمشركين يوم يناديهم ربك ، فيقول لهم : أين شركائي الذين كنتم تزعمون في دار الدنيا أنهم شركائي ، ليخلّصوكم مما أنتم فيه.

والقصد من تأكيد هذا النداء مرة ثانية التنبيه على أنه لا شيء أجلب لغضب اللّه تعالى من الإشراك به ، كما أنه لا شيء أدعى لمرضاته من توحيده تعالى.

قال القرطبي : والمناداة هنا ليست من اللّه لأن اللّه تعالى لا يكلم الكفار لقوله تعالى : وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ [البقرة ٢/ ١٧٤] لكنه تعالى يأمر من يوبخهم ويبكّتهم ، ويقيم الحجة عليهم في مقام الحساب « ١ » .

---

(١) تفسير القرطبي : ١٣/ ٢٠٩.

و يترتب على هذا النداء التوبيخي زيادة غمهم وفرط حزنهم وألمهم ، وقد أكد ذلك بالإشهاد عليهم ، ليعلم أن التقصير منهم ، فيكون ذلك زائدا في غمهم ، فقال :

وَ نَزَعْنا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً ، فَقُلْنا : هاتُوا بُرْهانَكُمْ ، فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ ، وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ أي وأخرجنا أو أحضرنا من كل أمة شاهدا عليهم وهو نبيهم أو رسولهم ، كما قال تعالى : وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَداءِ [الزمر ٣٩/ ٦٩] وقال : فَكَيْفَ إِذا جِئْنا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ ، وَجِئْنا بِكَ عَلى هؤُلاءِ شَهِيداً [النساء ٤/ ٤١] فكل رسول يشهد على قومه بأعمالهم في الدنيا ، ويشهد محمد صلّى اللّه عليه وسلم على الأنبياء جميعا.

وقلنا لهم : أحضروا برهانكم على صحة ما ادعيتموه من أن للّه شريكا ، فلم يتمكنوا ولم يجيبوا ، وعلموا علم اليقين حينئذ أن الحق في الألوهية للّه وحده ، فلا إله غيره ، ولا رب سواه ، ولا شريك له في ملكه وسلطانه ، وذهب عنهم أو تبدد باطلهم وافتراؤهم ، وتضليلهم وكذبهم الذي كان منهم في الدنيا بنسبة الشريك للّه ، فلم ينفعهم شيئا ، كما غابت عنهم آلهتهم غيبة الشيء الضائع ، فلم

ينفعوهم.

فقه الحياة أو الأحكام :

١- إن تعاقب الليل والنهار دليل على عظمة اللّه وقوة سلطانه وتوحيده ، وهو أيضا نعمة ورحمة بالمخلوقات جميعا من إنسان وحيوان ونبات وجماد ، أما بالنسبة للإنسان ففي الليل دعة وهدوء ، وسكون وراحة من عناء العمل ، وفي النهار حركة وعمل وتكسب وطلب لرزق اللّه تعالى.

وتلك النعمة تستوجب الشكر ، وتستحق حمد اللّه على الدوام ، ويكون

الشكر بأنواع العبادات في الليل والنهار ، ومن فاته شيء بالليل استدركه بالنهار ، أو بالنهار استدركه بالليل.

٢- تتكرر مناداة الآلهة المزعومة من أصنام وغيرها أمام اللّه تعالى يوم القيامة ، ففي المرة الأولى لا يستجيبون ، فتظهر حيرة أتباعهم وعابديهم ، وفي المرة الأخرى يسكتون ، وذلك كله توبيخ وتقريع للمشركين وزيادة خزي وتحقير أمام الخلائق قاطبة.

٣- يزداد غم المشركين وتتضاعف حسرتهم وكمدهم وألمهم حين يشهد عليهم بأعمالهم نبيهم المبعوث إليهم في الدنيا لدعوتهم إلى توحيد اللّه وعبادته ، ويطلب منهم إحضار حجتهم على صحة أو صدق ادعائهم ، ولكنهم يعجزون ، ويدركون إدراكا جازما أن الأنبياء صادقون فيما جاؤوا به ، وأن اللّه وحده هو الإله الحق ، ويذهب عنهم ويبطل كل ما كانوا يختلقونه من الكذب على اللّه تعالى من أن معه آلهة أخرى تعبد.

قصة قارون

- ١- بغيه على قوم موسى واغتراره بماله [سورة القصص (٢٨) : الآيات ٧٦ الى ٧٨]

إِنَّ قارُونَ كانَ مِنْ قَوْمِ مُوسى فَبَغى عَلَيْهِمْ وَآتَيْناهُ مِنَ الْكُنُوزِ ما إِنَّ مَفاتِحَهُ لَتَنُوأُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦) وَابْتَغِ فِيما آتاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيا وَأَحْسِنْ كَما أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٧٧) قالَ إِنَّما أُوتِيتُهُ عَلى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً وَلا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ (٧٨)

الإعراب :

ما إِنَّ مَفاتِحَهُ ما اسم موصول بمعنى الذي في موضع نصب ب آتَيْناهُ وصلته :

إِنَّ وما عملت فيه. وكسرت إِنَّ لأنها متى وقعت في موضع يصلح اسما وفعلا ، كانت مكسورة ، والاسم الموصول يدخل على الجملة الاسمية والجملة الفعلية. وأُولِي واحدها ذو من غير لفظها. عَلى عِلْمٍ عِنْدِي في موضع الحال.

البلاغة :

لا تَفْرَحْ الْفَرِحِينَ وكذا الْفَسادَ الْمُفْسِدِينَ بين كل جناس اشتقاق.

المفردات اللغوية :

قارُونَ هو قارون بن يصهر بن قاهث بن لاوى بن يعقوب عليه السلام. مِنْ قَوْمِ مُوسى كان ابن عمه لأن موسى هو ابن عمران بن قاهث ، وكان أيضا ابن خالته ، وممن آمن به.

فَبَغى عَلَيْهِمْ تكبر عليهم وتجبر بكثرة المال وظلمهم وطلب أن يكونوا تحت أمره. الْكُنُوزِ جمع كنز : وهو المال المدخر ، يقال : كنز المال : جمعه وادخره. مَفاتِحَهُ لَتَنُوأُ تثقل خزائنه أي صناديقه ، جمع مفتح ، أو مقاليده أي مفاتيحه جمع مفتح وهو ما يفتح به. بِالْعُصْبَةِ الجماعة الكثيرة. أُولِي الْقُوَّةِ أصحاب الشدة. قَوْمُهُ المؤمنون من بني إسرائيل. لا تَفْرَحْ بكثرة المال ، أي لا تبطر وتتمسك بالدنيا دون الآخرة.

وَابْتَغِ اطلب. فِيما آتاكَ اللَّهُ من المال. الدَّارَ الْآخِرَةَ أي ثوابها ، بأن تنفقه في طاعة اللّه. وَلا تَنْسَ تترك ترك المنسي. نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيا أي حظك منها بأن تأخذ منها ما يكفيك أو أن تعمل فيها للآخرة. وَأَحْسِنْ للناس بالصدقة. وَلا تَبْغِ تطلب. الْفَسادَ فِي الْأَرْضِ بأمر يكون علة للظلم والبغي أي بعمل المعاصي. لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ أي يعاقبهم.

ج ٢٠ ، ص : ١٥٩

أُوتِيتُهُ أي المال. عَلى عِلْمٍ عِنْدِي أي معرفة مني ومهارة في اكتساب المال ، قيل : إنه علم التجارة. مِنَ الْقُرُونِ الأمم. وَأَكْثَرُ جَمْعاً للمال. وَلا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ سؤال استعلام ، فإنه تعالى مطلع عليها ، معاقبهم عليها لا محالة.

المناسبة :

بعد تقريع المشركين وتوبيخهم ، ذكر اللّه تعالى قصة قارون لبيان عاقبة الكافرين والمتجبرين في الدنيا والآخرة ، فقد أهلك قارون بالخسف والزلزلة ، وهو في الآخرة كالمشركين من أهل النار.

أضواء من التاريخ على قصة قارون :

عرفنا أن قارون هو ابن يصهر بن قاهث جدّ موسى ، فهو ابن عمه ، وقال ابن عباس : وكان أيضا ابن خالته. وكان يسمى المنوّر لحسن صورته ، وكان أحفظ بني إسرائيل للتوراة وأقرأهم ، فنافق كما نافق السامري ، فأهلكه البغي لكثرة ماله.

فهو رجل من بني إسرائيل ، آتاه اللّه مالا كثيرا ، حتى إن مفاتيح خزائنه كان تنوء بحملها عصبة من الرجال. نصحه أهل الوعظ والإرشاد من قومه بالبعد عن البطر والتجبر والإفساد في الأرض ، وأن يستعمل ماله في مرضاة اللّه ، مع الانتفاع ببعضه في مصالح الدنيا بقدر الكفاية ، وألا ينفقه فيما يغضب اللّه تعالى ، حتى لا يتعرض لزوال النعمة ، فأبى الامتثال لنصح الناصحين ، وقال في ماله : إِنَّما أُوتِيتُهُ عَلى عِلْمٍ عِنْدِي والظاهر أنه جمعه بما لديه من ذكاء وخبرة في شؤون التجارة ، ولكنه غفل عن بطش اللّه بالمتجبرين المتكبرين من أمثاله في الأمم الغابرة الذين كانوا أشد منه قوة وأكثر جمعا للمال.

وقد استبد به الكبر والخيلاء أن كان يخرج في موكب مهيب وزينة فاخرة باهرة ، فافتتن بعض الناس بمظاهره ، وتمنوا أن يؤتوا مثله من المال ، فقال لهم

ج ٢٠ ، ص : ١٦٠

أهل العلم والبصر والحكمة : لا تفتتنوا به ولا تطمعوا ، فثواب اللّه خير للمؤمن الذي يعمل الصالحات ، فكان عاقبة طغيانه وظلمه وجحوده نعمة اللّه أن خسف اللّه به وبداره الأرض ، دون أن يجد له نصيرا أو معينا.

التفسير والبيان :

إِنَّ قارُونَ كانَ مِنْ قَوْمِ مُوسى فَبَغى عَلَيْهِمْ أي إن قارون الذي أصبح مضرب المثل والغنى والثروة والظلم والعتو كان من بني إسرائيل ، فتجبر وتكبر بكثرة ماله ، وتجاوز الحد في ظلمهم ، وطلب منهم أن يكونوا تحت إمرته ، مع أنه قريبهم :

وظلم ذوي القربى أشد غضاضة على المرء من وقع الحسام المهنّد

وَ آتَيْناهُ مِنَ الْكُنُوزِ ما إِنَّ مَفاتِحَهُ لَتَنُوأُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ أي وأعطيناه من الأموال النقدية والعينية المدخرة التي يثقل بحمل مفاتيح خزائنها العصبة (الجماعة الكثيرة) القوية من الناس. قال ابن عباس : إن مفاتيح خزائنه كان يحملها أربعون رجلا من الأقوياء.

فنصحه الوعاظ بمواعظ خمس قائلين :

١- إِذْ قالَ لَهُ قَوْمُهُ : لا تَفْرَحْ ، إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ أي قال له جماعة من بني إسرائيل من النصحاء ، حينما أظهر التفاخر والتعالي : لا تبطر ولا تفرح بما أنت فيه من المال ، فإن اللّه لا يحب الأشرين البطرين الذين لا يشكرون اللّه على ما أعطاهم ، ولا يستعدون للآخرة ، أي يبغضهم ويعاقبهم ، كقوله تعالى : لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلى ما فاتَكُمْ ، وَلا تَفْرَحُوا بِما آتاكُمْ ، وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتالٍ فَخُورٍ [الحديد ٥٧/ ٢٣].

٢- وَابْتَغِ فِيما آتاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ أي استعمل ما وهبك اللّه من هذا

ج ٢٠ ، ص : ١٦١

المال الجزيل ، والنعمة الطائلة ، في طاعة ربك ، والتقرب إليه بأنواع القربات التي يحصل لك بها الثواب في الدنيا والآخرة ، فإن الدنيا مزرعة الآخرة.

٣- وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيا أي لا تترك حظك من لذات الدنيا التي أباحها اللّه من المآكل والمشارب والملابس والمساكن والزواج ، فإن لربك عليك حقا ، ولنفسك عليك حقا ، ولأهلك عليك حقا ، ولزورك (زوارك) عليك حقا ، فأعط كل ذي حق حقه. وهذه هي وسطية الإسلام في الحياة ، قال ابن عمر : « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا » .

٤- وَأَحْسِنْ كَما أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ أي وأحسن إلى خلقه كما أحسن الرب إليك ، وهذا أمر بالإحسان مطلقا بعد الأمر بالإحسان بالمال ، ويدخل فيه الإعانة بالمال والجاه ، وطلاقة الوجه ، وحسن اللقاء ، وحسن السمعة ، أي أنه جمع بين الإحسان المادي ، والإحسان الأدبي أو الخلقي.

٥- وَلا تَبْغِ الْفَسادَ فِي الْأَرْضِ ، إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ أي ولا تقصد الإفساد في الأرض بالظلم والبغي والإساءة إلى الناس ، فإن اللّه يعاقب المفسدين ، ويمنعهم رحمته وعونه وودّه.

ولكن قارون أبى النصح فقال :

قالَ : إِنَّما أُوتِيتُهُ عَلى عِلْمٍ عِنْدِي أي قال قارون لقومه حين نصحوه وأرشدوه إلى الخير : أنا لا أحتاج لما تقولون ، فإن اللّه تعالى إنما أعطاني هذا المال ، لعلمه بأني أستحقه ، ولمعرفتي وخبرتي بكيفية جمعه ، فأنا له أهل ، كما قال تعالى : فَإِذا مَسَّ الْإِنْسانَ ضُرٌّ دَعانا ، ثُمَّ إِذا خَوَّلْناهُ نِعْمَةً مِنَّا ، قالَ : إِنَّما أُوتِيتُهُ عَلى عِلْمٍ [الزمر ٣٩/ ٤٩] أي على علم من اللّه بي ، وقال سبحانه : وَلَئِنْ أَذَقْناهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ ، لَيَقُولَنَّ : هذا لِي [فصلت ٤١/ ٥٠] أي هذا أستحقه.

ج ٢٠ ، ص : ١٦٢

فأجابه اللّه بقوله :

(١٦٦/٢٠)

أَ وَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً ، وَأَكْثَرُ جَمْعاً ، وَلا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ أي أولم يدر في جملة ما عنده من الدراية والعلم حتى لا يغترّ بكثرة ماله وقوته أنه قد كان من هو أكثر منه مالا ، وما كان ذلك منا عن محبة له ، أو أنه أهل له ، وقد أهلكهم اللّه مع ذلك بكفرهم وعدم شكرهم ، ولا يسأل المجرمون عن كثرة ذنوبهم ، أي إذا عاقب اللّه تعالى المجرمين فلا حاجة به إلى أن يسألهم عن أنواع ذنوبهم ومقدارها لأنه تعالى عالم بكل المعلومات ، فلا حاجة به إلى السؤال. فالمراد بذلك سؤال الاستفسار والاستعلام ، كقوله تعالى : وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ وسؤال الاستعتاب ، كما قال تعالى : ثُمَّ لا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ، وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ [النحل ١٦/ ٨٤]. هذا يَوْمُ لا يَنْطِقُونَ وَلا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ [المرسلات ٧٧/ ٢٥- ٢٦].

ونظير الآية : فَيَوْمَئِذٍ لا يُسْئَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلا جَانٌّ [الرحمن ٥٥/ ٣٩].

ولا يتنافى هذا مع سؤالهم في وقت آخر سؤال توبيخ وإهانة ، كما في قوله سبحانه : فَوَ رَبِّكَ لَنَسْئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كانُوا يَعْمَلُونَ [الحجر ١٥/ ٩٢- ٩٣].

فقه الحياة أو الأحكام :

يفهم من الآيات ما يأتي :

١- البغي مرتعه وخيم ، والظلم مؤذن بخراب العمران والديار.

٢- إن كثرة المال محنة وبلاء ، وسبب للطغيان والفساد.

٣- الجاهل الذي لا علم لديه ، أو علمه ناقص هو الذي يغترّ بماله ، ويبطر

ج ٢٠ ، ص : ١٦٣

عند النعمة ، فإن اللّه تعالى يعاقب الأشرين البطرين الذين لا يشكرون نعمة اللّه تعالى عليهم.

(١٦٧/٢٠)

٤- إن أصول الحضارة الإسلامية أربعة : العمل الصالح ابتغاء ثواب الآخرة ، وعمارة الدنيا بإتقان دون أن تستولي على مشاعر الإنسان ، والإحسان إلى الناس إحسانا ماديا ومعنويا أو خلقيا ، وقمع الفساد والعصيان والخراب.

فمن حق المؤمن أن يصرف الدنيا فيما ينفعه في الآخرة ، لا في التجبر والبغي ، وألا يضيع عمره في غير العمل الصالح في دنياه إذ الآخرة هي التي يعمل لها ، فنصيب الإنسان : عمره وعمله الصالح فيها ، بأن يطيع اللّه ويعبده كما أنعم عليه ، وألا يعمل بالمعاصي والإفساد ، فإن اللّه يجازي المفسدين.

٥- اللّه تعالى مصدر الخير والرزق ، وما العبد إلا وسيلة ، يجب عليه أن يعمل ويكتسب ، واللّه هو الرازق الميسر له أسباب الرزق ، المانح له الثراء والمال ، فيكون هو المستحق للشكر على تلك النعمة.

فمن الغباء والجهل أن ينسب الإنسان الخير والفضل لنفسه ومواهبه ، أو يدعي أنه الحقيق الجدير بما أعطي ، أو ينخدع بأن ما أعطيه دليل على محبة اللّه ورضاه عنه ، فقد يكون العطاء فتنة واستدراجا ، وليس قرينة الرضا والمودة.

لذا كان اغترار قارون بكثرة ماله ، وادعاؤه أنه أهل له عبثا باطلا.

٦- أهلك اللّه كثيرا من الأمم الخالية الكافرة ، وهم أشد قوة من قارون ، وأكثر جمعا للمال منه ، ولو كان المال يدل على فضل لما أهلكهم.

٧- لا يسأل المجرمون عن ذنوبهم سؤال استعلام واستعتاب ، فاللّه عليم بكل شيء ، ولا يقبل اعتذارهم ولا عتبهم ، وإنما يسألون سؤال تقريع وتوبيخ كما بينا.

ج ٢٠ ، ص : ١٦٤

- ٢- بعض مظاهر بغي قارون وكبريائه [سورة القصص (٢٨) : الآيات ٧٩ الى ٨٢]

فَخَرَجَ عَلى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَياةَ الدُّنْيا يا لَيْتَ لَنا مِثْلَ ما أُوتِيَ قارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٧٩) وَقالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً وَلا يُلَقَّاها إِلاَّ الصَّابِرُونَ (٨٠) فَخَسَفْنا بِهِ وَبِدارِهِ الْأَرْضَ فَما كانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَما كانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ (٨(١) وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْ لا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنا لَخَسَفَ بِنا وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكافِرُونَ (٨٢)

الإعراب :

قالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَياةَ الدُّنْيا أراد : وقال الذين فحذف الواو كما حذفت من قوله تعالى : سَيَقُولُونَ : ثَلاثَةٌ رابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ ، وَيَقُولُونَ : خَمْسَةٌ سادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ [الكهف ١٨/ ٢٢] أي ورابعهم.

وَيْكَأَنَّ اللَّهَ وَيْكَأَنَّ « وي » : منفصلة من « كأن » بمعنى أعجب ، وهي كلمة يقولها المتندم إذا أظهر ندامته. وكأن اللّه : بلفظ التشبيه ، لكن ليس بمعنى التشبيه ، أي إن اللّه.

لَوْ لا أَنْ مَنَّ اللَّهُ .. أن مخففة من الثقيلة من غير عوض ، وإن كانت قد دخلت على الفعل ، وتقديره : لو لا أن الأمر والشأن منّ اللّه علينا لخسف بنا. وقرئ لخسف وخسف ولا يخسف بنا. فعلى القراءة الأولى : معناه : لخسف الله بنا والجار والمجرور في موضع نصب بالفعل ، وعلى القراءة الثانية : الجار والمجرور في موضع رفع ، لقيامه مقام نائب الفاعل ، وعلى القراءة الثالثة حذفت الكسرة تخفيفا ، والقراءة الرابعة كقراءة لخسف بنا للبناء للمجهول.

ج ٢٠ ، ص : ١٦٥

البلاغة :

(١٦٩/٢٠)

إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ تأكيد الجملة بإن واللام لأن السامع شاك متردد.

تَمَنَّوْا مَكانَهُ بِالْأَمْسِ كناية ، كنّى عن الزمن الماضي القريب بلفظ بِالْأَمْسِ.

يَبْسُطُ الرِّزْقَ وَيَقْدِرُ بينهما طباق.

المفردات اللغوية :

فَخَرَجَ قارون عَلى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ في موكب مهيب يتبعه الركبان متحلين بملابس الذهب والحرير على خيول وبغال متحلية ، وكانوا أربعة آلاف. الدُّنْيا للتنبيه مِثْلَ ما أُوتِيَ قارُونُ في الدنيا ، تمنوا مثله ، لا عينه حذرا من الحسد ، إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ لصاحب نصيب عَظِيمٍ واف في الدنيا أُوتُوا الْعِلْمَ بأحوال الآخرة وما وعد اللّه فيها ، فالمراد بالعلم : علم الدين وأحوال المتقين وَيْلَكُمْ الويل : الهلاك أو العذاب ، والمراد هنا : الزجر عما لا ينبغي ثَوابُ اللَّهِ في الآخرة بالجنة خَيْرٌ مما أوتي قارون في الدنيا وَلا يُلَقَّاها إِلَّا الصَّابِرُونَ أي لا يتلقى الجنة المثاب بها إِلَّا الصَّابِرُونَ على الطاعات وعن المعاصي.

فَخَسَفْنا بِهِ أي بقارون ، وخسف : غار في الأرض ، والمراد : جعلنا عاليها سافلها فِئَةٍ جماعة أعوان مِنْ دُونِ اللَّهِ أي غيره ، بأن يمنعوا عنه الهلاك وَما كانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ الممتنعين من عذاب اللّه تعالى بِالْأَمْسِ من قريب وَيْكَأَنَّ اللَّهَ أي ألم تر أن اللّه ، وكلمة « وي » اسم فعل بمعنى أتعجب ، وكأن : للتشبيه في الأصل ، وليس المراد بها هنا التشبيه ، وإنما المراد : بل إن اللّه يَبْسُطُ يمدّ ويعطي وَيَقْدِرُ يضيق ويقتر بمقتضى مشيئته ، لا لكرامة تقتضي البسط ، ولا لهوان يوجب القبض.

المناسبة :

(١٧٠/٢٠)

هذا فصل آخر من قصة قارون ، فبعد أن ذكر اللّه تعالى بغيه على بني إسرائيل وتجبره عليهم ، أعقبه ببيان بعض مظاهر بغيه وكبريائه ، فقام باستعراض عظمته وقوته وأبهته ، تعاليا على الناس ، وإذلالا للنفوس ، وكسرا للقلوب ، فعاقبه اللّه بالخسف والزلزال ، وأصبح المعجبون بحاله متعجبين مما حل به ، وأدركوا أن الإمداد بالرزق الإلهي لا لكرامة ومنزلة للإنسان عند اللّه ، كما أن حجب الرزق لا لهوان وسخط.

ج ٢٠ ، ص : ١٦٦

التفسير والبيان :

فَخَرَجَ عَلى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ أي فخرج قارون يوما على قومه في زينة عظيمة وتجمل باهر ، من مراكب وملابس عليه وعلى حاشيته ، بقصد التعالي على الناس ، وإظهار العظمة والأبهة. قال الرازي : وليس في القرآن إلا هذا القدر « ١ » ، يعني أن وصف الزينة كما يذكر بعض المفسرين لا دليل عليه.

قالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَياةَ الدُّنْيا : يا لَيْتَ لَنا مِثْلَ ما أُوتِيَ قارُونُ ، إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ أي فلما خرج في مظاهر الأبهة كان طبيعيا أن يفتتن بعض الناس به ، وهم السذّج والجهال الذين يريدون الحياة الدنيا ، ويميلون إلى زخارفها وزينتها ، فتمنوا أن لو كان لهم مثل ما أعطي ، وقالوا : يا ليت لنا من الأموال والثروات والأوضاع ما لقارون ، لنتمتع بها مثله ، فإنه ذو نصيب وافر من الدنيا. وهذه نزعة جبلّيّة في الإنسان ، فهو دائما يطمع في السعة واليسار :

وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ [العاديات ١٠٠/ ٨].

وفي مقابلة هذا الفريق يوجد فريق آخر هم أهل الحكمة والعلم وبعد النظر :

وَ قالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ : وَيْلَكُمْ ثَوابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً ، وَلا يُلَقَّاها إِلَّا الصَّابِرُونَ أي وقال علماء الدين وأهل العلم النافع : ويلكم أي انزجروا وارتدعوا عن هذه التمنيات والأقوال ، فإن جزاء اللّه ومثوبته لعباده المؤمنين الصالحين في الدار الآخرة خير مما ترون وما تتمنون ، ولكن لا يتلقى الجنة أو المثوبة ولا يوفق لها إلا الصابرون على الطاعات وعن المعاصي ، الراغبون في الدار الآخرة ، الراضون بقضاء اللّه في كل ما قسم من المنافع والمضار ، المترفعون عن محبة الدنيا ، وذلك كما جاء في الحديث الصحيح : « يقول اللّه تعالى : أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ،

---

(١) تفسير الرازي : ٢٥/ ١٧.

و اقرؤوا إن شئتم : فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ ، جَزاءً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ [السجدة ٣٢/ ١٧].

ثم ذكر تعالى عقاب قارون فقال :

فَخَسَفْنا بِهِ وَبِدارِهِ الْأَرْضَ أي بعد أن اختال قارون في زينته وفخره على قومه وبغيه عليهم ، زلزلنا به وبداره الأرض ، فابتلعته وغاب فيها جزاء بطره وعتوه ، كما

ثبت في صحيح البخاري عن سالم أن أباه حدثه أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم قال : « بينما رجل يجرّ إزاره ، إذ خسف اللّه به ، فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة » .

فَما كانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَما كانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ أي ما أغنى عنه ماله ولا حاشيته ، ولا دفعوا عنه نقمة اللّه ونكاله ، ولا كان هو في نفسه منتصرا لها ، فأصبح لا ناصر له من نفسه ولا من غيره.

(١٧٢/٢٠)

و لا داعي لبيان أسباب الخسف المروية في التفاسير ، فإنها كما ذكر الرازي في أكثر الأمر متعارضة مضطربة ، والأولى طرحها ، والاكتفاء بما دل عليه نص القرآن ، وتفويض سائر التفاصيل إلى عالم الغيب « ١ » .

وحينئذ ظهرت العبرة للمعتبر ، وتبين المفتونون بمال قارون حقيقة الأمر :

وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ : وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَيَقْدِرُ أي صار الذين رأوه في زينته وتمنوا في الماضي القريب أن يكونوا مثله يقولون : ألم تر أن اللّه يمدّ الرزق لمن يشاء من خلقه ويضيقه على من يشاء ، وليس المال بدال على رضا اللّه عن صاحبه ، فإن اللّه يعطي ويمنع ، ويضيق ويوسّع ، ويخفض ويرفع ، وله الحكمة التامة والحجة البالغة ، كما

---

(١) تفسير الرازي : ٢٥/ ١٨.

جاء في الحديث المرفوع عن ابن مسعود : « إن اللّه قسم بينكم أخلاقكم كما قسم أرزاقكم ، وإن اللّه يعطي المال من يحب ومن لا يحب ، ولا يعطي الإيمان إلا من يحب » .

لَوْ لا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنا لَخَسَفَ بِنا ، وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكافِرُونَ أي لو لا لطف اللّه بنا ، وإحسانه إلينا ، لخسف بنا الأرض ، كما خسف بقارون لأنا وددنا أن نكون مثله ، وألم تر أن اللّه لا يحقق الفوز

والنجاح للكافرين به ، المكذبين رسله ، المنكرين ثواب اللّه وعقابه في الآخرة ، مثل قارون.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يلي :

١- لقد استبد البغي والغرور والبطر والكبر بقارون ، فتعالى على قومه بني إسرائيل ، وأراد إظهار أبهته وعظمته أمامهم ، فخرج عليهم في يوم عيد في موكب مهيب مزدان بمتاع الحياة الدنيا من الثياب والتجمل والدواب.

(١٧٣/٢٠)

٢- انقسم الناس في شأن قارون بعد هذا الاستعراض فريقين : فريق ينبهر بسطحيات الأمور ، فأعجب بهذا المظهر ، وتمنى أن يكون مثل قارون في الثروة والمال والعزة والجاه ، وهؤلاء هم الماديون في كل زمان.

وفريق نور اللّه بصيرته ، ولم يغتر بمظاهر الدنيا وزخارفها ، وإنما نظر إلى الحقائق ، وأدرك أن الدنيا فانية ، وأن السعادة بالفوز في الآخرة ، وهؤلاء هم العلماء المؤمنون العارفون بمصير العالم والإنسان وهم أحبار بني إسرائيل ، فقالوا لأصحابهم الفريق الأول : ويلكم (كلمة زجر) ثواب اللّه أي الجنة ونعيمها خير من مال قارون وجاهه ، وهي لمن آمن وعمل الأعمال الصالحة ، ولا يؤتى الجنة في الآخرة إلا الصابرون على طاعة اللّه. ويلاحظ أن الضمير في قوله :

وَلا يُلَقَّاها يراد به الجنة لأنها المعنية بقوله تعالى : ثَوابُ اللَّهِ.

ج ٢٠ ، ص : ١٦٩

٣- كان عقاب قارون في الدنيا الخسف به وبداره الأرض ، فأصبح كأن لم يكن ، وله في الآخرة عذاب النار ، ولم يكن له في الحالين جماعة ينصرونه ويمنعونه من عذاب اللّه ، وما كان من المنتصرين الممتنعين من العذاب.

٤- إن في ذلك لعبرة للمتأمل ، فقد ندم الذين تمنوا أن يكونوا مثله ، وتنبهوا إلى حقيقة الأمر ، وتعجبوا من تعجيل العقاب ، وأدركوا أن سعة الرزق ليست دليلا على رضوان اللّه ، كما أن تقتير الرزق ليس علامة على سخط اللّه ، وحمدوا اللّه على فضله ورحمته وعصمته من مثل ما كان عليه قارون من البغي والبطر وما نزل به من العقاب ، وأيقنوا أن لا فلاح ولا فوز عند اللّه للكافرين به ، المكذبين رسله ، الجاحدين نعمته.

(١٧٤/٢٠)

٥- إن عاقبة الكبر والتعالي وخيمة ، وإن الاغترار بالأموال والأوصاف نذير سوء ، ذكر الحافظ محمد بن المنذر في كتاب « العجائب الغريبة » عن نوفل بن مساحق قال : رأيت شابا في مسجد نجران ، فجعلت أنظر إليه ، وأتعجب من طوله وتمامه وجماله ، فقال : ما لك تنظر إلي ؟ فقلت : أتعجب من جمالك وكمالك. فقال : إن اللّه ليعجب مني ، قال : فما زال ينقص حتى صار بطول الشبر ، فأخذه بعض قرابته في كمه ، وذهب به.

وهذا واضح اليوم حين يفترس السرطان جسد الإنسان ، فيتآكل عظمه من الداخل تدريجيا ، ويضمر ويصيبه الهزال الشديد ، حتى يصبح قزما صغيرا ، ثم يموت.

ج ٢٠ ، ص : ١٧٠

- ٣- محل الجزاء ومقداره والعبرة من قصة قارون [سورة القصص (٢٨) : الآيات ٨٣ الى ٨٤]

تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُها لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلا فَساداً وَالْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (٨٣) مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْها وَمَنْ جاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئاتِ إِلاَّ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (٨٤)

الإعراب :

تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ تِلْكَ : مبتدأ ، والدَّارُ الْآخِرَةُ : إما خبر ، فيكون قوله تعالى : نَجْعَلُها في موضع نصب على الحال أو في موضع رفع خبر بعد خبر ، وإما عطف بيان ، فيكون قوله : نَجْعَلُها خبر المبتدأ.

البلاغة :

مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْها وَمَنْ جاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَى إلا مثلها بينهما مقابلة.

فَلا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئاتِ وضع الظاهر وهو السيئات موضع الضمير أي « عملوها » تهجينا لحالهم ، بتكرير إسناد السيئة لهم.

المفردات اللغوية :

تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ أي الجنة ، وتلك : إشارة تعظيم ، كأنه قال : تلك التي سمعت خبرها وبلغك وصفها عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ قهرا وتكبرا وغلبة وَلا فَساداً ظلما على الناس ، كما أراد فرعون وقارون وَالْعاقِبَةُ المصير المحمود لِلْمُتَّقِينَ عقاب اللّه أو ما لا يرضاه اللّه ، بفعل الطاعات.

بِالْحَسَنَةِ الفعلة الطيبة فَلَهُ خَيْرٌ مِنْها ذاتا وقدرا ووصفا وَمَنْ جاءَ بِالسَّيِّئَةِ الفعلة المنكرة الخبيثة إِلَّا ما كانُوا يَعْمَلُونَ أي إلا مثل ما كانوا يعملون ، فحذف المثل ، وأقام مقامه : ما كانُوا يَعْمَلُونَ مبالغة في المماثلة.

ج ٢٠ ، ص : ١٧١

المناسبة :

بعد بيان قول أهل العلم : ثَوابُ اللَّهِ خَيْرٌ أبان اللّه تعالى محل هذا الجزاء وهو الدار الآخرة ، وجعله للمؤمنين المتقين المتواضعين الذين لا يتكبرون على الناس ولا يفسدون فيهم ، بظلمهم وأكل حقوقهم ، ثم بيّن بعدئذ مقدار ذلك الجزاء الذي يحصل لهم : وهو أن الحسنة بعشر أمثالها إلى سبع مائة ضعف ، فأكثر ، فضلا من اللّه ورحمة ، وجزاء السيئة مثلها ، لطفا من اللّه وعدلا. وذلك كله عبرة بقصة قارون المتجبر المتكبر الباغي.

التفسير والبيان :

تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُها لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلا فَساداً أي إن الدار الآخرة ونعيمها الدائم الذي لا يحول ولا يزول ، ولا عناء فيه ولا مشقة ، يجعلها ربك لعباده المؤمنين المتواضعين الذين لا يريدون ترفعا على خلق اللّه وتعاظما عليهم وتجبرا بهم بغير حق ، ولا فسادا بأخذ أموالهم بغير حق. ولم يعلق الوعد بالنعيم بترك العلو والفساد ، ولكن بترك إرادتهما وميل القلب إليهما. وقال : تِلْكَ على جهة التعظيم للجنة والتفخيم لشأنها ، يعني تلك التي سمعت بذكرها ، وبلغك وصفها.

(١٧٦/٢٠)

قال علي رضي اللّه عنه– فيما رواه ابن جرير عنه– : إن الرجل ليعجبه من شراك نعله أن يكون أجود من شراك نعل صاحبه ، فيدخل في قوله تعالى :

تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ .. الآية.

قال ابن كثير : وهذا محمول على ما إذا أراد بذلك الفخر والتطاول على غيره ، فإن ذلك مذموم ، كما ثبت في الصحيح عن النبي صلّى اللّه عليه وسلم أنه قال : « إنه أوحي إلي أن تواضعوا ، حتى لا يفخر أحد على أحد ، ولا يبغي أحد على أحد » .

ج ٢٠ ، ص : ١٧٢

و أما إذا أحب ذلك لمجرد التجمل ، فهذا لا بأس به ،

فقد ثبت– فيما روي مسلم وأبو داود– أن النبي صلّى اللّه عليه وسلم قال : « لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر ، فقال رجل : إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنة ، فقال : إن اللّه جميل يحب الجمال ، الكبر : بطر الحق ، وغمط الناس » .

وَالْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ أي والمصير المحمود وهو الجنة لمن اتقى عذاب اللّه وخاف عقابه ، بعمل الطاعات ، وترك المحظورات المحرّمات ، ولم يكن كفرعون الطاغية الجبار الكافر باللّه ، ولا كقارون الباغية الفاجر المكذب رسل اللّه ، الذي يريد الفساد في الأرض والاستعلاء.

ثم بين اللّه تعالى حال الجزاء على الأعمال فقال :

مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْها أي من جاء بالخصلة الحسنة يوم القيامة ، فله خير منها ذاتا ومقدارا وصفة ، فثواب اللّه خير من حسنة العبد ، واللّه يضاعفه أضعافا كثيرا ، فضلا من اللّه ورحمة وإحسانا.

وَمَنْ جاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئاتِ إِلَّا ما كانُوا يَعْمَلُونَ أي ومن أتى بالفعلة القبيحة المنكرة شرعا وعقلا وعرفا صحيحا مقبولا ، فلا يجزى عليها إلا مثلها رحمة وعدلا ، كما قال تعالى : وَ

فقه الحياة أو ا

أ

نَ الْمُشْرِكِينَ (٨٧) وَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٨)

الإعراب :

أَعْلَمُ مَنْ جاءَ .. مَنْ : في موضع نصب بفعل مقدر دل عليه أَعْلَمُ وتقديره :

يعلم من جاء بالهدى ، كقوله : أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ [الأنعام ٦/ ١١٧] أي يعلم من يضل ، ووجب التقدير لامتناع الإضافة.

ج ٢٠ ، ص : ١٧٤

كُلُّ شَيْءٍ هالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ وَجْهَهُ : مستثنى منصوب. ويجوز فيه الرفع على الصفة ، وتكون إِلَّا بمعنى غير ، مثل : قام القوم إلا زيد ، بالرفع على الوصف ، كقولهم : قام القوم غير زيد ، وكقول الشاعر :

وكل أخ مفارقه أخوه لعمر أبيك إلا الفرقدان

أي غير الفرقدين.

البلاغة :

إِلَّا وَجْهَهُ مجاز مرسل ، من قبيل إطلاق الجزء وإرادة الكل ، أي ذاته المقدسة.

المفردات اللغوية :

فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ أنزله عليك ، وأوجب عليك تلاوته وتبليغه والعمل بما فيه لَرادُّكَ إِلى مَعادٍ أي بلده مكة ، فكأن اللّه تعالى وعده وهو بمكة في أذى وغلبة من أهلها أنه يهاجر منها ويعيده إليها ظافرا منتصرا ، علما بأن السورة مكية. وقيل : المعاد : هو المقام المحمود الذي وعده ربه أنه يبعثه فيه يوم القيامة ، فيسأله عما استرعاه من أعباء النبوة.

أَعْلَمُ مَنْ جاءَ بِالْهُدى أَعْلَمُ بمعنى عالم ، ومَنْ منتصب بفعل يفسره : أعلم ، أي فالنبي هو الجائي

بالهدى ، جوابا لقول كفار مكة : إنك في ضلال ، والحقيقة أنهم هم في ضلال الْكِتابُ القرآن إِلَّا رَحْمَةً أي لكن ألقي إليك رحمة من ربك ، أي لأجل الترحم ظَهِيراً معينا وناصرا لِلْكافِرِينَ على دينهم الذي دعوك إليه ، بمداراتهم ، والتحمل منهم ، والإجابة إلى طلبهم.

(١٧٨/٢٠)

وَ لا يَصُدُّنَّكَ أصله : ولا يصدونك ، حذفت نون الرفع للجازم ، والواو الفاعل لالتقائها مع النون الساكنة عَنْ آياتِ اللَّهِ أي عن قراءتها والعمل بها. بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ أي لا ترجع إليهم في ذلك وَادْعُ إِلى رَبِّكَ أي وادع الناس إلى توحيده وعبادته وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ بإعانتهم ، علما بأنه لم يؤثر الجازم في الفعل لبنائه وَلا تَدْعُ تعبد هالِكٌ معدوم إِلَّا وَجْهَهُ إلا ذاته لَهُ الْحُكْمُ القضاء النافذ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ بالنشور من قبوركم.

ج ٢٠ ، ص : ١٧٥

سبب النزول : نزول الآية (٨٥) :

إِنَّ الَّذِي فَرَضَ :

أخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك قال : لما خرج النبي صلّى اللّه عليه وسلم من مكة ، فبلغ الجحفة اشتاق إلى مكة ، فأنزل اللّه : إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرادُّكَ إِلى مَعادٍ.

و

قال مقاتل : إنه صلّى اللّه عليه وسلم خرج من الغار- غار ثور حين الهجرة- وسار في غير الطريق ، مخافة الطلب ، فلما أمن رجع إلى الطريق ، ونزل بالجحفة بين مكة والمدينة ، وعرف الطريق إلى مكة ، واشتاق إليها ، وذكر مولده ومولد أبيه ، فنزل جبريل عليه السلام ، وقال له : تشتاق إلى بلدك ومولدك ؟

فقال صلّى اللّه عليه وسلم : نعم ، فقال جبريل عليه السلام : فإن اللّه تعالى يقول : إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرادُّكَ إِلى مَعادٍ

يعني إلى مكة ظاهرا عليهم. قال الرازي :

وهذا المعنى أقرب لأن ظاهر المعاد أنه كان فيه ، وفارقه وحصل العود ، وذلك لا يليق إلا بمكة ، وإن كان سائر الوجوه محتملا ، لكن ذلك أقرب « ١ » .

المناسبة :

قال الرازي أيضا : ثم إنه سبحانه لما شرح لرسوله أمر القيامة ، واستقصى في ذلك ، شرح له ما يتصل بأحواله ، فقال : إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرادُّكَ إِلى مَعادٍ « ٢ » .

و هذا يعني أن اللّه تعالى بعد أن قص في هذه السورة على رسوله قصص موسى مع فرعون ، وقصص قارون مع قومه بني إسرائيل ، وبيّن هلاك كل من

---

(١) تفسير الرازي : ٢٥/ ٢١.

(٢) المرجع والمكان السابق.

ج ٢٠ ، ص : ١٧٦

الطاغيتين ، أعقبه بذكر قصص النبي صلّى اللّه عليه وسلم وأصحابه مع قومه ، وإخراجهم أو تهجيرهم إياه من مكة ، ثم عوده إليها ظافرا منتصرا ، متابعا دعوته إلى عبادة اللّه وتوحيده.

التفسير والبيان :

يأمر اللّه رسوله بإبلاغ الرسالة وتلاوة القرآن على الناس ، ويخبره بأنه سيرده إلى معاد فقال :

إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرادُّكَ إِلى مَعادٍ أي إن اللّه الذي أوجب عليك العمل بالقرآن وافترض عليك أداءه إلى الناس ، لرادّك إلى بلدك الحبيب :

مكة فاتحا ظافرا منتصرا ، بعد خروجك منها مهاجرا. وكان هذا هو الفتح الأعظم الذي تم به الاستيلاء على معقل الكفر والوثنية ، وتحطيم الأصنام المنصوبة حول الكعبة المشرفة.

وهو وعد صادق منجز من اللّه لرسوله ، حينما كان في مكة في طريقه إلى المدينة ، فاطمأن لذلك وهدأت نفسه. قال المحققون : وهذا أحد ما يدل على نبوته لأنه أخبر عن الغيب ووقع كما أخبر ، فيكون معجزا.

ولما وعد اللّه تعالى رسوله الرد إلى معاد أمره أن يقول للمشركين (كفار مكة) توبيخا لهم حينما اتهموه بأنه في ضلال القول الآتي :

قُلْ : رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جاءَ بِالْهُدى ، وَمَنْ هُوَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ أي قل أيها الرسول لمن خالفك وكذبك من قومك من المشركين ومن تبعهم على كفرهم : اللّه تعالى العالم البصير الذي يعلم الغيب والشهادة هو عالم بالمهتدي مني ومنكم ، وعالم بالضال ضلالا بينا ظاهرا ، وعالم بمن جاء بالهدى- يعني نفسه صلّى اللّه عليه وسلم- وهو القرآن ، وبما يستحقه من الثواب في معاده ، وإعزازه بالإعادة إلى مكة ،

ج ٢٠ ، ص : ١٧٧

و ستعلمون لمن تكون له عاقبة الدار ، ولمن تكون العاقبة والنصرة في الدنيا والآخرة ، فينصر المؤمن ، ويخذل الكافر.

ثم قال تعالى مذكرا نبيه نعمته العظيمة عليه وعلى الناس إذ أرسله إليهم :

وَما كُنْتَ تَرْجُوا أَنْ يُلْقى إِلَيْكَ الْكِتابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ أي وما كنت أيها النبي تظن قبل إنزال الوحي إليك أن الوحي ينزل إليك ، وأن القرآن ينزل على قلبك ، فتعلم به أخبار الماضين ، وتعرف منه دستور الحياة ، وتشريع المجتمع الذي فيه سعادتهم ونجاتهم ، ولكن إنما أنزل ربك الوحي عليك وألقى عليك الكتاب ، رحمة منه بك وبالعباد بسببك.

وبناء عليه كلفه ربه بأمور خمسة هي :

١- فَلا تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِلْكافِرِينَ أي فلا تكن معينا للكفار بأي حال ، ولكن فارقهم وخالفهم ، وكن عونا للمسلمين ، واللّه مؤيدك وحافظك.

(١٨١/٢٠)

٢- وَلا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آياتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ أي ولا تلتفت إلى هؤلاء المشركين ، ولا تتأثر بهم ولا لمخالفتهم لك ، ولا تركن إلى قولهم ، فيصدّوك عن اتباع آيات اللّه المنزلة إليك ، وتبليغها للناس ، فإن اللّه معك ، ومؤيد دينك ، ومظهر ما أرسلك به على سائر الأديان ، كما قال تعالى : يا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ، وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ ، فَما بَلَّغْتَ رِسالَتَهُ ، وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ [المائدة ٥/ ٦٧].

٣- وَادْعُ إِلى رَبِّكَ أي وادع إلى عبادة ربك وحده لا شريك له ، وبلّغ دينه ، وأعلن رسالته دون تردد ولا خوف ولا تمهل. وهذا أمر بالصدع أو الجهر بالدعوة ، وفيه تشدد بدعوة الكفار والمشركين ، ولكن في مظلة الأمن والسلام ، والمهادنة والموادعة.

ج ٢٠ ، ص : ١٧٨

٤- وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ أي واحذر أن تكون مع الذين أشركوا بربهم ، فجعلوا له شريكا وندا ، فتكون من الهالكين ، لأن من رضي بطريقتهم كان منهم.

وهذا النهي عن مظاهرة المشركين ونحو ذلك من باب إلهاب الحماس ، وتهييج العاطفة ، وإثارة الغيرة على استقلال دين التوحيد وعبادة اللّه.

ثم فسر ذلك بقوله :

٥- وَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ ، لا إِلهَ إِلَّا هُوَ أي ولا تعبد مع اللّه إلها آخر ، ولا تدع في أي عمل من الأعمال إلها غير اللّه لأنه لا تليق العبادة إلا له ، ولا جدوى في الدعاء لغيره ، ولا تنبغي الألوهية إلا

لعظمته ، ولا معبود يستحق العبادة سواه ، كما قال : رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ، لا إِلهَ إِلَّا هُوَ ، فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا [المزمّل ٧٣/ ٩] أي فاتخذه وكيلا في أمورك ، وهو نعم الوكيل.
وهذا وإن كان واجبا على الكل ، إلا أنه تعالى خاطبه به خصوصا لأجل التعظيم.

(١٨٢/٢٠)

ثم بيّن اللّه تعالى صفات الألوهية التي تفرد بها فقال :
أولا- كُلُّ شَيْءٍ هالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ أي كل من في الوجود فان إلا ذات اللّه المقدسة ، فهو الدائم الباقي ، الحي القيوم ، الذي يميت الخلائق ولا يموت ، كما قال سبحانه : كُلُّ مَنْ عَلَيْها فانٍ ، وَيَبْقى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالْإِكْرامِ [الرحمن ٥٥/ ٢٦- ٢٧]. و
قد ثبت في الصحيح عن أبي هريرة رضي اللّه عنه قال :
قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم : « أصدق كلمة قالها الشاعر لبيد :
أ لا كلّ شيء ما خلا اللّه باطل »
ج ٢٠ ، ص : ١٧٩
و مقتضى هذا أن كل الذوات فانية وزائلة إلا ذاته تعالى وتقدس ، فإنه الأول والآخر ، الذي هو قبل كل شيء ، وبعد كل شي ء.
ثانيا- لَهُ الْحُكْمُ أي له الملك والتصرف والقضاء النافذ في الخلق ، ولا معقب لحكمه.
ثالثا- وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ أي مصير جميع الخلائق إليه ، فإليه ترجعون يوم معادكم ، فيجزيكم بأعمالكم ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر.
فقه الحياة أو الأحكام :
يستنبط من الآيات ما يأتي :
١- ختم اللّه تعالى سورة القصص ببشارة نبيه محمد صلّى اللّه عليه وسلم برده إلى مكة ، قاهرا لأعدائه ، فاتحا البلد الحرام ، مكسرا الأصنام ، معلنا انتهاء عهد الشرك والوثنية ، رافعا راية التوحيد إلى الأبد بأنه لا إِلهَ إِلَّا هُوَ. وهذا إشارة إلى الهجرة وإلى فتح مكة أيضا.
٢- يستخدم القرآن أحيانا أسلوب اللين والحكمة وإثارة الانتباه والتفكير في حقيقة دعوة الإسلام ، فلا يحسم الأمر ليترك سبيلا للمناقشة والأخذ والرد ، وهذا من فنون السياسة الرفيعة المستوى ، لذا أمر اللّه نبيه أن يقول : قُلْ : رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جاءَ بِالْهُدى ، وَمَنْ هُوَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ أي قل لكفار مكة وأمثالهم إذا قالوا : إنك لفي ضلال مبين : ربي هو العالم بالمهتدي والضال : أنا أم أنتم.

(١٨٣/٢٠)

٣- لا علم لأحد ، ولا علم لرسوله أن اللّه تعالى يرسله نبيا رسولا إلى الخلق أجمعين ، وينزل عليه القرآن نورا وهدى ونبراسا ودستورا للحياة وتشريعا خالدا صالحا على الدوام للإنسانية جمعاء.

ج ٢٠ ، ص : ١٨٠

و لكن رحمة اللّه برسوله وبعباده اقتضت إرسال الرسول ، وإنزال القرآن حكما عدلا وقولا فصلا.

٤- كلّف الرسول صلّى اللّه عليه وسلم بخمسة أمور : ألا يكون عونا ولا مساعدا للكافرين في جميع الأحوال ، وأن يمضي في تبليغ رسالة ربه وأمره وشأنه دون أن تمنعه أقوال الكفار وكذبهم وأذاهم عن مواصلة الطريق في الدعوة إلى اللّه ، وأن يعلن الدعوة إلى توحيد اللّه ، وألا يكون مع المشركين لأن من رضي بطريقتهم كان منهم ، وألا يعبد مع اللّه إلها غيره ، فإنه لا إله إلا هو ، وهذا نفي لكل معبود وإثبات لعبادة اللّه تعالى.

٥- وصف الحق تعالى نفسه بصفات ثلاث : هي كل شيء في الوجود هالك فان غير اللّه تعالى ، وله الحكم النافذ في الدنيا والآخرة ، وكل المخلوقات راجعة إليه للحساب والجزاء على الأعمال خيرها وشرها.

وهذا يعني : ليس كل شيء هالكا من غير رجوع ، بل كل شيء هالك ، وله رجوع إلى اللّه تعالى.

ج ٢٠ ، ص : ١٨١

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة العنكبوت

مكية ، وهي تسع وستون آية.

تسميتها :

سميت سورة العنكبوت لأن اللّه تعالى شبّه الذين اتخذوا الأصنام وغيرها آلهة بالعنكبوت التي اتخذت بيتا ضعيفا واهنا ، فقال : مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِياءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً .. الآية [٤١].

موضوعها :

موضوع السورة كسائر السور المكية تقرير أصول العقيدة وهي الوحدانية ، والرسالة ، والبعث والجزاء ، وتثبيت الإيمان في القلوب في جميع الأحوال ، وبخاصة وقت الابتلاء والمحنة ، فافتتحت بالإخبار عن فتنة الإنسان ، وختمت بالحديث عن هداية المجاهدين نفوسهم إلى أقوم السبل ونصرة اللّه لهم.

مناسبتها لما قبلها :

تظهر صلة هذه السورة بما قبلها في بيان أمثلة واقعية من الصراع بين الحق والباطل ، وبين الضعف والقهر ، وبين أثر الصمود والصبر على الإيمان وأثر الانسلاخ منه ، ففي سورة القصص ذكر اللّه تعالى استعلاء فرعون وجبروته ، وتفريقه الناس شيعا ، واستضعافه بني إسرائيل بذبح أبنائهم واستحياء نسائهم ،

ج ٢٠ ، ص : ١٨٢

و نجاة موسى عليه السلام مع قومه ، ونصره على الطغاة وإغراقهم ، كما ذكر اللّه قصة قارون الباغية وعقابه بالخسف.

وفي هذه السورة ذكر اللّه قصة المسلمين في مكة الذين فتنهم المشركون عن دينهم ، وعذبوهم على الإيمان بنحو أقل من تعذيب فرعون بني إسرائيل ، حثا لهم على قوة التحمل والصبر ، وتسلية لهم بما وقع لمن قبلهم ، ثم ذكر نجاة نوح عليه السلام في سفينته مع جند الإيمان ، وإغراق قومه الذين كذبوه.

كما أن بين السورتين تشابها في الإشارة إلى موضوع الهجرة ، ففي خاتمة القصص الإشارة إلى هجرة النبي صلّى اللّه عليه وسلم : إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرادُّكَ إِلى مَعادٍ وفي خاتمة هذه السورة الإشارة إلى هجرة المؤمنين : يا عِبادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي واسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ [٥٦].

(١٨٥/٢٠)

و كذلك يوجد ارتباط بين السورتين في تحديد الغاية والغرض ، ففي سورة القصص بيان العاقبة المحمودة للمتقين المتواضعين : تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُها لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلا فَساداً ، وَالْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ [٨٣] وفي هذه السورة تقرير العاقبة الحسنة للمؤمنين الذين يعملون الصالحات : وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفاً ، تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ ، خالِدِينَ فِيها ، نِعْمَ أَجْرُ الْعامِلِينَ [٥٨].

ثم إنه تعالى لما قال في آخر السورة المتقدمة : كُلُّ شَيْءٍ هالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ وأعقبه بما يبطل قول منكري الحشر : لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ رد في مطلع هذه السورة على منكري الحشر القائلين : لا فائدة في التكاليف إذ لا مرجع بعد الهلاك والزوال ، ومضمون الرد أن للتكليف فائدة وهي أن يثيب اللّه الشكور ويعذب الكفور.

ج ٢٠ ، ص : ١٨٣

مشتملات السورة :

اشتملت هذه السورة على ما يأتي :

١- إعلان اختبار المؤمنين على الشدائد والمحن في الدنيا ، وبيان فائدة جهاد النفس ، ومعرفة مدى صلابة الإيمان وقت الشدة ، فالمؤمن هو المجاهد الصابر الذي لا يلين أمام الأحداث الجسام ، ويظل ثابت العهد كالطود الشامخ دون أن يتزحزح عن إيمانه وعقيدته ، وأما مهتز الإيمان أو المنافق ، فيظهر الإيمان أحيانا ، ولكنه لا يتحمل الأذى في سبيل اللّه : وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ : آمَنَّا بِاللَّهِ ، فَإِذا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذابِ اللَّهِ ... وحينئذ يعلم اللّه المؤمنين علم انكشاف وإظهار كما يعلم المنافقين ، لكنه سبحانه عالم بذلك سلفا.

(١٨٦/٢٠)

٢- الحديث عن محنة الأنبياء التي هي أشد وأصعب من محنة المؤمنين ، فقد قص اللّه على رسوله وعلى المؤمنين قصة نوح ، وإبراهيم ، ولوط ، وشعيب ، وهود ، وصالح ، وموسى ، وهارون ، ليعلموا أن اللّه نصرهم ، وأهلك أقوامهم :

فَكُلًّا أَخَذْنا بِذَنْبِهِ ، فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنا عَلَيْهِ حاصِباً ، وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ ، وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنا بِهِ الْأَرْضَ ، وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنا .. الآية [٤٠].

٣- محاجة المشركين بضرب الأمثال لهم تقريعا وتوبيخا ، ومحاجة أهل الكتاب بالحسنى واللين والحكمة.

٤- إثبات نبوة محمد صلّى اللّه عليه وسلم بمعجزة إنزال القرآن عليه علما بأنه أمي لا يقرأ ولا يكتب ، وتفنيد بعض شبهات المشركين في نبوته ، واستعجالهم العذاب المحقق نزوله بهم.

٥- الإذن للمؤمنين بالهجرة من ديارهم فرارا بدينهم من الفتن ، وترغيبهم بالصبر ، وإبعاد خوف الموت عن نفوسهم فإن الموت محقق في كل مكان وزمان ،

و تبشيرهم بالعاقبة الحسنة إذا عملوا الصالحات ، وزهدوا في الدنيا لأن الدار الآخرة هي دار الحياة الباقية الحقة.

٦- اعتراف المشركين بأن اللّه هو خالق السموات والأرض وأنه هو الرازق ، وأنه كاشف الضر والمنجي من المخاطر ، وذلك يتضمن الحديث عن الأدلة والبراهين على القدرة والوحدانية في هذا الكون الفسيح.

٧- الامتنان على أهل مكة بإقامتهم في الحرم الآمن ، مع خوف من حولهم ، ثم كفرهم بهذه النعمة

وغيرها بالإشراك باللّه ، وتكذيب رسوله ، وهو غاية الظلم.

٨- بيان جزاء المؤمنين الذين صبروا أمام المحن والشدائد ، وجاهدوا في سبيل اللّه بالنفس والمال ، واجتازوا المحنة بأمان وسلام.

اختبار الناس وجزاؤهم [سورة العنكبوت (٢٩) : الآيات ١ الى ٧]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الم (١) أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكاذِبِينَ (٣) أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئاتِ أَنْ يَسْبِقُونا ساءَ ما يَحْكُمُونَ (٤)

مَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٥) وَمَنْ جاهَدَ فَإِنَّما يُجاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعالَمِينَ (٦) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كانُوا يَعْمَلُونَ (٧)

ج ٢٠ ، ص : ١٨٥

الإعراب :

أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا : آمَنَّا أَنْ يُتْرَكُوا : منصوب ب حَسِبَ سدّ مسد مفعوليها. وأَنْ يَقُولُوا : في موضع نصب بتقدير حذف حرف الجر ، أي بأن يقولوا.

ساءَ ما يَحْكُمُونَ ما : إما في موضع رفع بمعنى : ساء الشيء أو الحكم حكمهم ، وإما في موضع نصب بمعنى ساء شيئا أو حكما يحكمون.

البلاغة :

أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا .. استفهام للتقريع والتوبيخ والإنكار.

صَدَقُوا والْكاذِبِينَ بينهما طباق.

فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ التأكيد بإن واللام لأن المخاطب منكر.

وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ صيغة مبالغة على وزن فعيل.

المفردات اللغوية :

الم هذه الحروف الهجائية تنبيه على إعجاز القرآن ، ووقوع الاستفهام بعدها دليل على استقلالها بنفسها أَحَسِبَ النَّاسُ أظن الناس ، والاستفهام إنكاري ، وتدخل حَسِبَ على الجملة للدلالة على جهة ثبوتها أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ أي أحسبوا تركهم غير مفتونين ، لقولهم : آمنا ، بل يمتحنهم اللّه بمشاقّ التكاليف ، كالهجرة والجهاد ومقاومة الشهوات والقيام بالطاعات وأنواع المصائب في الأنفس والأموال ، ليتميز المخلص من المنافق ، والثابت في الدين من المضطرب فيه ، ولينالوا بالصبر عليها عوالي الدرجات ، فإن مجرد الإيمان لا يقتضي غير الخلاص من الخلود في العذاب وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ يختبرون ويمتحنون بما يتبين به حقيقة إيمانهم بالتعرض للشدائد.

وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أي إن ذلك سنة قديمة ، جارية في الأمم كلها ، فلا ينبغي أن يتوقع خلافه فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكاذِبِينَ أي ليظهرن صدقهم وكذب المكذبين ، وينوط به ثوابهم وعقابهم. وهذا تعلق حالي وعلم مشاهدة يتميز به الفريقان ، ولا ينافي تعلق علم اللّه القديم بكل شيء ، فهو عالم بما خلق قبل الخلق.

يَعْمَلُونَ السَّيِّئاتِ الكفر والمعاصي ، فإن العمل يعم أفعال القلوب والأعضاء أَنْ

ج ٢٠ ، ص : ١٨٦

يَسْبِقُونا

يفوتونا فلا ننتقم منهم ، أي الفوت عن الجزاء على مساويهم ساءَ بئس الحكم هذا ما يَحْكُمُونَ الذي يحكمونه ، أي قبح حكمهم أنهم يهربون منا. مَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ اللَّهِ أي يأمل ويطمع في لقائه وثوابه وجزائه في الجنة ، وقيل : يخاف لقاءه فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ أي فإن الوقت المحدد للقائه أو هو الموت لجاء لا محالة ، فليستعد له وَهُوَ السَّمِيعُ لأقوال العباد الْعَلِيمُ بأفعالهم.

وَ مَنْ جاهَدَ نفسه بالصبر على الطاعة والكف عن الشهوات ، وبذل جهده في مقاومة الأعداء بالنفس أو المال فَإِنَّما يُجاهِدُ لِنَفْسِهِ فإن منفعة جهاده له إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعالَمِينَ عن الإنس والجن والملائكة ، وعن عبادتهم ، فلا حاجة به إلى طاعتهم ، وإنما كلف عباده رحمة بهم ومراعاة لصلاحهم لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ بعمل الصالحات فيسقط عقابها بثواب الحسنات وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كانُوا يَعْمَلُونَ وهو الصالحات ، وأَحْسَنَ إما بمعناه أو بمعنى حسن ، وهو منصوب بنزع الخافض : الباء ، والمعنى لنجزينهم بأحسن جزاء لأعمالهم ، وهو أن يجازي الحسنة الواحدة بالعشر وزيادة.

سبب النزول :

روي أنها نزلت في ناس من الصحابة جزعوا من أذى المشركين ، وقيل : في عمار ، وقد عذب في اللّه

، أخرج ابن سعد عن عبد اللّه بن عبيد بن عمير قال :
نزلت في عمار بن ياسر إذ كان يعذب في اللّه : أَحَسِبَ النَّاسُ الآية.
وأخرج ابن أبي حاتم وابن جرير وابن المنذر عن الشعبي في قوله : الم ، أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا الآية قال : أنزلت في أناس كانوا بمكة ، وقد أقروا بالإسلام ، فكتب إليهم أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم من المدينة أنه لا يقبل منكم حتى تهاجروا ، فخرجوا عامدين إلى المدينة ، فتبعهم المشركون ، فردوهم ، فنزلت فيهم هذه الآية ، فكتبوا إليهم أنه قد نزل فيكم كذا وكذا ، فقالوا : نخرج ، فإن اتّبعنا أحد قاتلناه ، فخرجوا فأتبعهم المشركون فقاتلوهم ، فمنهم من قتل ، ومنهم من نجا ، فأنزل اللّه فيهم : ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هاجَرُوا مِنْ بَعْدِ ما فُتِنُوا ، ثُمَّ جاهَدُوا وَصَبَرُوا ، إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِها لَغَفُورٌ رَحِيمٌ [النحل ١٦/ ١١٠].
ج ٢٠ ، ص : ١٨٧

و أخرج ابن أبي حاتم أيضا عن قتادة قال : أنزلت الم ، أَحَسِبَ النَّاسُ في أناس من أهل مكة خرجوا ، يريدون النبي صلّى اللّه عليه وسلم ، فعرض لهم المشركون ، فرجعوا ، فكتب إليهم إخوانهم بما نزل فيهم ، فخرجوا فقتل من قتل ، وخلص من خلص ، فنزل القرآن : وَالَّذِينَ جاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا ، وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ.
و
قال مقاتل : نزلت في مهجع مولى عمر بن الخطاب ، كان أول قتيل من المسلمين يوم بدر ، رماه عامر بن الحضرمي بسهم فقتله ، فقال النبي صلّى اللّه عليه وسلم يومئذ : « سيد الشهداء مهجع ، وهو أول من يدعى إلى باب الجنة من هذه الأمة » فجزع عليه أبواه وامرأته ، فنزلت : الم. أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا .. الآية.
التفسير والبيان :
الم هذه الحروف المقطعة بدئ بها لتنبيه السامع وطلب إصغائه وإشعاره بإعجاز القرآن الدال على كونه كلام اللّه الحكيم الخبير.
وقد لاحظ الرازي « ١ » أن كل سورة في أوائلها حروف التهجي بدئت بذكر الكتاب أو التنزيل أو القرآن ، كأوائل سورة البقرة الم ، ذلِكَ الْكِتابُ وآل عمران الم ...
وقد حصل التنبيه في القرآن بغير حروف التهجي ا
ئض المالية والبدنية من صلاة وصيام وحج وزكاة ونحوها ، والتعرض للمصائب في الأنفس والأموال

والثمرات ، ليتميز المؤمن المخلص من المنافق ، والراسخ في الدين من المضطرب فيه ، ونجازي كل واحد بحسب عمله.

وهذا استفهام إنكار ، معناه أن اللّه تعالى لا بد أن يبتلي عباده المؤمنين بحسب ما عندهم من الإيمان ، كما

جاء في الحديث الصحيح : « أشدّ الناس بلاء :

الأنبياء ، ثم الصالحون ، ثم الأمثل فالأمثل ، يبتلى الرجل على حسب دينه ، فإن كان في دينه صلابة ، زيد له في البلاء » .

(١٩١/٢٠)

و نظير هذه الآية قوله : أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ ، وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جاهَدُوا مِنْكُمْ ، وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ [آل عمران ٣/ ١٤٢] وقوله سبحانه : أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ ، وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ ، مَسَّتْهُمُ الْبَأْساءُ وَالضَّرَّاءُ ، وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ : مَتى نَصْرُ اللَّهِ ؟ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ [البقرة ٢/ ٢١٤].

وقد بينت أن هذه الآية نزلت في بعض المؤمنين في مكة ، الذين كان كفار

ج ٢٠ ، ص : ١٨٩

قريش يعذبونهم على الإسلام ويؤذونهم بأشد أنواع الإيذاء ، كعمار بن ياسر وأمه سميّة وأبوه ياسر ، وعيّاش بن أبي ربيعة ، والوليد بن الوليد ، وسلمة بن هشام.

ويظهر أن التعرض للأذى باق في أمة محمد صلّى اللّه عليه وسلم ما دام هناك إسلام يمثل جوهر الحق ، وعقيدة صحيحة تتحدى تيارات الإلحاد والكفر والعلمانية وأوضار الوثنية في كل أنحاء الأرض ، وما دام قرآن مجيد يحافظ على وجود المسلمين ، ويتلى في كل مكان. ولن تفلح قوى الشر في إخفات صوت الإسلام ، ودفن صرح التدين ، وتصفية جند الإيمان باللّه عز وجل ، قال ابن عطية : وهذه الآية ، وإن كانت نزلت بهذا السبب أو ما في معناه من الأقوال ، فهي باقية في أمة محمد صلّى اللّه عليه وسلم ، موجود حكمها بقية الدهر لأن الفتنة من اللّه تعالى باقية في ثغور المسلمين بالأسر ونكاية العدو وغير ذلك.

(١٩٢/٢٠)

و ليس الافتتان والإيذاء بدعا بين المسلمين ، وإنما هو سنة اللّه الدائمة في خلقه في الماضي والحاضر والمستقبل ، لذا قال تعالى تسلية لهم : وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا ، وَلَيَعْلَمَنَّ الْكاذِبِينَ أي وتاللّه لقد امتحنا واختبرنا المؤمنين السابقين ، بل والأنبياء القدامى بأنواع عديدة من الشدة والمشقة والضرر ، كما قال تعالى : وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ ، فَما وَهَنُوا لِما أَصابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَما ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكانُوا ، وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ [آل عمران ٣/ ١٤٦].

والهدف من الاختبار أن يعلم اللّه علم ظهور وانكشاف ، أي يظهر الذين صدقوا في دعوى الإيمان ، ممن هو كاذب في قوله ودعواه ، وسيجازي كل واحد بما قدّم. واللّه يعلم سلفا ما كان وما يكون وما لم يكن ، ولو كان كيف يكون ، بإجماع أهل السنة والجماعة ، لذا قال ابن عباس في مثل قوله تعالى : إِلَّا لِنَعْلَمَ : إلا لنرى لأن الرؤية تتعلق بالموجود ، والعلم أعم من الرؤية ، فإنه يتعلق بالمعدوم والموجود.

ج ٢٠ ، ص : ١٩٠

و يلاحظ أنه تعالى قال في حق المؤمنين : الَّذِينَ صَدَقُوا بصيغة الفعل ، أي وجد منهم الصدق ، وقال في حق الكافرين : الْكاذِبِينَ بصيغة اسم الفاعل الدالة على الثبات والدوام. هذا فضلا عن أن الاختلاف في اللفظ أدل على الفصاحة.

و

قد ورد في السنة الصحيحة أخبار ونماذج من تعذيب المؤمنين قبل الإسلام ، روى البخاري وأبو داود والنسائي عن خبّاب بن الأرتّ قال : « شكونا إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم ، وهو متوسّد بردة له في ظل الكعبة ، فقلنا له : ألا تستنصر لنا ؟ ألا تدعو لنا ؟ فقال :

قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل ، فيحفر له في الأرض ، فيجعل فيها ، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه ، فيجعل نصفين ، ويمشط بأمشاط الحديد لحمه وعظمه ، فما يصرفه ذلك عن دينه ، واللّه ليتمّنّ هذا الأمر ، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ، لا يخاف إلا اللّه ، والذئب على غنمه ، ولكنكم تستعجلون » .

و

روى ابن ماجه عن أبي سعيد الخدري قال : « دخلت على النبي صلّى اللّه عليه وسلم ، وهو يوعك ، فوضعت يدي عليه ، فوجدت حرّه بين يدي فوق اللحاف ، فقلت : يا رسول اللّه ما أشدّها عليك!! قال : إنا كذلك يضعّف لنا البلاء ، ويضعّف لنا الأجر ، قلت : يا رسول اللّه ، أي الناس أشد بلاء ؟

قال :

الأنبياء ، قلت : ثم من ؟ قال : ثم الصالحون أن كان أحدهم ليبتلى بالفقر حتى ما يجد إلا العباءة يحوبها « ١ » ، وأن كان أحدهم ليفرح بالبلاء ، كما يفرح أحدكم بالرخاء » .

والخلاصة : أن الحياة ميدان كفاح وجهاد وشقاء وعناء ، وكلما عظمت

---

(١) وفي الجامع الصغير للسيوطي : « يجوبها » أي يخرقها ويقطعها ، وهو أولى.

ج ٢٠ ، ص : ١٩١

المسؤولية عظم قدر المسؤول ، وكلما أهملت المسؤولية أو التبعة أهمل المسؤول ، فالتكليف دليل التكريم ، وهو رمز الشخصية وإثبات الذات ، ولا طعم للحياة دون عمل وتكليف لأن لذة الحياة ومتعتها أن يعمل الإنسان لغاية وهدف معين ، وإلا كان الأمر عبثا موقعا في السأم والحيرة ، فالحمد للّه على التكليف ، والشكر له على الابتلاء والاختبار ، ليتميز العامل من العابث ، والملتزم المتقن من المتسيب الذي لا يبالي بشي ء.

(١٩٤/٢٠)

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئاتِ أَنْ يَسْبِقُونا ؟ ساءَ ما يَحْكُمُونَ أي بل أظن الذين يقترفون المعاصي أن يفوتونا فلا نجازيهم ؟ لن يفلتوا من عذابنا ، بئس ما يظنون ، وبئس الحكم ما حكموا بأن يعصوا ويخالفوا أمر اللّه ، ولا يعاقبون ، إنه حكم مغلوط سيء رديء ، يتنافى مع مقتضى العقل والشرع والعدل.

قال ابن عباس : يريد الوليد بن المغيرة ، وأبا جهل والأسود ، والعاص بن هشام ، وعتبة والوليد بن عتبة ، وعقبة بن أبي معيط ، وحنظلة بن أبي سفيان ، والعاص بن وائل.

وبعد بيان أن من ترك التكليف عذّب ، بيّن سبحانه أن من آمن بالآخرة وعمل لها ، يجد ثواب عمله فقال :

مَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ اللَّهِ ، فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ أي من كان يتوقع الخير ويطمع ويأمل في ثواب اللّه الجزيل في الدار الآخرة ، ويعمل صالحا ، فإن اللّه سيحقق له رجاءه ، ويوفيه عملا كاملا غير منقوص ، فإن وقت البعث والحياة الثانية بالحشر كائن لا محالة ، واللّه سميع الدعاء وجميع أقوال عباده لا يخفى عليه منهم شيء ، عليم بصير بكل الكائنات ، يعلم عقائدهم وأعمالهم ، ويجازي كل واحد بما عمل. وهذا دليل على تأكد حصول الوعد

ج ٢٠ ، ص : ١٩٢

و الوعيد ، وحث على المبادرة بالعمل الصالح الذي يصدق الرجاء ويحقق الأمل ويكتسب به القربة عند اللّه والزلفى.

وأجل اللّه : يمكن أن يكون المراد به الموت ، ويمكن أن يكون هو الحياة الثانية بعد الحشر.

وقوله : مَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ شرط وجزاء ، والمراد وعد المطيع بما يعده من الثواب ، فمن كان يرجو لقاء اللّه ، فإن أجل اللّه لآت بثوابه ، يثاب على طاعته عنده ، ولا شك أن من لا يرجوه لا يكون أجل اللّه آتيا على وجه يثاب هو.

لكن نفع التكليف للمكلف لا للّه تعالى :

وَ مَنْ جاهَدَ فَإِنَّما يُجاهِدُ لِنَفْسِهِ ، إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعالَمِينَ أي ومن جاهد نفسه وهواه ، فأدى ما أمر اللّه به وانتهى عما نهى عنه ، فإن ثمرة جهاده تعود له ، ونفع عمله لنفسه لا لغيره ، كما قال تعالى : مَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِنَفْسِهِ [فصلت ٤١/ ٤٦] ، إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ [الإسراء ١٧/ ٧] فإن اللّه غني عن أفعال عباده وجميع خلقه من الإنس والجن.

ونوع جزاء المطيع هو :

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ ، وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كانُوا يَعْمَلُونَ أي إنه تعالى مع غناه عن الخلائق جميعهم ، فإنه يجازي أحسن الجزاء الذين آمنوا باللّه ورسوله وعملوا صالح الأعمال ، بأداء الفرائض وفعل الخيرات ، من مواساة البائسين وإغاثة المظلومين ، ودعم أمتهم بالنفس والنفيس ، وأحسن الجزاء : هو أنه يكفر عنهم أسوأ الذي عملوا ، ويجزيهم أجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون ، فيقبل القليل من الحسنات ، ويثيب على الواحد

ج ٢٠ ، ص : ١٩٣

منها بعشر أمثالها إلى سبع مائة ضعف ، ويجزي على السيئة بمثلها أو يعفو ويصفح كما قال تعالى : إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقالَ ذَرَّةٍ ، وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضاعِفْها ، وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً [النساء ٤/ ٤٠].

فقه الحياة أو الأحكام :

يستنبط من الآيات ما يأتي :

١- الدنيا دار ابتلاء واختبار وتكليف بالشاق من الأعمال ، فلا يكفي مجرد إعلان الإيمان باللّه تعالى ورسوله ، بل لا بدّ من الابتلاء بأنواع المصائب ، وألوان الطاعات لأن المقصد الأسمى من العبادة محبة اللّه ، كما

ورد في الخبر الصحيح الذي رواه البخاري عن أبي هريرة : « و ما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبّه »

(١٩٦/٢٠)

فإذا قال الإنسان : آمنت باللّه بلسانه ، فقد ادعى محبة اللّه في الجنان ، فاحتاج إلى شهود تصدقه ، وأداء الطاعات والقربات ، واجتناب المحظورات شهود عيان للتصديق.

ويكون الابتلاء سبيلا للرقي من أول الدرجات إلى أعلى الدرجات ، كما قال تعالى : وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجاتٍ [المجادلة ٥٨/ ١١] وقال سبحانه : فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجاهِدِينَ بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقاعِدِينَ دَرَجَةً [النساء ٤/ ٩٥].

٢- الابتلاء سنة اللّه في خلقه ، وعادته في عباده ، فقد ابتلى اللّه الماضين كإبراهيم الخليل ألقي في النار ، وكيحيى الحصور الذي قتل ، وكقوم نشروا بالمناشير في دين اللّه ، فلم يرجعوا عنه ، كما تقدم بيانه ، وابتلي بنو إسرائيل بفرعون وقومه ، كما ابتلوا بقارون ، وأصابهم الجهد الشديد ، وابتلي المؤمنون بعيسى بمن كذبه وأعرض عنه ، وهمّ بقتله ، وهم اليهود وحكام عصره.

٣- الهدف من الابتلاء إظهار صدق الصادقين في إيمانهم وتبيّنه في واقع الأمر ، وكشف كذب الكاذبين الذين يدّعون الإيمان باللّه ، وهم كافرون به.

ج ٢٠ ، ص : ١٩٤

٤- لن يفلت الكافرون والمجرمون والعصاة من العقاب ، فإن ظنوا الإفلات ، فبئس الحكم حكمهم.

٥- لا بدّ من أن يجازي المحسن بإحسانه يوم القيامة.

(١٩٧/٢٠)

٦- هذه الحقائق الثلاث المتقدمة وهي اختبار المؤمن بالفتن ، وعقاب العاصي على العمل ، وجزاء المحسن الذي يطمع في لقاء ربه ، حاصلة لا شك فيها ، ولكن من جاهد في الدين ، وصبر على قتال الكفار ، وأعمال الطاعات ، فإنما يسعى لنفسه ، ويكون ثواب ذلك كله له ، ولا يرجع إلى اللّه شيء من النفع ، ومن أهمل جهاد نفسه ، ولم يؤد طاعة ربه ، ولم يتجنب الحرام ، فإنما يسيء لنفسه : مَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِنَفْسِهِ ، وَمَنْ أَساءَ فَعَلَيْها [فصلت ٤١/ ٤٦] إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ ، وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَها [الإسراء ١٧/ ٧].

واللّه غني عن أعمال عباده ، لا تنفعه طاعة ، ولا تضره معصية.

٧- إن نوع جزاء العمل الصالح لا مثيل له في الدنيا عند أحد من الخلائق ، فإن اللّه تعالى يغطي السيئات بالمغفرة ، ويضاعف الحسنات وثواب الطاعات ، ولا يهمل شيئا منها مهما قلّ ، وإنما يقدره على أحسن وجه وأكمله ، ويجازي الذين صدقوا باللّه ورسوله وعملوا الصالحات بأحسن أعمالهم.

٨- الآيات في الجملة تعرّف بحقائق الدنيا ، فهي قائمة على الابتلاء والاختبار ، وتشحذ العزائم لزرع العمل الصالح في الدنيا ، وتؤكد أن يوم الجزاء قريب الحصول ، لإقامة العدل بين المحسن والمسيء ، وتبين أن العمل الصالح خير للإنسان نفسه لا لغيره ، واللّه غني عن العالمين.

٩- دلت آية وَمَنْ جاهَدَ فَإِنَّما يُجاهِدُ لِنَفْسِهِ ، إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعالَمِينَ على وجوب إكثار العبد من العمل الصالح وإتقانه له لأن من علم أن اللّه يراه

ج ٢٠ ، ص : ١٩٥

و يبصره يحسن العمل ويتقنه ، وإذا علم أن نفعه له ، ومقدّر بقدر عمله ، يكثر منه.

(١٩٨/٢٠)

١٠- الجزاء على العمل بحكم الوعد لا بالاستحقاق. وتدل الآية المتقدمة على أن رعاية الأصلح لا يجب على اللّه لأنه ليس هناك سلطان أعلى من اللّه يوجب شيئا عليه ، والعبد أدنى منه ، وتدل أيضا على أن اللّه تعالى ليس في مكان معين ، وليس على العرش على الخصوص ، لأن العرش من مخلوقات اللّه ، واللّه غني عنهم.

١١- في هذه الآية أيضا بشارة وإنذار ، أما الإنذار فلأن اللّه إذا كان غنيا عن العالمين ، فلو أهلك عباده فلا شيء عليه لغناه عنهم ، وهذا يوجب الخوف العظيم ، وأما البشارة فلأنه إذا كان غنيا ، فلو أعطى جميع ما خلقه لعبد من عباده ، لا شيء عليه لاستغنائه عنه ، وهذا يوجب الرجاء التام.

١٢- قوله تعالى : وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ يدل على أن الأعمال مغايرة للإيمان لأن العطف يفيد التغاير بين المعطوف والمعطوف عليه.

والإيمان : التصديق باللّه ورسله وملائكته وكتبه واليوم الآخر ، وبالقضاء والقدر خيره وشره. والعمل الصالح : كل ما أمر اللّه به ، فيصير صالحا بأمره ، ولو نهى عنه لما كان صالحا ، ولا بقاء للعمل الصالح إلا إذا كان لوجه اللّه الباقي حتى يبقى ، وما لا يكون لوجهه لا يبقى ، لا بنفسه لأنه عرض زائل ، ولا بالعامل لأنه ميت هالك ، ولا بالمعمول له لأن غير اللّه فان ، فالعمل الصالح : هو الذي أتى به المكلف مخلصا للّه.

والنية : شرط في الصالحات من الأعمال ، وهي قصد الإيقاع للّه. والعمل الصالح : لا يرتفع إلا بالكلم الطيب وهو الإيمان ، فالعمل من غير المؤمن لا يقبل.

و قد ذكر اللّه في الآية نوعين من أعمال العبد : الإيمان والعمل الصالح ، وذكر في مقابلتهما من أفعال اللّه أمرين : تكفير السيئات وهو في مقابلة الإيمان ، والجزاء بالأحسن وهو في مقابلة العمل الصالح.

وهذا كما قال الرازي يقتضي أمورا ثلاثة :

(١٩٩/٢٠)

الأول- المؤمن لا يخلد في النار لأنه بإيمانه تكفر سيئاته ، فلا يخلد في النار.

الثاني- الجزاء الأحسن المذكور هنا غير الجنة لأن المؤمن بإيمانه يدخل الجنة ، ولا يبعد أن يكون الجزاء الأحسن هو رؤية اللّه عز وجل.

الثالث- الإيمان يستر قبح الذنوب في الدنيا ، فيستر اللّه عيوبه في الأخرى ، والعمل الصالح يحسّن حالة صاحبه في الدنيا ، فيجزى الجزاء الأحسن في العقبى ، والإيمان لا يبطله العصيان ، بل هو يغلب المعاصي ويسترها ، ويحمل صاحبها على الندم « ١ » .

١٣- أجمل اللّه حال المسيء بقوله : أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئاتِ .. إشارة إلى التعذيب ، وحال المحسن بقوله : وَمَنْ جاهَدَ فَإِنَّما يُجاهِدُ لِنَفْسِهِ ثم فصل حال المحسن بآية : وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ .. ليكون ذلك إشارة إلى أن رحمته أتم من غضبه ، وفضله أعم من عدله.

---

(١) تفسير الرازي : ٢٥/ ٣٤.

صلابة المكلفين ومظاهر فتنة المؤمنين وتهديد الكافرين والمنافقين [سورة العنكبوت (٢٩) : الآيات ٨ الى ١٣]

(٢٠٠/٢٠)

وَ وَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ حُسْناً وَإِنْ جاهَداكَ لِتُشْرِكَ بِي ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُما إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٨) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ (٩) وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِما فِي صُدُورِ الْعالَمِينَ (١٠) وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنافِقِينَ (١١) وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنا وَلْنَحْمِلْ خَطاياكُمْ وَما هُمْ بِحامِلِينَ مِنْ خَطاياهُمْ مِنْ

شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ (١٢)
وَ لَيَحْمِلُنَّ أَثْقالَهُمْ وَأَثْقالاً مَعَ أَثْقالِهِمْ وَلَيُسْئَلُنَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ عَمَّا كانُوا يَفْتَرُونَ (١٣)
الإعراب :
وَلْنَحْمِلْ خَطاياكُمْ فيه حذف الجار والمجرور ، أي ولنحمل خطاياكم عنكم.
البلاغة :
فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذابِ اللَّهِ تشبيه مرسل مجمل ، حذف منه وجه الشبه ، فهو مجمل.
وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقالَهُمْ استعارة ، شبه الذنوب بالأثقال لأنها تثقل الإنسان معنويا.
ج ٢٠ ، ص : ١٩٨
المفردات اللغوية :

وَ وَصَّيْنَا الْإِنْسانَ أمرنا ، وصى بمعنى أمر معنى وتصرفا. حُسْناً أي بأن يفعل معهم حسنا ، أي فعلا ذا حسن بأن يبرهما ، أو هو الحسن نفسه مبالغة ، كأنه في ذاته حسن لفرط حسنه ، وقرئ : حسنا وإحسانا. ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ أي ما ليس لك بإشراكه علم ، أو ما ليس لك بألوهيته علم ، أي معلوم ، كأنه قال : لتشرك بي شيئا لا يصح أن يكون إلها ولا يستقيم ، عبر عن نفي الألوهية بنفي العلم بها إشعارا بأن ما لا يعلم صحته لا يجوز اتباعه. فَلا تُطِعْهُما في الإشراك إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق. إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ مرجع من آمن منكم ومن أشرك ، فأجازيكم حق الجزاء. فَأُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ فأجازيكم به.
لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ في جملتهم ، وهم الأنبياء والأولياء ، بأن نحشرهم معهم. فَإِذا أُوذِيَ فِي اللَّهِ أي بأن عذبهم الكفرة على الإيمان. فِتْنَةَ النَّاسِ أذاهم له في الصرف عن الإيمان. كَعَذابِ اللَّهِ في صرف المؤمنين عن الكفر ، فيطيعهم فينافق. وَلَئِنْ جاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ اللام لام القسم ، ومجيء النصر بالفتح للمؤمنين والغنيمة. لَيَقُولُنَّ حذفت منه نون الرفع : ليقولونن لتوالي النونات ، وحذفت الواو : ضمير الجمع لالتقاء الساكنين. إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ في الدين والإيمان ، فأشركونا في الغنيمة. أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ أي بعالم. بِما فِي صُدُورِ الْعالَمِينَ أي بما في قلوبهم من الإخلاص والنفاق ؟ بلى.

وَ لَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا صدقوا بقلوبهم. وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنافِقِينَ الذين آمنوا بألسنتهم ولم تؤمن قلوبهم ، فيجازي الفريقين ، واللام في الفعلين : لام قسم. اتَّبِعُوا سَبِيلَنا طريقنا الذي نسلكه في ديننا. وَلْنَحْمِلْ خَطاياكُمْ أي عنكم في اتباعنا ، إن كانت لكم خطايا ، والأمر بمعنى الخبر. مِنْ خَطاياهُمْ مِنْ شَيْءٍ من الأولى : للتبيين ، والثانية : مزيدة ، والتقدير : وما هم بحاملين شيئا من خطاياهم. أَثْقالَهُمْ أوزارهم أو ذنوبهم التي اقترفتها أنفسهم. وَأَثْقالًا مَعَ أَثْقالِهِمْ أي ذنوبا أخرى معها لما تسببوا له بالإضلال وحمل الآخرين على المعاصي ، من غير أن ينقص من أثقال من تبعهم شي ء. وَلَيُسْئَلُنَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ سؤال تقريع وتبكيت. عَمَّا كانُوا يَفْتَرُونَ من الأباطيل التي أضلوا بها.

سبب النزول :

نزول الآية (٨) :

وَوَصَّيْنَا الْإِنْسانَ : روى مسلم وأحمد والترمذي وأبو داود والنسائي عن سعد بن أبي وقاص قال : قالت أم سعد : أليس قد أمر اللّه بالبر ؟ واللّه لا أطعم

ج ٢٠ ، ص : ١٩٩

طعاما ، ولا أشرب شرابا حتى أموت أو تكفر ، فنزلت : وَوَصَّيْنَا الْإِنْسانَ.

و توضيح ذلك في رواية الترمذي : أن الآية نزلت في سعد بن أبي وقّاص وأمه حمنة بنت أبي سفيان لما أسلم ، وكان من السابقين الأولين ، وكان بارّا بأمّه ، قالت له : ما هذا الدين الذي أحدثت ؟ واللّه لا آكل ولا أشرب حتى ترجع إلى ما كنت عليه أو أموت ، فتتعيّر بذلك أبد الدهر ، يقال : يا قاتل أمه ، ثم إنها مكثت يوما وليلة ، لم تأكل ولم تشرب ولم تستظل ، فأصبحت وقد جهدت ، ثم مكثت يوما آخر وليلة لم تأكل ولم تشرب ، فجاء سعد إليها وقال : يا أماه ، لو كانت لك مائة نفس ، فخرجت نفسا نفسا ، ما تركت ديني ، فكلي إن شئت ، وإن شئت فلا تأكلي ، فلما أيست منه أكلت وشربت ، فأنزل اللّه هذه الآية ، آمرا بالبر بالوالدين والإحسان إليهما ، وعدم طاعتهما في الشرك به.

وقال ابن عباس في آية وَإِنْ جاهَداكَ لِتُشْرِكَ بِي : نزلت في عيّاش بن أبي ربيعة أخي أبي جهل لأمه ، وقد فعلت أمه مثل ذلك. وعنه أيضا : نزلت في جميع الأمة إذ لا يصبر على بلاء اللّه إلا صدّيق.

نزول الآية (١٠) :

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ : آمَنَّا بِاللَّهِ : نزلت في المنافقين. قال مجاهد :

نزلت في أناس كانوا يؤمنون بألسنتهم ، فإذا أصابهم بلاء من اللّه ومصيبة في أنفسهم افتتنوا.

وقال الضحاك : نزلت في أناس من المنافقين بمكة كانوا يؤمنون ، فإذا أوذوا رجعوا إلى الشرك.

وقال ابن عباس : نزلت في المؤمنين الذين أخرجهم المشركون عن الدين فارتدّوا ، والذين نزلت فيهم : إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظالِمِي أَنْفُسِهِمْ

ج ٢٠ ، ص : ٢٠٠

الآية « ١ » [النساء ٤/ ٩٧]. وقيل : نزلت في عياش بن أبي ربيعة أسلم وهاجر ، ثم أوذي وضرب فارتد ، وكان عذبه أبو جهل والحارث ، وكانا أخوين لأمه ، ثم عاش بعد ذلك بدهر وحسن إسلامه.

نزول الآية (١)(٢) :

(٢٠٤/٢٠)

وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا قال مجاهد : إن الآية نزلت في كفار قريش قالوا لمن آمن منهم : لا نبعث نحن ولا أنتم ، فاتبعونا ، فإن كان عليكم إثم فعلينا.

المناسبة :

بعد أن بيّن اللّه تعالى حسن التكاليف وثواب الآتي بها تحريضا للمكلف على الطاعة ، ذكر أن الإتيان بها واجب ولو كان ذلك بمخالفة الوالدين اللذين يجب الإحسان إليهما والطاعة ، فلا يكون ذلك مانعا من الإيمان ورفض الشرك ومقاومة معصية اللّه تعالى.

ثم ذكر أن العامل بالصالحات يدخله اللّه في زمرة الأنبياء والأولياء.

وبعد أن أبان اللّه تعالى حال صنفين من المكلفين : المؤمن حسن الاعتقاد والعمل ، والكافر المجاهر بكفره وعناده في قوله : فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكاذِبِينَ أردف ذلك ببيان حال الصنف الثالث وهم المنافقون بقوله :

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ : آمَنَّا بِاللَّهِ.

ثم ذكر اللّه تعالى محاولات الكفار في فتنة المؤمنين عن دينهم ، ودعوتهم بالرفق واللين إلى الشرك ، ومساومتهم واستعدادهم تحمل تبعات ذنوب المؤمنين إن كانت.

---

(١) أسباب النزول للواحدي : ١٩٦.

ج ٢٠ ، ص : ٢٠١

التفسير والبيان :

تشتمل الآيات على موضوعات ثلاثة : التمسك بالتوحيد ولو بمخالفة أمر الأبوين رغم الأمر بالإحسان إليهما ، وأقسام المكلفين الثلاثة ، وبعض مظاهر الفتنة عن الدين.

الموضوع الأول :

وَوَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ حُسْناً ، وَإِنْ جاهَداكَ لِتُشْرِكَ بِي ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ، فَلا تُطِعْهُما ، إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ ، فَأُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ أي لقد أمرنا العباد بالإحسان إلى الوالدين ببرهما قولا وفعلا لأنهما سبب وجوده ، كما قال تعالى :

وَ قَضى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً ، إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُما أَوْ كِلاهُما ، فَلا تَقُلْ لَهُما أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُما ، وَقُلْ لَهُما قَوْلًا كَرِيماً ، وَاخْفِضْ لَهُما جَناحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ ، وَقُلْ : رَبِّ ارْحَمْهُما كَما رَبَّيانِي صَغِيراً [الإسراء ١٧/ ٢٣- ٢٤]. ونكّر كلمة حُسْناً

و مع هذه الوصية ب

ى أن متابعتهم في الكفر لا تجوز.

والسبب مرجعكم جميعا إلى يوم القيامة ، المؤمن والكافر ، والبار بوالديه والعاق لهما ، فأجازيكم على أعمالكم ، المحسن بإحسانه وصبره على دينه ، والمسيء بإساءته ، لذا قال محرضا على الصلاح والإيمان :

ج ٢٠ ، ص : ٢٠٢

وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ أي وإن الذين صدقوا باللّه ورسوله ، وعملوا ما أمرهم به ربهم ، فأصلحوا نفوسهم ، وأدوا فرائضهم ، لنحشرنهم في زمرة الصالحين : الأنبياء والأولياء ، لا في زمرة الوالدين المشركين ، وإن كانا أقرب الناس إليه في الدنيا ، فإن المرء إنما يحشر يوم القيامة مع من أحب حبا دينيا.

والسبب في إعادة الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ بيان حال الهادي هنا بعد بيان حال المهتدي قبل ذلك بدليل أنه قال أولا : لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ ثم قال ثانيا هنا : لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ والصالحون هم الهداة لأنه مرتبة الأنبياء ، ولهذا قال كثير من الأنبياء : أَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ كما أنه تعالى ذكر أولا حال الضال بقوله : وَلَيَعْلَمَنَّ الْكاذِبِينَ ثم هدد المضل بقوله :

إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ فصار البيان المتقدم لقسمين من المكلفين : المهتدي والضال ، والبيان المتأخر لقسمين آخرين هما : الهادي والمضل « ١ » .

الموضوع الثاني :

حال المنافقين وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ : آمَنَّا بِاللَّهِ ، فَإِذا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذابِ اللَّهِ أي ويوجد فريق من الناس ، هم قوم من المكذبين المنافقين الذين يقولون بألسنتهم : صدقنا بوجود اللّه ووحدانيته ، ولكن لم يثبت الإيمان في قلوبهم ، بدليل أنه إذا نزلت بهم محنة وفتنة في الدنيا ، فآذاهم المشركون لأجل إيمانهم باللّه ، اعتقدوا أن هذا من نقمة اللّه بهم ، فارتدوا عن الإسلام ، وكان ذلك صارفا لهم عن الإيمان ، كما أن عذاب اللّه صارف المؤمنين عن الكفر.

وهذا كقوله تعالى : وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلى حَرْفٍ ، فَإِنْ أَصابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ ، وَإِنْ أَصابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلى وَجْهِهِ ، خَسِرَ الدُّنْيا وَالْآخِرَةَ ، ذلِكَ هُوَ الْخُسْرانُ الْمُبِينُ [الحج ٢٢/ ١١].

---

(١) تفسير الرازي : ٢٥/ ٣٦.

و هذا دليل على أن التخلي عن الإيمان سهل على المنافق لأنه لم يخالط الإيمان شغاف قلبه ، وإنما كان مجرد ترداد على اللسان ، لمصالح دنيوية ، فإذا تعرض لأدنى أنواع الأذى ، ترك اللّه بنفسه. أما المؤمن الصادق الإيمان فلا يتزحزح عن إيمانه القلبي مهما تعرض لأنواع الأذى ، فإن أكره على الردة أمكنه مجاراة المكره باللسان ، مع اطمئنان قلبه بالإيمان ، فلا يترك اللّه بحال.

قال الزجاج : ينبغي للمؤمن أن يصبر على الأذى في اللّه.

روى الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه عن أنس قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم : « لقد أوذيت في اللّه وما يؤذى أحد ، ولقد أخفت في اللّه ، وما يخاف أحد ، ولقد أتت علي ثالثة ، وما لي ولبلال طعام يأكله ذو كبد إلا ما وارى إبط بلال » .

ثم تحدث اللّه تعالى عن انتهازية المنافقين ونفعيتهم فقال :

وَ لَئِنْ جاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ : إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ، أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِما فِي صُدُورِ الْعالَمِينَ أي ولئن تحقق نصر قريب من ربك يا محمد بالفتح والغنيمة لقال هؤلاء المنافقون : إنا كنا معكم ردءا وإخوانا لكم في الدين ، نناصركم على الأعداء ، كما أخبر تعالى عنهم في آية أخرى : الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ ، فَإِنْ كانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قالُوا : أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ ؟ وَإِنْ كانَ لِلْكافِرِينَ نَصِيبٌ قالُوا : أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ ، وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ؟ [النساء ٤/ ١٤١].

ثم رد اللّه عليهم وكشف أمرهم متوعدا مبينا لهم أنه لا تخفى عليه أوضاعهم فقال : أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِما فِي صُدُورِ الْعالَمِينَ أي أوليس اللّه بأعلم بما في قلوبهم وما تكنه ضمائرهم من الإيمان والنفاق ،

وإن أظهروا لكم الموافقة على الإيمان ؟ بلى ، إن اللّه عالم بكل شيء ، لا تخفى عليه خافية ، يعلم السر وأخفى ، فيعلم المؤمن الحق والمنافق الكاذب.

ثم ذكر اللّه تعالى أنهم معرّضون للاختبار فقال :

ج ٢٠ ، ص : ٢٠٤

وَ لَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنافِقِينَ أي وليختبرن الناس بالسراء والضراء ، ليتميز المؤمنون من المنافقين ، فيعرف من يطيع اللّه في كل حال ، ومن يعصيه وقت الشدة ، كما قال تعالى : وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ ، وَنَبْلُوَا أَخْبارَكُمْ [محمد ٤٧/ ٣١] وقال سبحانه بعد وقعة أحد التي كانت محك اختبار وامتحان : ما كانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلى ما أَنْتُمْ عَلَيْهِ ، حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ [آل عمران ٣/ ١٧٩].

(٢٠٨/٢٠)

و يلاحظ أنه تعالى حكم هنا على ما في القلب ، فيعلم إيمان المؤمن وهو التصديق ، ونفاق المنافق وهو صدقه في قوله باللسان : اللّه واحد ، وأما فيما سبق فقال : وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا ليميز بين المؤمن القائل بأن اللّه واحد ، وبين الكافر الكاذب في قوله : اللّه أكثر من واحد ، فكان هناك قسمان : صادق وكاذب. وهنا قسم واحد وهو صادق.

الموضوع الثالث :

محاولات فتنة المسلمين عن دينهم : وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا : اتَّبِعُوا سَبِيلَنا وَلْنَحْمِلْ خَطاياكُمْ أي وقال كفار قريش لمن آمن منهم واتبع الهدى بعد بيان أحوال الناس الثلاثة : المؤمن والكافر والمنافق : ارجعوا عن دينكم إلى ديننا واتبعوا سبيلنا ، وأما آثامكم إن كانت لكم آثام ووجد حساب فعلينا وفي رقابنا ، كما يقول القائل الجاهل : افعل هذا وخطيئتك في رقبتي. وهذه محاولة فتنة وإغراء للمسلمين على ترك دينهم بالرفق واللين. وقوله : وَلْنَحْمِلْ صيغة أمر من الشخص لنفسه ، ولكن يراد بها الخبر ، والمعنى شرط وجزاء ، أي إن اتبعتمونا حملنا خطاياكم ، كما يقول الواحد : ليكن منك العطاء وليكن مني الدعاء ، فليس هو في الحقيقة أمر طلب.

فرد اللّه عليهم تكذيبا لهم :

ج ٢٠ ، ص : ٢٠٥

وَ ما هُمْ بِحامِلِينَ مِنْ خَطاياهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ أي وإنهم لا يتحملون شيئا من ذنوبهم وأوزارهم ، وإنهم لكاذبون فيما قالوه : إنهم يحملون عنهم الخطايا ، فهم لا يحملون شيئا لأنه لا يحمل أحد وزر أحد ، كما قال تعالى :

وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلى حِمْلِها لا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ ، وَلَوْ كانَ ذا قُرْبى [فاطر ٣٥/ ١٨] وقال سبحانه : وَلا يَسْئَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً ، يُبَصَّرُونَهُمْ [المعارج ٧٠/ ١٠- ١١] وقال جل وعز : وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى [الأنعام ٦/ ١٦٤].

(٢٠٩/٢٠)

ثم أخبر اللّه تعالى عن عاقبة هذا القول ، فقال :

وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقالَهُمْ وَأَثْقالًا مَعَ أَثْقالِهِمْ ، وَلَيُسْئَلُنَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ عَمَّا كانُوا يَفْتَرُونَ أي إن دعاة الكفر والضلال هؤلاء ليحملن يوم القيامة أوزار أنفسهم وأوزار غيرهم الذين أضلوهم من الناس ، من غير أن ينقص من أوزار أتباعهم شيئا ، كما قال تعالى : لِيَحْمِلُوا أَوْزارَهُمْ كامِلَةً يَوْمَ الْقِيامَةِ ، وَمِنْ أَوْزارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ [النحل ١٦/ ٢٥] وكما

جاء في الحديث الصحيح : « من دعا إلى هدى ، كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه إلى يوم القيامة ، من غير أن ينقص من أجورهم شيئا ، ومن دعا إلى ضلالة ، كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه من غير أن ينقص من آثامهم شيئا » « ١ »

و

في الصحيح أيضا : « ما قتلت نفس ظلما إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها لأنه أول من سنّ القتل »

و

ثبت أيضا : « من سنّ سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها من غير أن ينقص من وزره شي ء » . « ٢ » .

وسوف يسألون يوم القيامة سؤال توبيخ وتقريع عما كانوا يكذبون

---

(١) رواه ابن ماجه في السنن عن أنس بن مالك. [.....]

(٢) أخرجه مسلم وغيره عن أبي هريرة.

ج ٢٠ ، ص : ٢٠٦

و يختلفون من البهتان في الدنيا ، كما

جاء في الحديث الصحيح : « إن الرجل ليأتي يوم القيامة بحسنات أمثال الجبال ، وقد ظلم هذا ، وأخذ مال هذا ، وأخذ من عرض هذا ، فيأخذ هذا من حسناته ، وهذا من حسناته ، فإذا لم تبق له حسنة ، أخذ من سيئاتهم ، فطرح عليه » .

فقه الحياة أو الأحكام :

يستدل بالآيات على ما يأتي :

(٢١٠/٢٠)

١- بالرغم من وجوب أو افتراض بر الأبوين اللذين كانا سببا في وجود الإنسان وتربيته والإنفاق عليه ، فإنه لا يجوز إطاعتهما فيما يدعوان الولد إلى الشرك والعصيان لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ، فلا تجوز متابعتهم في الكفر.

لذا كان قوله تعالى : إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ ... وعيدا في طاعة الوالدين في معنى الكفر ، وأنه تعالى سيجازي كل إنسان بما عمل ، المحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءته.

٢- كرر اللّه تعالى : وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ لتحريك النفوس إلى نيل مراتب الصالحين : وهم الذين بلغوا نهاية الصلاح وأبعد غاياته ، من الأنبياء والأولياء ، وإذا وصل المؤمن إلى تلك المرتبة حظي بالثمرة المرجوة وهي الجنة.

٣- ينكشف أمر النفاق وشأن المنافقين وقت المحنة ، فإذا قال المنافق :

آمنت باللّه ، ولم يؤمن قلبه ، ثم تعرض لأذى أو مصاب ، ارتد على عقبيه ، وترك الإسلام إلى الكفر ، جاعلا أذى الناس في الدنيا كعذاب اللّه في الآخرة ، وما أفسد هذا القياس ؟ ! وتراه يجزع من ذلك كما يجزع من عذاب اللّه ، ولا يصبر على الأذية في اللّه تعالى.

ج ٢٠ ، ص : ٢٠٧

و إذا تحقق نصر للمؤمنين بالفتح والغنائم طالب هؤلاء المرتدون بنصيب منها قائلين : إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أيها المؤمنون ، وهم كاذبون.

فرد اللّه عليهم : اللّه أعلم بما في صدورهم منهم بأنفسهم ، فلا يخفى عليه نفاقهم ، واللّه يعلم المؤمن من المنافق ، ويجازي كلّا بما يستحق.

٤- حاول الكفار فتنة المسلمين عن دينهم بالرفق واللين والإغراء ، ليبينوا أنهم بكثرتهم على الحق ، والمسلمون على باطل ، وأظهروا استعدادهم لتحمل أوزار المسلمين يوم القيامة ، وهم في الحقيقة والواقع كاذبون فيما يقولون ، فإنهم لا يتحملون شيئا من أوزار غيرهم.

(٢١١/٢٠)

و إنما على العكس يتحملون الإثم مضاعفا : إثم أنفسهم وإثم إضلالهم غيرهم ، فهم دعاة كفر وضلالة ، ويسألون يوم القيامة عن افترائهم بأن لا خطيئة في الكفر ، وأن لا حشر ، وأنهم يتحملون خطايا غيرهم ، ويقال لهم حينئذ : لم افتريتم ذلك ؟ !

قصة نوح عليه السلام مع قومه [سورة العنكبوت (٢٩) : الآيات ١٤ الى ١٥]

وَلَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عاماً فَأَخَذَهُمُ الطُّوفانُ وَهُمْ ظالِمُونَ (١٤) فَأَنْجَيْناهُ وَأَصْحابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْناها آيَةً لِلْعالَمِينَ (١٥)

الإعراب :

فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عاماً : أَلْفَ سَنَةٍ : منصوب على الظرف ، وخَمْسِينَ عاماً : منصوب على الاستثناء.

ج ٢٠ ، ص : ٢٠٨

البلاغة :

أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عاماً تفنن في التعبير ، فلم يقل : إلا خمسين سنة ، تحاشيا للتكرار المنافي للبلاغة ، إلا إذا كان لغرض كالتفخيم أو التهويل ، مثل : الْقارِعَةُ مَا الْقارِعَةُ [القارعة ١٠١/ ١- ٢].

المفردات اللغوية :

فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عاماً أي مكث في قومه يدعوهم إلى توحيد اللّه تسع مائة وخمسين سنة ، فكذبوه. روي أنه بعث على رأس أربعين ، ودعا قومه تسع مائة وخمسين ، وعاش بعد الطوفان ستين. قال البيضاوي : ولعل اختيار هذه العبارة للدلالة على كمال العدد ، فإن تسع مائة وخمسين قد يطلق على ما يقرب منه.

(٢١٢/٢٠)

فَأَخَذَهُمُ الطُّوفانُ طوفان الماء ، والطوفان في الأصل : اسم لما طاف بكثرة من سيل أو ظلام أو موت أو غيرها. وَهُمْ ظالِمُونَ بالكفر. فَأَنْجَيْناهُ أي نوحا. وَأَصْحابَ السَّفِينَةِ أي الذين أركبهم معه من أولاده وأتباعه المؤمنين ، وكانوا ثمانين ، أو ثمانية وسبعين ، نصفهم ذكور ونصفهم إناث. آيَةً عبرة. لِلْعالَمِينَ لمن بعدهم من الناس إن عصوا رسله ، يتعظون ويستدلون بها.

المناسبة :

بعد بيان التكليف وأقسام المكلفين ووعد المؤمن الصادق بالثواب العظيم ، ووعيد الكافر والمنافق بالعذاب الأليم ، ذكر اللّه تعالى قصة أطول الأنبياء عمرا نوح عليه السلام الذي دعا قومه إلى توحيد اللّه ألف سنة إلا خمسين عاما ، فلم يؤمن معه إلا قليل.

ثم أتبع ذلك بذكر قصص أنبياء آخرين : إبراهيم ، ولوط وهود وشعيب وصالح ، لبيان عاقبة اللّه في المكذبين من المكلفين ، وتسلية لرسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم وتثبيته على ما يكابده من أذى الكفرة ، وعبرة لمن يعتبر ، وتأكيدا لما في بداية السورة الكريمة من أن الابتلاء سنة الحياة.

ج ٢٠ ، ص : ٢٠٩

التفسير والبيان :

وَلَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ ، فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عاماً أي تاللّه لقد أرسلنا نوحا عليه السلام ، وهو أول نبي أرسل ، إلى قومه الذين كانوا كفارا ، لا يؤمنون باللّه ، وإنما يعبدون الأصنام ، فاستمر مقيما معهم ألف سنة إلا خمسين عاما ، يدعوهم إلى توحيد اللّه وعبادته ، والإيمان بيوم القيامة ، فلم يؤمنوا بدعوته ، وكذبوه ، وما آمن معه منهم إلا قليل : قالَ : رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهاراً ، فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعائِي إِلَّا فِراراً [نوح ٧١/ ٥- ٦] قالَ نُوحٌ : رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَساراً [نوح ٧١/ ٢١].

فَأَخَذَهُمُ الطُّوفانُ ، وَهُمْ ظالِمُونَ أي بعد هذه المدة الطويلة ، لم يفدهم البلاغ والإنذار ، فأغرقهم اللّه بالطوفان ، وهم ظالمون أنفسهم بالكفر ، فأنت يا محمد لا تأسف على من كفر بك من قومك ، ولا تحزن عليهم ، فإن الأمر بيد اللّه تعالى ، وإليه ترجع الأمور.

فإن نوحا لبث ألف سنة تقريبا في دعوة قومه إلى الإيمان باللّه ، ولم يؤمن من قومه إلا قليل ، وصبر وما ضجر ، فأنت أولى بالصبر. وكان الكفار يغترون بتأخير العذاب عنهم أكثر ، ومع ذلك ما نجوا ، فلا يغتروا فإن العذاب يلحقهم.

فَأَنْجَيْناهُ وَأَصْحابَ السَّفِينَةِ ، وَجَعَلْناها آيَةً لِلْعالَمِينَ أي فأنجينا نوحا والذين آمنوا معه بركوب السفينة التي أوحى اللّه إليه كيفية صنعها ، ثم سارت في البحر ، حتى استقرت على جبل الجودي ، وغرق الكفار جميعا بطوفان الماء ، وجعل ربك سفينة نوح تذكرة لنعمة اللّه على خلقه كيف أنجاهم من الطوفان ، وعبرة وعظة يتأمل بها من يأتي بعدهم من الناس ، كيف يعاقب اللّه من عصوا رسله وكذبوا بأنبيائه ، كما قال تعالى : إِنَّا لَمَّا طَغَى الْماءُ حَمَلْناكُمْ فِي الْجارِيَةِ ،

ج ٢٠ ، ص : ٢١٠

لِنَجْعَلَها لَكُمْ تَذْكِرَةً ، وَتَعِيَها أُذُنٌ واعِيَةٌ

[الحاقة ٦٩/ ١١- ١٢]. والضمير في قوله :

جَعَلْناها عائد إلى السفينة المذكورة.

فقه الحياة أو الأحكام :

هذا عرض موجز جدا لقصة نوح مع قومه ، فصلت في مواضع أخرى كثيرة من القرآن الكريم. وقد دلت مع هذا الإيجاز على العظة المؤثرة منها ، فإنها ذكرت تسلية للنبي صلّى اللّه عليه وسلم لما أسف على إعراض قومه عن دعوته ، فأخبره اللّه تعالى بأن الأنبياء قبلك ابتلوا بالكفار من أقوامهم فصبروا ، وخص نوحا بالذكر أولا لأنه أول رسول أرسل إلى الأرض ، بعد أن امتلأت كفرا ، وأنه لم يلق نبي من قومه ما لقي نوح عليه السلام ، كما تقدم في سورة هود.

(٢١٤/٢٠)

روى ابن عساكر عن أنس أن النبي صلّى اللّه عليه وسلم قال : « أول نبي أرسل نوح » .

واختلف في عمره ، قال الحسن البصري : لما أتى ملك الموت نوحا ليقبض روحه قال : يا نوح كم عشت في الدنيا ؟ قال : ثلاث مائة قبل أن أبعث ، وألف سنة إلا خمسين عاما في قومي ، وثلاث مائة سنة وخمسين سنة بعد الطوفان ، قال ملك الموت : فكيف وجدت الدنيا ؟ قال نوح : مثل دار لها بابان ، دخلت من هذا ، وخرجت من هذا.

وبالرغم من هذه المدة الطويلة في الدعوة إلى توحيد اللّه ، لم يؤمن برسالة نوح عليه السلام إلا فئة قليلة.

وظهر في القصة بنحو ملحوظ مصير المؤمنين ومصير الكافرين ، أما الأوائل فقد نجاهم اللّه في السفينة التي كان نوح قد صنعها ، فركبوا فيها ونجوا من الغرق ، وأما الكافرون المكذبون فقد أغرقهم اللّه جميعا ، وجعل اللّه السفينة أو العقوبة أو النجاة عبرة لمن اعتبر وعظة لمن اتعظ.

ج ٢٠ ، ص : ٢١١

قصة إبراهيم عليه السلام مع قومه

- ١- الأدلة على الأصول الثلاثة : الوحدانية والرسالة والبعث [سورة العنكبوت (٢٩) : الآيات ١٦ الى ٢٣]

(٢١٥/٢٠)

وَ إِبْراهِيمَ إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١٦) إِنَّما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثاناً وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (١٧) وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَما عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ

الْبَلاغُ الْمُبِينُ (١٨) أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (١٩) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠) يُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ (٢(١) وَما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّماءِ وَما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ (٢(٢) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ اللَّهِ وَلِقائِهِ أُولئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَأُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (٢٣)

الإعراب :

وَإِبْراهِيمَ منصوب عطفا على نوح في آية : وَلَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ أي وأرسلنا إبراهيم ، أو عطفا على هاء فَأَنْجَيْناهُ أو منصوب بتقدير فعل ، تقديره : واذكر إبراهيم. والعامل في إِذْ قالَ هو العامل في إِبْراهِيمَ فهو على الأول ظرف لأرسلنا.

ج ٢٠ ، ص : ٢١٢

إِفْكاً إما مصدر نحو كذب ولعب وإما صفة لفعل أي خلقا ذا إفك وباطل.

لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً يحتمل كونه مصدرا بمعنى لا يستطيعون أن يرزقوكم ، وأن يراد المرزوق ، وتنكيره للتعميم.

البلاغة :

يُبْدِئُ ويُعِيدُهُ يُعَذِّبُ ويَرْحَمُ بين كلّ طباق.

إِنَّما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثاناً إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أسلوب الإطناب للتشنيع عليهم في عبادة الأوثان.

يَسِيرٌ وسِيرُوا فِي الْأَرْضِ بينهما جناس ناقص غير تام.

ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ التصريح باسم اللّه هنا بعد إضماره في قوله بَدَأَ الْخَلْقَ للدلالة على أن المقصود بيان الإعادة ، وأن من عرف بالقدرة على الإبداء يحكم له بالقدرة على الإعادة ، لأنها أهون.

المفردات اللغوية :

وَاتَّقُوهُ خافوا عقابه. ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ مما أنتم عليه من عبادة الأصنام. إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ الخير من غيره وتميزون ما هو شر مما هو خير. أَوْثاناً جمع وثن : وهو ما اتخذ من جص أو حجر ، والصنم : ما كان من معدن كنحاس وغيره ، والتمثال : ما هو مثال لكائن حي. وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً تقولون كذبا في تسميتها آلهة ، وادعاء شفاعتها عند اللّه ، وأنها شركاء للّه ، وهو دليل على شرّ ما هم عليه من حيث إنه زور وباطل لا حقيقة له.

إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً لا يقدرون أن يرزقوكم ، وهو دليل ثان على شر ما هم عليه ، من حيث إن تلك الأوثان لا تجدي شيئا. فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ اطلبوه منه ، فإنه المالك له. وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ متوسلين إلى مطالبكم بعبادته ، شاكرين له نعمه. إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ أي مستعدين للقائه بالعبادة والشكر ، فإنكم راجعون إليه.

وَإِنْ تُكَذِّبُوا أي تكذبوني. فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ أي من قبلي من الرسل ، فلم يضرهم تكذيبهم ، وإنما ضرّ أنفسهم ، حيث تسبب لما حلّ بهم من العذاب ، فكذا تكذيبكم.

إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ إلا البلاغ البيّن الذي زال معه الشك.

(٢١٧/٢٠)

و هذه الآية : وَإِنْ تُكَذِّبُوا وما بعدها إلى قوله : فَما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ من جملة قصة إبراهيم ، ويحتمل أن يكون المذكور اعتراضا ، بذكر شأن النبي صلّى اللّه عليه وسلم وقريش وهدم مذهبهم

ج ٢٠ ، ص : ٢١٣

و الوعيد على سوء صنيعهم ، وهو توسط بين طرفي قصة ، من حيث إن مساقها لتسلية الرسول صلّى اللّه عليه وسلم والترويح عنه بأن أباه خليل اللّه مني بنحو ما مني به من شرك القوم وتكذيبهم ، وتشبيه حاله فيهم بحال إبراهيم في قومه.

يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ أي يخلقهم ابتداء من مادة وغيرها. ثُمَّ يُعِيدُهُ يعيد الخلق بعد الموت كما بدأهم. إِنَّ ذلِكَ المذكور من الخلق والإعادة. عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ إذ لا يفتقر في فعله إلى شيء ، فكيف ينكرون الثاني ؟ كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ لمن كان قبلكم وأماتهم ، على اختلاف الأجناس والأحوال. ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ هي إعادة الخلق مرة أخرى ، بعد النشأة الأولى التي هي الإبداء ، فإنه والإعادة نشأتان ، من حيث إن كلّا منهما اختراع وإخراج من العدم ، فالنشأة : الخلق والإيجاد. إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ومنه البدء والإعادة لأن قدرته لذاته وكل الممكنات بالنسبة إلى ذاته سواء ، فيقدر على النشأة الأخرى ، كما قدر على النشأة الأولى.

يُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ تعذيبه. وَيَرْحَمُ مَنْ يَشاءُ رحمته. وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ أي تردّون بعد موتكم. بِمُعْجِزِينَ ربكم عن إدراككم ، أي جاعلين اللّه عاجزا. فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّماءِ أي لا تفوتونه أينما كنتم ، سواء بالتواري في الأرض أو التحصن في السماء. مِنْ دُونِ اللَّهِ غيره. مِنْ وَلِيٍّ قريب ، أو متولي الأمر يمنعكم منه. وَلا نَصِيرٍ معين ، ينصركم من عذابه.

(٢١٨/٢٠)

وَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ اللَّهِ بدلائل وحدانيته أو بكتبه. وَلِقائِهِ بالبعث. يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي أي ييأسون منها يوم القيامة ، فعبر عنه بالماضي لتحقق الوقوع والمبالغة فيه.

وَأُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ مؤلم بكفرهم.

المناسبة :

بعد الانتهاء من بيان قصة نوح أبي البشر الثاني عليه السلام ، أورد اللّه تعالى قصة إبراهيم عليه السلام أبي الأنبياء وإمام الحنفاء ، بقصد عرض نماذج من سيرة الأنبياء للنبي صلّى اللّه عليه وسلم ليتأسى بهم ، ويسلو عما أهمه من إعراض قومه عن دعوته ، كما بيّنت.

ج ٢٠ ، ص : ٢١٤

التفسير والبيان :

وَإِبْراهِيمَ إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ : اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ، ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ أي واذكر أيها الرسول لقومك حين دعا إبراهيم عليه السلام قومه إلى عبادة اللّه وحده لا شريك له ، والإخلاص له في السر والعلن ، واتقاء عذابه بأداء فرائضه ، واجتناب معاصيه ، فإذا فعلتم ذلك حصل لكم الخير في الدنيا والآخرة ، واندفع عنكم الشر فيهما ، إن كنتم ذوي إدراك وعلم ، تميزون به بين الخير والشر ، وتفعلون ما ينفعكم.

فقوله : اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ معناه : أخلصوا له العبادة والخوف. ثم أقام إبراهيم لقومه دليلين على التوحيد وعلى فساد ما هم عليه ، وشر ما يسيرون عليه ، فقال :

الدليل الأول :

إِنَّما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثاناً وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً أي إن الأصنام التي تعبدونها من غير اللّه ، ما هي إلا أشياء مصنوعة من جص أو حجر ، صنعتموها بأيديكم ، فلا تضر ولا تنفع ، وإنما اختلقتم أنتم لها أسماء ، فسميتموها آلهة ، وادعيتم أنها تشفع لكم عند ربكم ، وإنما هي مخلوقة أمثالكم ، فأنتم تكذبون حين تصفونها بأنها آلهة.

فقوله : وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً معناه : تختلقون الإفك أي الكذب والباطل ، بتسمية الأوثان آلهة ، وشركاء للّه ، أو شفعاء إليه.

الدليل الثاني :

إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً أي إن تلك الأوثان التي تعبدونها من غير اللّه ، لا تقدر أن تجلب لكم رزقا أبدا قليلا أو كثيرا ، فكيف تعبدونها ؟ !

ج ٢٠ ، ص : ٢١٥

فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ ، وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ أي فاطلبوا الرزق من عند اللّه ، لا من عند غيره من الأوثان ونحوها ، فإن غيره لا يملك شيئا ، تدركوا ما تطلبون ، فكلوا من رزق اللّه ، واعبدوه وحده ، واشكروا له على ما أنعم به عليكم من مزيد الفضل ، واستعدوا للقائه ، فإليه ترجعون يوم القيامة ، وتسألون عما أنتم عليه من عبادة غيره ، ويجازي كل عامل بعمله.

ثم أقام إبراهيم دليلا على الرسالة ، فقال :

وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ، وَما عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ أي وإن تكذبوني في رسالتي ، فلا تضروني أبدا ، فإن الأمم السابقة كذبوا رسلهم ، ولكن بلغكم ما حلّ بهم من العذاب والنكال في مخالفة الرسل ، فأضروا أنفسهم بذلك ، وما المطلوب الواجب على الرسول إلا أن يبلغكم ما أمره اللّه تعالى به من الرسالة ، فاحرصوا لأنفسكم أن تكونوا من السعداء ، وعلى اللّه الحساب.

فقوله : وَما عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ معناه : لا واجب عليه إلا التبليغ ، وهو ذكر المسائل والأوامر المنزلة من عند اللّه ، والإبانة : وهي إقامة البرهان على ما جاء به.

(٢٢٠/٢٠)

و بعد بيان الأصل الأول والاستدلال عليه وهو التوحيد ، والإشارة إلى الأصل الثاني وهو الرسالة ، شرع في بيان الأصل الثالث وهو الحشر أو البعث والنشور ، وهذه الأصول الثلاثة متلازمة لا يكاد ينفصل ذكر بعضها عن بعض في البيان الإلهي ، فقال :

أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ، إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ أي أولم يشاهدوا كيفية بدء الخلق ؟ فإن اللّه خلق أنفسهم بعد أن لم يكونوا شيئا

ج ٢٠ ، ص : ٢١٦

مذكورا ، وزودهم بالقدرة الجسدية وبطاقات المعرفة من السمع والبصر والفؤاد ، فإن الذي بدأ هذا قادر على إعادته ، فإنه سهل عليه ، يسير لديه ، بل هو أهون عليه ، كما قال سبحانه : وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ، وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ [الروم ٣٠/ ٢٧].

وبعد إثبات المعاد بالدليل المشاهد في الأنفس ، لفت اللّه تعالى النظر إلى آياته في الآفاق ، فقال : قُلْ : سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ، فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ، ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ، إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ قل يا محمد : سيروا أيها المنكرون للبعث في الأرض ، فانظروا كيف بدأ اللّه خلق السموات وما فيها من الكواكب النيّرة الثوابت والسيارات ، والأرضين وما فيها من جبال ومهاد ووديان وبراري وقفار ، وأشجار وأثمار ، وأنهار وبحار ، كل ذلك دال على حدوثها في أنفسها ، وعلى وجود صانعها الفاعل

المختار. وذلك كقوله تعالى : سَنُرِيهِمْ آياتِنا فِي الْآفاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ ، حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ [فصلت ٤١/ ٥٣] وقوله سبحانه :

أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخالِقُونَ ؟ أَمْ خَلَقُوا السَّماواتِ وَالْأَرْضَ ، بَلْ لا يُوقِنُونَ [الطور ٥٢/ ٣٥- ٣٦].

(٢٢١/٢٠)

هذا هو المتفرد بالخلق ، وذلك دليل على وجوده ، ومن قدر على الخلق قدر على الإعادة وإنشاء النشأة الآخرة يوم القيامة ، فإن اللّه قدير على كل شيء ، ومنه البدء والإعادة. وقد عبر أولا بلفظ المستقبل كَيْفَ يُبْدِئُ للدلالة على القدرة المستمرة ، ثم عبّر بلفظ الماضي كَيْفَ بَدَأَ للعلم بما بدأ. ويلاحظ أنه تعالى قال أولا أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ بصيغة الاستفهام ، ثم قال : سِيرُوا فِي الْأَرْضِ بصيغة الأمر لأن الآية الأولى إشارة إلى العلم الحدسي : وهو الحاصل من غير طلب ، والآية الثانية إشارة إلى

ج ٢٠ ، ص : ٢١٧

العلم الفكري الحاصل بالتفكير والطلب ، أي سيّروا فكركم في الأرض ، وأجيلوا ذهنكم في الحوادث الخارجة عن أنفسكم ، لتعلموا بدء الخلق.

ثم ذكر اللّه تعالى ما يكون بعد الإعادة فقال :

يُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشاءُ ، وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ أي إن اللّه هو الحاكم المتصرف يعذب من يشاء منكم من الكفار والعصاة ، ويرحم من يشاء من عباده فضلا منه ورحمة ، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ، لا معقّب لحكمه ، ولا يسأل عما يفعل ، فله الخلق والأمر ، وإليه تردون يوم القيامة بعد الموت مهما طال الأمد ، فيحاسب الخلائق على ما قدموا ، وحسابه حق وعدل لأنه المالك الذي لا يظلم مثقال ذرة ، كما

جاء في الحديث الذي رواه أهل السّنن : « إن اللّه لو عذّب أهل سماواته ، وأهل أرضه ، لعذبهم وهو غير ظالم لهم » .

وتقديم التعذيب في البيان على الرحمة ، مع أن الرحمة سابقة كما

في الحديث الذي رواه مسلم عن أبي هريرة : « سبقت رحمتي غضبي »

لأنه ذكر الكفار أولا ، ولمناسبته التهديد السابق بقوله : وَإِنْ تُكَذِّبُوا ... وإعادة وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ بعد قوله :

(٢٢٢/٢٠)

إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ للدلالة على أن التعذيب والرحمة وإن تأخرا ، فلا بدّ من حصولهما ، فإن إليه الإياب وعليه الحساب ، وعنده يدخر الثواب والعقاب.

وَما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّماءِ ، وَما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ أي وما أنتم أيها البشر بجاعلين اللّه عاجزا عن إدراككم في أرضه وسمائه ، فلا يعجزه أحد من أهل السموات والأرض ، ولا يقدر على الهرب من قضائه ، بل هو القاهر فوق عباده ، وليس لكم من غير اللّه ولي يلي أموركم ويحفظكم ويرعاكم ، ولا معين ناصر ينصركم ويمنعكم من عذابه إن عذبكم.

وبعد الإفاضة في بيان هذه الأدلة على المعاد ، والقدرة الإلهية الفائقة التصور ، والتوحيد ، هدد كل مخالف وتوعد كل كافر ، فقال :

ج ٢٠ ، ص : ٢١٨

وَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ اللَّهِ وَلِقائِهِ ، أُولئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي ، وَأُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ أي والذين جحدوا بآيات اللّه أي بدلائل وحدانيته وما أنزله على رسله من البراهين المرشدة إلى ذلك ، وكفروا بالمعاد ولقاء اللّه في الآخرة ، أولئك لا نصيب لهم من رحمة اللّه ، بسبب كفرهم ، ولهم عذاب مؤلم موجع شديد في الدنيا والآخرة ، كما قال : إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكافِرُونَ [يوسف ١٢/ ٨٧].

وتكرار أُولئِكَ في الآية للدلالة على أن كل واحد من اليأس والعذاب لا يوجد إلا في الكفار ، وقد أضاف اليأس إليهم بقوله : أُولئِكَ يَئِسُوا فلو طمعوا بالرحمة لأنزلها عليهم ، ثم إنه تعالى أضاف الرحمة لنفسه رَحْمَتِي لبيان عمومها لهم ولزومها له ، ولم يضف العذاب لنفسه لتخصيصه بالكفار.

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى ما يأتي :

١- كانت دعوة إبراهيم كدعوة جميع الأنبياء عليهم السلام إلى عبادة اللّه (أي إفراده بالعبادة) وتوحيده واتقاء عذابه بفعل أوامره وترك معاصيه.

وقوله تعالى : اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ إشارة إلى التوحيد لأن التوحيد إثبات الإله ونفي غيره ، فقوله : اعْبُدُوا اللَّهَ إثبات الإله ، وقوله : وَاتَّقُوهُ نفي الغير.

٢- إن الوثنيين يعبدون أصناما من صنع أيديهم ويختلقون الكذب بجعل تلك الأصنام شركاء للّه شفعاء عنده ، مع أنها لا تملك ضرّا ولا نفعا ، ولا تقدر على جلب الرزق لأحد ، إنما الرازق الذي يطلب منه الرزق هو اللّه وحده ، فيجب على العباد أن يسألوه وحده دون غيره لأن المعبود إنما يعبد لأحد أمور : إما لكونه مستحقا للعبادة بذاته ، وإما لكونه نافعا في الحال أو في المستقبل ، وإما

ج ٢٠ ، ص : ٢١٩

لكونه خائفا منه ، فقوله : إِنَّما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثاناً إشارة إلى أنها لا تستحق العبادة لذاتها ، وقوله : لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً إشارة إلى عدم المنفعة في الحال وفي المآل ، وقوله : إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ معناه اعبدوه لكونه مرجعا يتوقع الخير منه. وقوله : وَإِنْ تُكَذِّبُوا تهديد.

٣- اللّه تعالى هو بادئ الخلق ، خلق الإنسان والحيوان والنبات والثمار ، فتحيى ثم تفنى ، ثم يعيدها ، ويهلك الإنسان ، ثم يعيده إلى الحياة مرة أخرى يوم القيامة لأن القادر على الإبداء والإيجاد فهو القادر على الإعادة ، وذلك هيّن يسير على اللّه ، لأنه إذا أراد أمرا قال له : كُنْ فَيَكُونُ. وبإيراد آية أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ تكون الآيات دالة على الأصول الثلاثة :

التوحيد ، والرسالة بقوله : وَما عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ والحشر.

(٢٢٤/٢٠)

٤- إن آفاق الكون سمائه وأرضه خلقها اللّه تعالى ، وهو الذي يعيد الخلق مرة أخرى لأنه القادر على كل شيء ، وهذا يفيد كون الإعادة أمرا مقدورا ، وذلك كاف في إمكان الإعادة ، وهو تقرير لكون الأمر يسيرا على اللّه تعالى.

٥- اللّه سبحانه هو الحاكم المتصرف يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد ، لا معقّب لحكمه ، يعذّب من يشاء تعذيبه بعدله وحكمته وهو تعذيب أهل التكذيب ، ويرحم من يشاء رحمته بفضله ، وهو رحمة المؤمنين ، والجميع عائدون إليه ، محاسبون أمامه ، ولا يعجزه أحد في السماء والأرض. وهذا كله لتخويف العاصي وتفريح المؤمن.

٦- ليس لأحد سوى اللّه من ولي يتولى أمره حفظا وعناية ورعاية ، ولا من ناصر معين يعينه على التخلص من الشدائد.

٧- إن الذين كفروا بالقرآن ، أو بما أقامه اللّه من أدلة وأعلام على وجوده وتوحيده وقدرته لا نصيب لهم في الآخرة من رحمة اللّه تعالى ، فهم أيسوا من

ج ٢٠ ، ص : ٢٢٠

الرحمة ، وقد ذكّر الكفار باللّه هنا بعد بيان أصلي التوحيد والإعادة وتهديد من خالف.

٨- دلّ قوله : وَما عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ على أن تأخير البيان عن وقت الحاجة لا يجوز لأن الرسول إذا بلّغ شيئا ولم يبيّنه ، فإنه لم يأت بالبلاغ المبين ، فلا يكون آتيا بما عليه.

- ٢- جواب قوم إبراهيم له وإيمان لوط به وتعداد النعم عليه [سورة العنكبوت (٢٩) : الآيات ٢٤ الى ٢٧]

فَما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٢(٤) وَقالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثاناً مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً وَمَأْواكُمُ النَّارُ وَما لَكُمْ مِنْ ناصِرِينَ (٢٥) فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقالَ إِنِّي مُهاجِرٌ إِلى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٦) وَوَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتابَ وَآتَيْناهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (٢٧)

الإعراب :

إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ إِنَّمَا : كافة ومكفوفة ، وأَوْثاناً مفعول اتَّخَذْتُمْ واقتصر على مفعول واحد ، كقوله تعالى : إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنالُهُمْ. ومَوَدَّةَ مفعول لأجله ، أي إنما اتخذتم الأوثان للمودة فيما بينكم. ويجوز أن تكون (ما) في إِنَّمَا اسما موصولا بمعنى

ج ٢٠ ، ص : ٢٢١

الذي ، في موضع نصب لأنها اسم (إن) وصلته اتَّخَذْتُمْ والعائد محذوف تقديره : اتخذتموهم ، وهو المفعول الأول ل اتَّخَذْتُمْ والمفعول الثاني أَوْثاناً ومَوَدَّةَ مرفوع خبر (إن). ومن نون مَوَدَّةَ نصب بَيْنِكُمْ على الظرف ، والعامل فيه مَوَدَّةَ. وفِي الْحَياةِ الدُّنْيا ظرف للمودة أيضا. وجاز أن يتعلق بها ظرفان لاختلافهما لأن أحدهما ظرف مكان والآخر ظرف زمان.

وَ إِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ فِي الْآخِرَةِ جار ومجرور متعلق بمحذوف مقدر ، أي : وإنه صالح في الآخرة لمن الصالحين ، أو متعلق ب الصَّالِحِينَ على رأي بعضهم ، فإنه نزلها منزلة الألف واللام التي للتعريف ، لا بمعنى التي للذين.

البلاغة :

أَوْ حَرِّقُوهُ على طريقة أسلوب الإيجاز ، أي حرقوه في النار ، وكذا فَأَنْجاهُ اللَّهُ ..

أي ففعلوا فأنجاه اللّه من النار.

المفردات اللغوية :

جَوابَ قَوْمِهِ قوم إبراهيم له. إِلَّا أَنْ قالُوا كان ذلك قول بعضهم ، لكن لما قيل فيهم أو رضي به الباقون ، أسند إلى كلهم. حَرِّقُوهُ أحرقوه. فَأَنْجاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ أي فقذفوه في النار ، فأنجاه اللّه منها ، بأن جعلها عليه بردا وسلاما. إِنَّ فِي ذلِكَ في إنجائه منها.

لَآياتٍ هي حفظه من أذى النار ، وإخمادها مع عظمها في زمان يسير ، وإنشاء روض مكانها.
لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ يصدقون بتوحيد اللّه وقدرته لأنهم المنتفعون بها.
مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ أي لتتواددوا بينكم وتتواصلوا في اللقاء على عبادتها. يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ يتبرأ القادة من الأتباع. وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً أي يلعن الأتباع القادة. وَمَأْواكُمُ مصيركم جميعا. وَما لَكُمْ مِنْ ناصِرِينَ يخلصونكم منها.
فَآمَنَ لَهُ صدق بإبراهيم لُوطٌ هو ابن أخي إبراهيم واسمه هاران ، أو ابن أخته وأول من آمن به. وَقالَ إبراهيم. إِنِّي مُهاجِرٌ إِلى رَبِّي أي مهاجر من قومي إلى حيث أمرني ربي بالهجرة ، فهجر قومه وهاجر من سواد العراق إلى الشام فنزل فلسطين ، ونزل لوط سدوم.

(٢٢٧/٢٠)

الْعَزِيزُ في ملكه الذي يمنعني من أعدائي. الْحَكِيمُ في صنعه الذي لا يأمرني إلا بما فيه صلاحي.
إِسْحاقَ هو الابن الثاني لإبراهيم بعد إسماعيل. وَيَعْقُوبَ ابن إسحاق وحفيد إبراهيم فكان نافلة بعد أن أيس من الولادة من عجوز عقيم (عاقر). وَجَعَلْنا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ أي فكل الأنبياء بعد إبراهيم من ذريته.
وَالْكِتابَ يريد به الجنس ، ليتناول الكتب الأربعة ، وهي : التوراة والإنجيل والزبور والفرقان.
ج ٢٠ ، ص : ٢٢٢
أَجْرَهُ فِي الدُّنْيا الرزق الواسع ، والمنزل المريح ، والزوجة الصالحة ، والثناء الجميل بين أهل الأديان جميعا. لَمِنَ الصَّالِحِينَ أي في زمرة الكاملين في الصلاح. والصالح لغة : الباقي على ما ينبغي ، يقال : طعام صالح ، أي باق على حال حسنة.
التفسير والبيان :
بعد أن أقام إبراهيم عليه السلام لقومه الأدلة والبراهين على توحيد اللّه والرسالة والبعث أو الحشر ، وأمرهم بعبادة اللّه تعالى ، وندد بعبادة الأوثان ، لم يجدوا جوابا له على كفرهم وعنادهم ومكابرتهم إلا اللجوء إلى استعمال القوة ، كما هو شأن المحجوج المغلوب على أمره المعتمد على جاهه وقوة ملكه ، وهذا ما حكاه تعالى عنهم قائلا :
فَما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قالُوا : اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ ، فَأَنْجاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ ، إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ أي لم يجد قوم إبراهيم جوابا له على مطالبتهم بعبادة اللّه واتقاء عذابه إلا أن قال كبراؤهم ورؤساؤهم : اقتلوه ، أو أحرقوه بالنار تحريقا شديدا ، فأضرموا النار وألقوه فيها ، فأنجاه اللّه وسلمه منها ، وجعلها بردا وسلاما عليه ، لحفظه له وعصمته إياه. إن في ذلك الإنجاء لإبراهيم من النار لدلالات على وجود اللّه وقدرته لقوم يصدقون باللّه إذا ظهرت لهم الأدلة والحجج.

إنه مثل السوء ومدعاة العجب ، يدعوهم إبراهيم عليه السلام إلى الخير ، ويرشدهم إلى الحق والهدى ، فيلقى في النار للتخلص منه ، ولكن اللّه أكبر وأقدر من كيد البشر وقوتهم ، فإنه جعل النار المحرقة غير مؤثرة فيه ، وإنما صيّرها بردا وسلاما عليه.

وقد وصف اللّه في آيات أخرى هذا التقابل بين الفعلين ، فقال : قالُوا : ابْنُوا لَهُ بُنْياناً فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ ، فَأَرادُوا بِهِ كَيْداً ، فَجَعَلْناهُمُ الْأَسْفَلِينَ

ج ٢٠ ، ص : ٢٢٣

[الصافات ٣٧/ ٩٧- ٩٨] ، وقال سبحانه : قالُوا : حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فاعِلِينَ. قُلْنا : يا نارُ كُونِي بَرْداً وَسَلاماً عَلى إِبْراهِيمَ ، وَأَرادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْناهُمُ الْأَخْسَرِينَ [الأنبياء ٢١/ ٦٨- ٧٠].

ثم ذكر اللّه تعالى جواب إبراهيم لقومه بعد النجاة من النار :

وَقالَ : إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثاناً مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا أي قال إبراهيم لقومه مقرعا لهم ، وموبخا على سوء صنيعهم بعبادة الأوثان : إنما اتخذتم هذه الأوثان لتجتمعوا على عبادتها ، ولتتواددوا بينكم ، وتقووا الصداقة والألفة بين بعضكم بعضا في حياتكم الدنيا ، كاتفاق أهل المذاهب والأهواء على رابطة بينهم تكون سبب تجمعهم وتآلفهم ، ولكن تلك الأوثان لا تعقل ولا تنفع ولا تضر ، وإنما يكون اتخاذكم هذا لتحصيل المودة لكم في الدنيا فقط.

وستكون حالهم من التنافر والتباعد في الآخرة نقيض ذلك ، فقال تعالى :

ثُمَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ ، وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً ، وَمَأْواكُمُ النَّارُ ، وَما لَكُمْ مِنْ ناصِرِينَ أي ثم تنعكس هذه الحال يوم القيامة ، فتنقلب هذه الصداقة والمودة بغضا وحقدا وعداوة ، فيتبرأ القادة من الأتباع ، ويلعن الأتباع القادة ، كما قال تعالى : كُلَّما دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَها [الأعراف ٧/ ٣٨] ، وقال سبحانه : الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ [الزخرف ٤٣/ ٦٧] ثم يكون مصيركم إلى النار ، ولن تجدوا حينئذ ناصرا ينصركم ، ولا منقذا ينقذكم من عذاب اللّه تعالى.

هذا حال الكافرين ، أما المؤمنون فبخلاف ذلك ، يتصافون ويصفحون ، ويعفو بعضهم عن بعض ، كما ورد في بعض الأحاديث.

ثم ذكر تعالى أنه لم يؤمن بإبراهيم ولم يصدق بما رأى إلا لوط فقال : فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ ، وَقالَ : إِنِّي مُهاجِرٌ إِلى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ أي فلما نجا إبراهيم

ج ٢٠ ، ص : ٢٢٤

سليما من النار آمن به لوط ، وصدق بنبوته ، ولوط : هو ابن أخي إبراهيم ، وهو لوط بن هاران بن آزر ، ولم يؤمن به من قومه سواه وسارّة امرأة إبراهيم الخليل.

وقال إبراهيم : إني مهاجر من دياركم ، متجه إلى حيث أمرني ربي بالهجرة ، وقد هاجر من سواد العراق إلى حرّان ، ثم إلى فلسطين ونزل لوط بلدة سدوم.

وعلة الهجرة هي كما قال :

إن ربي هو العزيز في ملكه الغالب على أمره ، الذي يمنعني من أعدائي ، وينصرني عليهم ، الحكيم في تدبير شؤون خلقه ، فلا يأمر إلا بما فيه الصلاح.

فقوله : وَقالَ : إِنِّي مُهاجِرٌ يعود الضمير إلى إبراهيم لأنه المكني عنه بقوله : فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ أي من قومه.

ويحتمل عود الضمير إلى لُوطٌ لأنه أقرب المذكورين.

ثم عدّد تعالى نعمه على إبراهيم في الدنيا والآخرة لإخلاصه لربه ، فقال :

(٢٣٠/٢٠)

١- وَوَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ أي ووهبنا إلى إبراهيم بعد إسماعيل في حال الكبر إسحاق ، وكذا من نسله يعقوب نافلة حفيدا له ، كما قال تعالى :

فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَما يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، وَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ ، وَكُلًّا جَعَلْنا نَبِيًّا [مريم ١٩/ ٤٩] ، وقال سبحانه : وَوَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ نافِلَةً [الأنبياء ٢١/ ٧٢].

و

في الصحيحين : « إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام » .

٢- وَجَعَلْنا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتابَ أي وجعلنا في ذرية إبراهيم النبوة ، فكانت الأنبياء كلها بعد إبراهيم من ذريته ، ولم يوجد نبي بعده إلا وهو من سلالته ، فجميع أنبياء بني إسرائيل من سلالة يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ،

ج ٢٠ ، ص : ٢٢٥

حتى كان آخرهم عيسى بن مريم ، مبشرا بالنبي العربي الهاشمي خاتم الرسل على الإطلاق.

وآتيناه الكتاب ، فكانت التوراة منزلة على موسى ، والزبور على داود ، والإنجيل على عيسى ، والقرآن على محمد ، وكلهم من نسله.

٣- وَآتَيْناهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيا بكثرة الذرية والأموال والزوجة الصالحة والثناء الحسن ، فجميع أهل الأديان

يحبونه ويتولونه ، قال عكرمة : أهل الملل كلها تدعيه وتقول : هو منا.

٤- وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ أي وإنه يحشر في الآخرة في زمرة الكاملين في الصلاح الذين لهم الدرجات العلا.

وبهذا جمع اللّه تعالى له بين سعادة الدنيا وسعادة الآخرة.

فقه الحياة أو الأحكام :

يستدل بالآيات على ما يأتي :

١- أثبت إبراهيم الخليل عليه السلام لقومه أصول الدين الثلاثة : وهي وحدانية اللّه ، وصحة الرسالة أو النبوة ، والبعث والحشر ، وأقام البرهان الدامغ على ذلك ، فكان جوابهم النابع من تمكن الكفر والعناد والمكابرة هو : اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ ثم اتفقوا على تحريقه ، وهو قتل بالنار أشد نكاية وتعذيبا وتشفيا من القتل العادي.

٢- حشد قوم إبراهيم الجموع العظيمة ، وجمعوا الأحطاب الكبيرة ، ثم أضرموا فيها النار ، فارتفع لهبها إلى عنان السماء ، ولم توقد نار قط أعظم منها ، ثم عمدوا إلى إبراهيم ، فكتفوه وألقوه في كفة المنجنيق ، ثم قذفوه فيها ، فأنجاه اللّه وسلّمه ،

ج ٢٠ ، ص : ٢٢٦

و جعلها عليه بردا وسلاما ، كما قال تعالى : يا نارُ كُونِي بَرْداً وَسَلاماً عَلى إِبْراهِيمَ [الأنبياء ٢١/ ٦٩].

أما كيفية استبراد النار فهو أمر معجز ، والمعجز خارق للعادة ، واللّه قادر على كل شيء ، بسلب خاصية الحرارة عن النار.

لهذا وأمثاله جعله اللّه للناس إماما فإنه بذل نفسه للرحمن ، وجسده للنيران ، وسخا بولده للقربان ، وجعل ماله للضيفان ، فاجتمع على محبته جميع أهل الأديان.

٣- إن في إنجاء إبراهيم من النار العظيمة ، حتى لم تحرقه بعد ما ألقي فيها ، لآيات للمؤمنين باللّه ورسله. وجمع الآيات هنا لأن الإنجاء من النار ، وجعلها بردا وسلاما ، ولم يحترق بالنار إلا الحبل الذي أوثقوه به ، وغير ذلك ، مجموع آيات. وخص الآيات بالمؤمنين لأنه لا يصدق بذلك إلا المؤمنون ، وفيه بشارة للمؤمنين بأن اللّه يبرد عليهم النار يوم القيامة.

أما في قصة نوح فقال : وَجَعَلْناها آيَةً لِلْعالَمِينَ للدلالة على اتخاذ السفينة وقت الحاجة وصونها عن المهلكات ، فهي آية واحدة ، وجعلها للعالمين علامة ظاهرة لبقائها أعواما حتى مرّ عليها الناس ، ورأوها ، فعلم بها كل أحد ، وليس المؤمنين فقط.

٤- بالرغم من إلقاء إبراهيم في النار ، عاد إلى لوم الكفار وبيان فساد ما هم عليه وخطئه ، وتمسكهم بالتقليد الأعمى ، فقال : إنكم اتخذتم عبادة الأوثان لإيجاد نوع من التوادد والترابط والتواصل فيما بينكم ، كالتوافق الذي يحدث بين أهل مذهب معين.

غير أن تلك الروابط واهية غير موثقة ، فهي رابطة في الدنيا فقط ، ثم تنقطع وتتلاشى في عالم الآخرة ، فيقع التباغض والتلاعن والتعادي بينكم

ج ٢٠ ، ص : ٢٢٧

يوم القيامة ، فتتبرأ الأوثان من عبّادها ، والرؤساء من الأتباع ، ويلعن الأتباع رؤساءهم ، ويكون مأوى الجميع نار جهنم.

٥- ليست نار الآخرة كالنار التي أنجى اللّه منها إبراهيم ونصره ، فإن الكفار في النار ، وليس لهم شافع ولا ناصر دافع ، ينصرهم ويمنع عنهم عذاب اللّه تعالى.

٦- لوط عليه السلام أوّل من صدق إبراهيم عليه السلام حين رأى النار عليه بردا وسلاما ، وتلك معجزة. قال ابن إسحاق : آمن لوط بإبراهيم ، وكان ابن أخته ، وآمنت به سارّة ، وكانت بنت عمه.

٧- بعد أن بالغ إبراهيم في الإرشاد ولم يهتد قومه ، وحصل اليأس الكلي بعد وجود الآية الكبرى ، وهي نجاته من النار ، ولم يؤمنوا ، وجبت المهاجرة لأن الهادي إذا هدى قومه ولم ينتفعوا ، فبقاؤه فيهم عبث ولا جدوى فيه ، لذا هاجر من أرض بابل ونزل بفلسطين ، وهو ابن خمس وسبعين سنة ، ومعه ابن أخيه لوط بن هاران بن تارخ ، وامرأته سارّة. وهو أول من هاجر من أرض الكفر.

وكان عثمان بن عفان رضي اللّه عنه- كما روى البيهقي- أول من هاجر بأهله إلى الحبشة في الهجرة الأولى ، بعد لوط.

٨- أكرم اللّه تعالى إبراهيم الخليل بعد هجرته ، فمنّ عليه بالأولاد ، فوهب له إسحاق ولدا ، ويعقوب ولد ولد ، من بعد إسماعيل ، وجعل في ذريته النبوة ، والكتاب ، فلم يبعث اللّه نبيّا بعد إبراهيم إلا من صلبه ، وأنزل الكتب الأربعة المعروفة على أناس من ذريته ، فالتوراة أنزلت على موسى من ولد إبراهيم ، والإنجيل على عيسى من ولده ، والزبور على داود من ولد إسحاق بن إبراهيم ، والقرآن (أو الفرقان) على محمد صلّى اللّه عليه وسلم من نسل إسماعيل بن إبراهيم ، وآتاه أجره في الدنيا باجتماع أهل الملل عليه ، وجعله في الآخرة في زمرة الصالحين.

وكل هذا حثّ على الاقتداء بإبراهيم عليه السلام في الصبر على الدين الحق.

ج ٢٠ ، ص : ٢٢٨

قصة لوط عليه السلام مع قومه [سورة العنكبوت (٢٩) : الآيات ٢٨ الى ٣٥]

وَلُوطاً إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفاحِشَةَ ما سَبَقَكُمْ بِها مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعالَمِينَ (٢٨) أَإِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نادِيكُمُ الْمُنْكَرَ فَما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قالُوا ائْتِنا بِعَذابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٩) قالَ رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ (٣٠) وَلَمَّا جاءَتْ رُسُلُنا إِبْراهِيمَ بِالْبُشْرى قالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَها كانُوا ظالِمِينَ (٣(١) قالَ إِنَّ فِيها لُوطاً قالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيها لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كانَتْ مِنَ الْغابِرِينَ (٣٢)

(٢٣٤/٢٠)

وَ لَمَّا أَنْ جاءَتْ رُسُلُنا لُوطاً سِي ءَ بِهِمْ وَضاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَقالُوا لا تَخَفْ وَلا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلاَّ امْرَأَتَكَ كانَتْ مِنَ الْغابِرِينَ (٣(٣) إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلى أَهْلِ هذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزاً مِنَ السَّماءِ بِما كانُوا يَفْسُقُونَ (٣(٤) وَلَقَدْ تَرَكْنا مِنْها آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٣٥)

الإعراب :

وَلُوطاً إِذْ قالَ إما منصوب بالعطف على هاء فَأَنْجَيْناهُ أو عطفا على نوح في قوله تعالى : وَلَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً أي وأرسلنا لوطا ، أو منصوب بفعل مقدر ، أي واذكر لوطا ، وعامل إِذْ هو العامل في لوط والأولى عطفه على إِبْراهِيمَ.

إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ كاف مُنَجُّوكَ في موضع جرّ بالإضافة. وأَهْلَكَ منصوب بفعل مقدر ، أي وننجي أهلك.

ج ٢٠ ، ص : ٢٢٩

البلاغة :

إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفاحِشَةَ أَإِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجالَ تأكيد بعد مؤكدات ، وإطناب بتكرار فعل تأتون لتقبيح عملهم وتوبيخهم.

ائْتِنا بِعَذابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ استهزاء وسخرية ، وجواب الشرط محذوف دل عليه ما سبق ، أي إن كنت صادقا فائتنا به.

رِجْزاً مِنَ السَّماءِ التنكير لإفادة التهويل ، أي عذابا عظيما شديدا.

الْعالَمِينَ الصَّادِقِينَ ظالِمِينَ الْغابِرِينَ وكذا يَفْسُقُونَ يَعْقِلُونَ توافق الفواصل.

المفردات اللغوية :

وَ لُوطاً أي واذكر الْفاحِشَةَ الفعلة القبيحة التي تنفر منها النفوس الكريمة ، وهي إتيان أدبار الرجال. ما سَبَقَكُمْ بِها مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعالَمِينَ استئناف مقرر لفاحشتها من حيث إنها مما اشمأزت منه الطباع السليمة. الْعالَمِينَ الإنس والجن. وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ الطريق على المارة ، بالقتل وأخذ المال أو بالفاحشة ، حتى انقطعت الطرق. فِي نادِيكُمُ مجالسكم الخاصة أو متحدثكم. الْمُنْكَرَ الأمر المخالف للشرع ، المنفر للطبع السليم كاللواط وأنواع الفحش. إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ في استقباح الفاحشة وأن العذاب نازل بفاعليه.

انْصُرْنِي في إنزال العذاب. عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ العاصين بإتيان الرجال أو بابتداع الفاحشة ، فاستجاب اللّه دعاءه.

بِالْبُشْرى بالبشارة بإسحاق ويعقوب بعده. هذِهِ الْقَرْيَةِ هي سدوم ، قرية لوط.

ظالِمِينَ كافرين. قالُوا أي الملائكة الرسل. الْغابِرِينَ الباقين في العذاب. سِي ءَ بِهِمْ جاءته المساءة والغم بسببهم مخافة أن يقصدهم قومه بسوء. وَضاقَ بِهِمْ ذَرْعاً أي ضاق بشأنهم وتدبير أمرهم لأنهم حسان الوجوه في صورة أضياف ، فخاف عليهم قومه ، فأعلموه أنهم رسل ربه. وضاق ذرعه أي قصرت طاقته أو قدرته ، وضده : طال ذرعه وذراعه ، ورحب الذراع : إذا كان قادرا على الشيء لأن طويل الذراع ينال ما لا يناله قصير الذراع. رِجْزاً عذابا شديدا ، سمي بذلك ، لأنه يقلق المعذّب ، من قوله : ارتجز أو ارتجس أي اضطرب. بِما كانُوا يَفْسُقُونَ أي بسبب فسقهم. آيَةً بَيِّنَةً ظاهرة ، وهي آثار خرابها. لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ يتدبرون أو يستعملون عقولهم في الاستبصار.

ج ٢٠ ، ص : ٢٣٠

المناسبة :

بعد أن ذكر اللّه قصة إبراهيم ذكر قصة لوط عليهما السلام لأنه كان معاصرا له في زمن إبراهيم ، ولم يذكر في قصته هنا دعوته إلى التوحيد كسائر الأنبياء ، وإنما اقتصر على ما اختص به لوط وهو المنع من الفاحشة ، وذكر ذلك عنه في موضع آخر حيث قال : فَاتَّقُوا اللَّهَ [هود ١١/ ٧٨ ، الشعراء ٢٦/ ١٦٣] وَاتَّقُوا اللَّهَ [الحجر ١٥/ ٦٩] وكان قد أتى به إبراهيم وسبقه إليه. واختص لوط بالمنع من عمل قومه الفاحش ، فلما يئس من ردعهم وتطهرهم من فاحشتهم ، استنصر بربه ، فاستجاب له وأهلك قومه ، ونجاه مع من آمن به بسبب فحشهم وكفرهم باللّه وبرسوله وقطعهم الطرق.

التفسير والبيان :

وَلُوطاً إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ : إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفاحِشَةَ ما سَبَقَكُمْ بِها مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعالَمِينَ أي واذكر أيها الرسول لقومك للعبرة والعظة قصة نبي اللّه لوط عليه السلام حين أرسله اللّه إلى أهل قرية « سدوم » فأنكر عليهم صنيعهم وقبيح أعمالهم التي ابتدعوها ، وقال منكرا عليهم أو محذرا أو موبخا ومقرعا لهم : أتأتون الفعلة الفاحشة المتناهية في القبح شرعا وطبعا سليما ؟ ! ثم كرر الإنكار عليهم ووضح تلك الفاحشة فقال :

١- أَإِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجالَ ؟ أي تأتون الذكران بشهوة كإتيان النساء ، ما سبقكم أحد قبلكم من بني آدم إلى هذه الفعلة.

٢- وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ أي تقفون في طريق الناس ، وتتعرضون للمارة بقتلهم وأخذ أموالهم وفعل الفاحشة بهم.

٣- وَتَأْتُونَ فِي نادِيكُمُ الْمُنْكَرَ أي وتفعلون ما لا يليق من الأقوال

ج ٢٠ ، ص : ٢٣١

و الأفعال في مجالسكم الخاصة ، دون أن ينكر بعضكم على بعض شيئا من ذلك ، فهم ذوو أخلاق سوء. والنادي : المجلس.

(٢٣٧/٢٠)

روى الإمام أحمد والترمذي والطبراني والبيهقي وابن جرير وابن أبي حاتم عن أم هانئ بنت أبي طالب قالت : سألت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم عن قوله تعالى :

وَتَأْتُونَ فِي نادِيكُمُ الْمُنْكَرَ فقال : « يحذفون « ١ » أهل الطريق ، ويسخرون منهم ، وذلك المنكر الذي كانوا يأتونه » .

وروي عن ابن عباس قال : إن قوم لوط كانت فيهم ذنوب غير الفاحشة ، منها أنهم يتظالمون فيما بينهم ، ويشتم بعضهم بعضا ، ويتضارطون في مجالسهم ، ويخذفون ، ويلعبون بالنّرد والشّطرنج ، ويلبسون المصبغات. ويتناقرون بالديكة ، ويتناطحون بالكباش ، ويطرّفون أصابعهم بالحنّاء ، وتتشبه الرجال بلباس النساء ، والنساء بلباس الرجال ، ويضربون المكوس « ٢ » على كل عابر ، ومع هذا كله كانوا يشركون باللّه ، وهم أول من ظهر على أيديهم اللوطية والسّحاق.

وفسر مجاهد المنكر : بأنه الصفير ، ولعب الحمام ، والجلاهق « ٣ » والسؤال في المجلس ، وحل أزرار القباء.

فكان جوابهم :

فَما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قالُوا : ائْتِنا بِعَذابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ أي فما كان جوابهم بعد نهيهم عن الفاحشة وغيرها إلا قولهم بسبب كفرهم واستهزائهم وعنادهم : عجل علينا العذاب الذي توعدنا به إن كنت صادقا فيما تهددنا به. وهذا كان في بداية وعظه لهم ، فلما ألح عليهم في الإنكار قالوا كما

---

(١) الحذف أو الخذف : الرمي بالحصى.

(٢) رسوم المرور الظالمة.

(٣) كعلابط البندق الذي يرمى به.

جاء في آية أخرى : أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ ، إِنَّهُمْ أُناسٌ يَتَطَهَّرُونَ [الأعراف ٧/ ٨٢].

ولما يئس لوط من استجابة قومه طلب من اللّه النصرة عليهم فقال :

قالَ : رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ أي قال لوط داعيا : رب انصرني على هؤلاء القوم المفسدين في الأرض بابتداع الفاحشة.

ومن المعلوم أنه ما طلب نبي من الأنبياء هلاك قوم إلا إذا علم أن عدمهم خير من وجودهم ، كما قال نوح : إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبادَكَ ، وَلا يَلِدُوا إِلَّا فاجِراً كَفَّاراً [نوح ٧١/ ٢٧] أي لا مصلحة ولا خير يرتجى فيهم لا حالا ، ولا مآلا في المستقبل.

فاستجاب اللّه دعاءه ، وبعث ملائكة العذاب لنصرته :

وَلَمَّا جاءَتْ رُسُلُنا إِبْراهِيمَ بِالْبُشْرى ، قالُوا : إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هذِهِ الْقَرْيَةِ ، إِنَّ أَهْلَها كانُوا ظالِمِينَ أي بعث اللّه ملائكة ، فمروا على إبراهيم عليه السلام في هيئة أضياف ، فجاءهم بما ينبغي للأضياف ، فلما رأى أنه لا رغبة لهم في الطعام خاف منهم ، فشرعوا يؤانسونه ويبشرونه بولد صالح من امرأته « سارّة » وهو إسحاق ، ومن بعده يعقوب ، ثم أخبروه بأنهم أرسلوا لهلاك قوم لوط لأنهم قوم ظالمون أنفسهم بكفرهم وتكذيبهم رسولهم وتماديهم في الفساد والفحش.

فأخذ إبراهيم يدافع ، لعلهم يمهلونهم ، ولعل اللّه يهديهم ، وأشفق على ابن أخيه لوط ، فقال :

قالَ : إِنَّ فِيها لُوطاً ، قالُوا : نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيها ، لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ ، كانَتْ مِنَ الْغابِرِينَ أي قال إبراهيم مشفقا على لوط : إن في القرية لوطا ، وهو غير ظالم ، وهو رسول ، فقالت الملائكة الرسل : نحن أعلم منك بمن

ج ٢٠ ، ص : ٢٣٣

فيها من المؤمنين والكافرين ، وإنا لننجي لوطا وأهله وأتباعه المؤمنين به من الهلاك إلا امرأته ، فهي من الهالكين لأنها كانت تمالئ القوم على كفرهم وبغيهم وخبائثهم.

ثم قدموا على لوط فدخلوا عليه في صورة شبان حسان ، فلما رآهم ضاق بهم ، كما حكى تعالى :

وَ لَمَّا أَنْ جاءَتْ رُسُلُنا لُوطاً سِي ءَ بِهِمْ ، وَضاقَ بِهِمْ ذَرْعاً ، وَقالُوا : لا تَخَفْ وَلا تَحْزَنْ ، إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كانَتْ مِنَ الْغابِرِينَ أي ولما جاءت الملائكة الرسل إلى لوط على صورة بشر حسان الوجوه ، اغتم بأمرهم ، وخاف عليهم من قومه ، فقالوا له معرضين بحالهم : لا تخف علينا ، ولا تحزن بما نفعله بقومك الأخباث ، وإنا جئنا لتعذيبهم ، وإنا منجّوك وأتباعك المؤمنين من العذاب ، إلا امرأتك ، فإنها من الهالكين لتواطئها معهم على الفساد ، فكانت تدلهم على ضيوفه ، وكانت تدافع عنهم ، وترضى بأفعالهم.

ثم وصفوا العذاب بقولهم :

إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلى أَهْلِ هذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزاً مِنَ السَّماءِ بِما كانُوا يَفْسُقُونَ أي إننا سننزل على أهل قرية « سدوم » عذابا شديدا عظيما من السماء ، تضطرب له نفوسهم ، بسبب فسقهم.

وكان العذاب هو الزلزلة التي خسفت بهم الأرض ، وصار مكان قريتهم بحيرة لوط (البحر الميت) فاقتلع جبريل عليه السلام قراهم من قرار الأرض ، ثم رفعها إلى عنان السماء ، ثم قلبها عليهم ، وأرسل اللّه الحمم وحجارة من سجيل منضود ، مسوّمة عند ربك ، وما هي من الظالمين ببعيد ، وهم من أشد الناس عذابا يوم المعاد ، ولهذا قال تعالى :

وَلَقَدْ تَرَكْنا مِنْها آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ أي ولقد تركنا من القرية

ج ٢٠ ، ص : ٢٣٤

بعض آثار منازلهم الخربة أو أخبارهم علامة ظاهرة واضحة ، وعبرة أو عظة لقوم يتدبرون ويستبصرون بعقولهم الأمور ، كما قال تعالى : وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ ، وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ [الصافات ٣٧/ ١٣٧- ١٣٨].

فقه الحياة أو الأحكام :

يستنبط من الآية ما يأتي :

١- أنكر نبي اللّه لوط على قومه الذين أرسل إليهم في « سدوم » إنكارا شديدا مع التوبيخ والتحذير فعل ثلاثة أمور : ارتكاب الفاحشة (اللواط) وقطع الطريق لأخذ الأموال والفاحشة والاستغناء عن النساء ، وفعل المخازي في مجالسهم الخاصة.

٢- لقد قابل القوم هذا الإنكار بالاستهزاء والعناد والتكذيب واللجاج ، فطلبوا إنزال العذاب الذي يهددهم به إن كان صادقا فيما يقول ظنا منهم أن ذلك لا يكون ولا يقدر عليه ، ثم هددوه في آية أخرى بالطرد والإخراج من قريتهم.

٣- تدل الآية على وجوب الحد في اللواطة لأنها فاحشة كالزنى ، وقد قال اللّه تعالى : وَلا تَقْرَبُوا الزِّنى إِنَّهُ كانَ فاحِشَةً [الإسراء ١٧/ ٣٢] واشتراكهما في الفاحشة يناسب الزجر عنه ، فما شرع زاجرا في الزنى ، يشرع زاجرا في اللواطة.

وهذا وإن كان قياسا إلا أن علة القياس مستفادة من الآية ، فتكون منصوصا عليها ، والقياس المنصوص العلة متفق على العمل به.

٤- ما طلب نبي هلاك قوم إلا إذا يئس من هدايتهم ، وعلم أن عدمهم خير من وجودهم ، لذا دعا لوط عليه السلام ربه أن ينصره على القوم المفسدين ، فأجاب اللّه دعاءه.

٥- إذا نزل العذاب بقوم نجى اللّه الصالحين المؤمنين منهم كما نجى لوطا وأهله

ج ٢٠ ، ص : ٢٣٥

الذين اتبعوه ، وأهلك الظالمين المفسدين مرتكبي الفاحشة كما فعل بقوم لوط وامرأته التي كانت راضية بأفعالهم ، وتدلهم على ضيوف لوط ، فكان حكمها حكمهم لأن الدال على الشر كفاعله ، كما أن الدال على الخير كفاعله.

٦- ترك اللّه تعالى بعض آثار منازلهم الخربة للعبرة والعظة لمن يتأمل من العقلاء بمصير الظالمين ومآل الكافرين في الدنيا ، ولعذاب اللّه أشد وأنكى في الآخرة.

٧- اشتملت مهمة الملائكة الرسل في ضيافة إبراهيم أمرين :

الأول- البشارة التي هي أثر الرحمة ، والإنذار بالإهلاك الذي هو أثر الغضب ، ورحمته تعالى سبقت غضبه ، فقدم البشارة على الإنذار.

الثاني- لم يعلل الملائكة البشرى بشيء ، فلم يقولوا مثلا : لأنك رسول مخلص أو لأنك مؤمن ، أو لأنك عادل ، وعللوا الإهلاك بقولهم : إِنَّ أَهْلَها كانُوا ظالِمِينَ لأن صاحب الفضل المطلق لا يكون فضله بعوض ، والعادل لا يكون عذابه إلا على جرم.

قصص شعيب وهود وصالح وموسى عليهم السلام مع أقوامهم [سورة العنكبوت (٢٩) : الآيات ٣٦ الى ٤٠]

وَإِلى مَدْيَنَ أَخاهُمْ شُعَيْباً فَقالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٣٦) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دارِهِمْ جاثِمِينَ (٣٧) وَعاداً وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَساكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكانُوا مُسْتَبْصِرِينَ (٣٨) وَقارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهامانَ وَلَقَدْ جاءَهُمْ مُوسى بِالْبَيِّناتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَما كانُوا سابِقِينَ (٣٩) فَكُلاً أَخَذْنا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنا عَلَيْهِ حاصِباً وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنا وَما كانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٠)

ج ٢٠ ، ص : ٢٣٦

الإعراب :

وَإِلى مَدْيَنَ أَخاهُمْ شُعَيْباً مَدْيَنَ : ممنوع من الصرف للعلمية والتأنيث.

وشُعَيْباً : منصوب بفعل مقدر ، تقديره : أرسلنا إلى مدين أخاهم شعيبا. مُفْسِدِينَ حال مؤكدة لعاملها.

(٢٤٢/٢٠)

وَ عاداً وَثَمُودَ أي وأهلكنا. وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَساكِنِهِمْ أي تبين لكم بعض الَّذِينَ في آية وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أو منصوب بفعل مقدر ، تقديره : وأهلكنا عادا وثمودا ، بدلالة : فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ لأنه في معنى الإهلاك ، وكلمة ثمودا هنا مصروف لأنه اسم للحي ، وورد في مكان آخر ممنوعا من الصرف لأنه بمعنى القبيلة.

وَقارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهامانَ كلها أسماء منصوبة بالعطف على عاداً في جميع الأوجه التي ذكرت ، ولا ينصرف للعجمة والتعريف (العلمية).

البلاغة :

فَكُلًّا أَخَذْنا بِذَنْبِهِ ، فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنا عَلَيْهِ حاصِباً .. تقديم المفعول للاهتمام به ، وفي الآية إجمال ثم تفصيل.

المفردات اللغوية :

وَإِلى مَدْيَنَ أي وأرسلنا إلى مدين ، وأصلها : أبو القبيلة. وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ افعلوا ما ترجون به ثواب اليوم الآخر ، فأقيم المسبب مقام السبب. وقيل : إنه من الرجاء بمعنى

ج ٢٠ ، ص : ٢٣٧

الخوف ، أي واخشوا يوم القيامة. وَلا تَعْثَوْا لا تفسدوا من عثي : أفسد ، ومفسدين حال مؤكدة

لعاملها. الرَّجْفَةُ الزلزلة الشديدة ، وقيل : صيحة جبريل لأن القلوب ترجف بها.
جاثِمِينَ باركين على الركب ميتين ، أي ماتوا.
وَعاداً وَثَمُودَ أي وأهلكنا. وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَساكِنِهِمْ أي تبين لكم بعض مساكنهم ، أو إهلاكهم من جهة مساكنهم بالحجر واليمن إذا نظرتم إليها عند مروركم بها ، فكانت قبيلة عاد تسكن الأحقاف قرب اليمن ، وثمود تسكن الحجر قرب وادي القرى. وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ من الكفر والمعاصي. فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ السوي ، سبيل الحق الذي بيّن الرسل لهم. وَكانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ذوي بصائر ، متمكنين من النظر والاستبصار ، ولكنهم لم يفعلوا.

(٢٤٣/٢٠)

وَ قارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهامانَ أي وأهلكنا ، وتقديم قارون لشرف نسبه بِالْبَيِّناتِ الحجج الواضحات. سابِقِينَ فائتين عذابنا غير مدركين ، بل أدركهم أمر اللّه ، مأخوذ من سبق طالبه : إذا فاته.
فَكُلًّا من المذكورين. أَخَذْنا بِذَنْبِهِ أي عاقبنا بذنبه. حاصِباً ريحا عاصفا فيها حصباء ، كقوم لوط ، يقال : حصبه يحصبه : إذا رماه بالحصباء : وهي الحجارة الصغيرة.
الصَّيْحَةُ الصرخة الشديدة ، كمدين وثمود. مَنْ خَسَفْنا بِهِ الْأَرْضَ كقارون. وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنا كقوم نوح وفرعون وقومه. وَما كانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ فيعذبهم بغير ذنب. وَلكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ بارتكاب الذنب والتعرض للعذاب.
المناسبة :
بعد أن قص اللّه تعالى قصص نوح وإبراهيم ولوط ، أردفه بقصص شعيب وهود وصالح وموسى بإيجاز ، لفائدة العظة والاعتبار بأحوال هؤلاء الأنبياء مع أقوامهم.
ويلاحظ أن هذه القصص هنا ذكر فيها القوم جريا على الأصل أن يذكر القوم ثم يذكر رسولهم ، ولأن قوم شعيب وهود وصالح كان لهم نسب معلوم اشتهروا به عند الناس ، فجرى الكلام على أصله ، مثلما ذكر قارون وفرعون وهامان لاشتهارهم بالطغيان. أما قوم نوح وإبراهيم ولوط فلم يكن لهم اسم
ج ٢٠ ، ص : ٢٣٨
خاص ولا نسبة مخصوصة يعرفون بها ، فعرفوا بالنبي فقيل : قوم نوح وقوم لوط.
التفسير والبيان :
قصة شعيب :

(٢٤٤/٢٠)

وَ إِلى مَدْيَنَ أَخاهُمْ شُعَيْباً فَقالَ : يا قَوْمِ ، اعْبُدُوا اللَّهَ ، وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ ، وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ أي وأرسلنا إلى مدين نبي اللّه شعيبا الذي كان من أهل مدين ، فأمرهم بعبادة اللّه وحده ، وإخلاص العبادة له ، وفعل ما يرجون به ثواب اليوم الآخر ، والخوف من بأس اللّه ونقمته يوم القيامة ، ونهاهم عن الإفساد في الأرض ، والبغي على أهلها ، بإنقاص المكيال والميزان ، وقطع الطريق على الناس ، وغير ذلك من المعاصي التي تجب التوبة منها ، وأخطرها الكفر باللّه ورسوله ، كما قال : فَكَذَّبُوهُ ، فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ ، فَأَصْبَحُوا فِي دارِهِمْ جاثِمِينَ أي فقابلوه بالتكذيب والعناد ، والإصرار على الكفر والعصيان ، فأهلكهم اللّه بزلزلة (رجفة) عظيمة ، قوضت أركان ديارهم ، وصيحة هزت جنبات نفوسهم ، وعذاب يوم الظلة الذي أزهق الأرواح من مستقرها ، إنه كان عذاب يوم عظيم ، أدى إلى إماتتهم ، فأصبحوا في ديارهم ميتين لا حراك بهم ، ألقي بعضهم على بعض.

وقد تقدم بيان قصتهم في سور : الأعراف ، وهود ، والشعراء.

قصة هود وصالح :

وَعاداً وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَساكِنِهِمْ ، وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ ، فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ ، وَكانُوا مُسْتَبْصِرِينَ أي وأهلكنا عادا قوم هود عليه السلام

ج ٢٠ ، ص : ٢٣٩

الذين كانوا يسكنون الأحقاف ، وهي قرية من حضرموت في بلاد اليمن ، وأهلكنا ثمود قوم صالح عليه السلام الذين كانوا يسكنون الحجر قريبا من وادي القرى ، بين الحجاز والشام ، ومدائن صالح ظاهرة إلى اليوم ، وكانت العرب تعرف مساكنهم جيدا ، وتمر عليهم كثيرا.

(٢٤٥/٢٠)

فأنتم يا أهل مكة ويا مشركي العرب قد تبين لكم إهلاكهم من آثار مساكنهم ، واطلعتم على معالم عذابهم ، فإن الشيطان قد زين لهم أعمالهم من عبادة غير اللّه ، وكفرهم بربهم ، واقترافهم المعاصي ، وصدهم الناس عن الدين الحق والسبيل الأقوم ، وكانوا عقلاء متمكنين من النظر والاستبصار ، فلا عذر لهم في ترك الإيمان بربهم ، إلا أنهم لم ينتفعوا بطاقات فكرهم ونظرهم في عواقب الأمور.

أ فلا يكون جديرا بكم أن تتعظوا بهؤلاء ، فالعاقل من اتعظ بغيره ؟ !

قصة موسى :

وَقارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهامانَ ، وَلَقَدْ جاءَهُمْ مُوسى بِالْبَيِّناتِ ، فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ ، وَما كانُوا سابِقِينَ أي وأهلكنا أيضا قارون صاحب الأموال الوفيرة والكنوز العظيمة ، وفرعون ملك مصر في زمن موسى ، ووزيره هامان. وكان موسى قد جاءهم من عند ربه بالحجج الواضحات الدالة على صدق رسالته ،

فاستكبروا في الأرض وأبوا تصديقه والإيمان به ، وكذبوه وكفروا باللّه تعالى وبرسوله ، وكانوا خاطئين آثمين عالين مفسدين ، ولكنهم لم يكونوا فائتين اللّه ، ولا هاربين من عذابه ، بل أدركهم أمر اللّه وبطشه فإنه القادر القاهر العزيز الغالب.

ج ٢٠ ، ص : ٢٤٠

أنواع عقوبات الأقوام المكذبين :

فَكُلًّا أَخَذْنا بِذَنْبِهِ ، فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنا عَلَيْهِ حاصِباً ، وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ ، وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنا بِهِ الْأَرْضَ ، وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنا ، وَما كانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ أي فلقي كل قوم ما يناسبه من العقاب ، وأهلكهم اللّه سبب تكذيبهم الرسل ، وكانت عقوباتهم أربعة أنواع :

(٢٤٦/٢٠)

١- الريح العاصفة : أرسل اللّه على بعضهم كقوم عاد حاصبا ، أي ريحا صرصرا باردة عاتية شديدة الهبوب جدا ، تحمل الحصباء (الحجارة الصغيرة) فتلقى عليهم ، وتقتلعهم من الأرض ، وترفعهم إلى عنان السماء ، ثم تصرعهم على الأرض ، فيصبحون جثثا هامدة ، وذلك لكفرهم وقولهم : مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً [فصلت ٤١/ ١٥] ؟ ! ٢- الصيحة : وأرسل اللّه على قوم ثمود الصيحة (أو الرجفة) حين أصروا على كفرهم فلم يؤمنوا ، واستمروا على طغيانهم ، وهددوا نبي اللّه صالحا عليه السلام ومن آمن معه وتوعدهم بالإخراج والرجم ، فجاءتهم صيحة أخمدت أصواتهم وحركاتهم ، ومثلهم أهل مدين.

٣- الخسف : عاقب اللّه قارون الذي طغى وبغى ، وعتا وعصا الرب الأعلى ، وتكبر وتجبر واختال في مشيته ، فخسف به وبداره الأرض ، ليكون عبرة لكل عات جبار.

٤- الإغراق : أغرق اللّه قوم نوح بالطوفان لكفرهم وعبادتهم الأصنام ، كما أغرق فرعون وهامان وجنودهما في صبيحة يوم واحد ، فلم ينج منهم أحد.

وكل عقوبة مما ذكر كانت جزاء وفاقا على ظلمهم وآثامهم ، وليس ظلما لهم ، كما قال تعالى :

ج ٢٠ ، ص : ٢٤١

وَ ما كانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ أي وما كان ينبغي للّه أن يظلمهم أبدا فيما فعل بهم ، ولكنه أهلكهم بذنوبهم وبظلمهم أنفسهم وكفرهم باللّه ربهم.

فقه الحياة أو الأحكام :

هناك سبب مشترك في عقاب الأمم المتقدمة وإهلاكهم وهو الكفر باللّه كفر تحد وعناد ، مع الإفساد ، في الأرض بالمعاصي الكبائر.

فقوم مدين : رفضوا دعوة نبيهم شعيب عليه السلام الذي قال لهم : اللّه تعالى واحد فاعبدوه ،

والحشر كائن فارجوه ، والفساد بالكفر والظلم والمعصية محرم فلا تقربوه ، فكذبوه فيما دعاهم إليه وأخبرهم به.

(٢٤٧/٢٠)

فعاقبهم اللّه كما ذكر هنا وفي الأعراف بالرجفة ، وفي هود بالصيحة ، والأمر واحد ، فإن الصيحة كانت سببا للرجفة ، أي زلزلة الأرض ، إما بسبب صيحة جبريل ، وإما بسبب رجفة الأفئدة التي ارتجفت منها ، ولما كانت الصيحة عظيمة أحدثت الزلزلة في الأرض ، فأصبحوا جاثمين ميتين في ديارهم.

وقبيلتا عاد وثمود : أهلكهما اللّه تعالى بظلمهم ، أما عاد قوم هود عليه السلام فقالوا : مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً [فصلت ٤١/ ١٥] ؟ فأنكروا وجود الإله الخالق القادر ، وعتوا وبغوا وتعالوا على الناس ، فدمر اللّه ديارهم بمن فيها بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عاتِيَةٍ ، سَخَّرَها عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيالٍ وَثَمانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً [الحاقة ٦٩/ ٦- ٧].

وأما ثمود قوم صالح فكذبوا رسولهم وأعلنوا كفرهم وهددوا نبيهم بالطرد والإخراج من بلدهم ، وعقروا الناقة التي أرسلها اللّه إليهم معجزة لنبيهم صالح ، وكان عقابهم كعقاب أهل مدين بالصيحة أو الزلزلة أو الطاغية ، وبقيت آثار ثمود وعاد بالحجر والأحقاف شاهدة على ظلمهم ، وآية بينة مؤثرة للمعتبرين المتعظين.

ج ٢٠ ، ص : ٢٤٢

و رؤوس الطغيان والبغي في مصر : قارون وفرعون وهامان ، استكبروا في الأرض ، وظنوا أن اللّه غير قادر عليهم ، فخسف اللّه بقارون وبداره الأرض ، وأغرق فرعون وهامان وجنودهما في البحر.

ولم يكن العقاب بالهلاك ظلما ، فكل فئة أخذت بجريرة ذنبها العظيم ، وما كان اللّه ليظلمهم لأنه أنذرهم وأمهلهم وبعث إليهم الرسل وأزاح العذر ، وإنما ظلموا أنفسهم.

تشبيه حال عبدة الأصنام بحال العنكبوت [سورة العنكبوت (٢٩) : الآيات ٤١ الى ٤٣]

(٢٤٨/٢٠)

مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِياءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ (٤(١) إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٤(٢) وَتِلْكَ الْأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنَّاسِ وَما يَعْقِلُها إِلاَّ الْعالِمُونَ (٤٣)

الإعراب :

كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ الكاف : في موضع رفع لأنها خبر المبتدأ : مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا.

إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما يَدْعُونَ .. ما : إما بمعنى « الذي » في موضع نصب ب يَعْلَمُ وتقديره : إن اللّه يعلم الذين يدعون من دونه من شيء ، فحذف العائد تخفيفا. وإما أن تكون استفهامية في موضع نصب ب يَدْعُونَ وتقديره : أي شيء تدعون من دونه ، وهو قول الخليل وسيبويه.

البلاغة :

مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِياءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً تشبيه تمثيلي ، شبه

الكفار في عبادتهم الأصنام بالعنكبوت في بنائها بيتا ضعيف النسج قابلا للاختراق والزوال بنفخة هواء.

والتشبيه التمثلي : هو ما كان وجه الشبه فيه منتزعا من متعدد.

المفردات اللغوية :

مَثَلُ المثل : الصفة التي تشبه المثل في الغرابة. أَوْلِياءَ أصناما يرجون نفعها.

الْعَنْكَبُوتِ حشرة معروفة. اتَّخَذَتْ بَيْتاً لنفسها تأوي إليه مما نسجته من شبكة واهنة ضعيفة. أَوْهَنَ أضعف البيوت ، لا يدفع عنها حرا ولا بردا ، كذلك الأصنام لا تنفع عابديها.

لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ ذلك ما عبدوها.

إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما يَدْعُونَ على إضمار القول ، أي قل للكفرة : إن اللّه يعلم الذي يعبدون ، والكلام تجهيل لهم وتأكيد للمثل. مِنْ دُونِهِ غيره. وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ الغالب القوي في ملكه ، الحكيم في صنعه ، وهو تعليل لما سبق ، فإن من فرط الغباوة إشراك ما لا يعدّ شيئا بمن هذا شأنه ، فالجماد بالنسبة إلى القادر القاهر على كل شيء ، البالغ النهاية في العلم وإتقان الفعل كالمعدوم.

وَتِلْكَ الْأَمْثالُ يعني هذا المثل ونظائره. نَضْرِبُها لِلنَّاسِ نجعلها مثلا تقريبا لأفهامهم. وَما يَعْقِلُها يفهمها.

إِلَّا الْعالِمُونَ المتدبرون الذين يتدبرون الأشياء على ما ينبغي ، روي عنه عليه الصلاة والسلام أنه تلا هذه الآية فقال : « العالم : من عقل عن اللّه ، فعمل بطاعته ، واجتنب سخطه » .

المناسبة :

بعد أن أبان اللّه تعالى أنه أهلك من أشرك بعاجل العقاب ، وسيعذبه بشديد العذاب ، دون أن ينفعه معبوده في الدارين ، شبّه حال هذا المشرك الذي اتخذ معبودا دون اللّه بحال العنكبوت التي اتخذت بيتا لا يحميها من الأذى ، ولا يمنع عنها الحر أو البرد.

ثم أكد ذلك فأوضح أن ما يدعونه ليس بشيء ، فكيف يعبد وتترك عبادة اللّه القادر القاهر الحكيم المتقن ؟ ثم لفت النظر إلى فائدة ضرب الأمثال وهي التقريب للأفهام وإدراك العقلاء لمغزاها.

ج ٢٠ ، ص : ٢٤٤

التفسير والبيان :

مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِياءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً أي صفة المشركين في اتخاذهم الأصنام آلهة من دون اللّه ، طمعا في نصرهم ورزقهم ونفعهم ، والتمسك بهم في الشدائد ، كصفة العنكبوت في ضعفها اتخذت لنفسها بيتا يقيها الأذى والحر والبرد ، فلم يفدها شيئا ، وإذا هبت ريح يصير هباء منثورا.

(٢٥٠/٢٠)

فكذلك هؤلاء المشركون لا تفيدهم أصنامهم ، ولا تدفع عنهم سوءا ، ولا تجديهم شيئا ، وتصبح أعمالهم للأوثان مبددة ذاهبة الأثر ، كما قال تعالى :

وَقَدِمْنا إِلى ما عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ ، فَجَعَلْناهُ هَباءً مَنْثُوراً [الفرقان ٢٥/ ٢٣].

ثم بيّن اللّه تعالى مدى ضعف هذا البيت ، فقال :

وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ ، لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ أي وإن أضعف البيوت بيت العنكبوت لأنه يخرب بأدنى شيء ، ولا يبقى منه أثر ، فكذلك عملهم لا أثر له ، فلو كانوا يعلمون علما صحيحا أن أصنامهم وعبادتهم لها لا تنفعهم شيئا ، ما فعلوا ذلك ، إلا أنهم في الواقع في غاية الجهل ، لا يعلمون شيئا من عواقب الأمور ، فتراهم يظنون بذلك النفع.

ثم أكد اللّه تعالى كون تلك المعبودات ليست بشيء ، فقال متوعدا عابديها :

إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ أي إن اللّه يعلم أن الذي يعبدونه من غيره من الأصنام والجن والإنس ليس بشيء ، وهو القوي الغالب القادر على الانتقام ممن كفر به ، وأشرك في عبادته معه غيره ، الحكيم في صنعه وتدبيره خلقه ، يعلم ما هم عليه من الأعمال ، ويعلم ما يشركون به من الأنداد ، وسيجزيهم وصفهم ، إنه حكيم عليم.

ج ٢٠ ، ص : ٢٤٥

ثم أبان تعالى فائدة ضرب الأمثال ، فقال :

وَتِلْكَ الْأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنَّاسِ ، وَما يَعْقِلُها إِلَّا الْعالِمُونَ أي هذا المثل وأشباهه في القرآن الكريم ، يضربها للناس تقريبا لأفهامهم ، وتوضيحا لما التبس عليهم ، وما يفهمها ويدركها ويتدبر حقيقتها إلا العلماء الأثبات ، المتضلعون في العلم ، المتأملون في القضايا والمسائل.

روى جابر أن النبي صلّى اللّه عليه وسلم تلا هذه الآية ، فقال : « العالم من عقل عن اللّه تعالى ، فعمل بطاعته ، واجتنب سخطه » .

فقه الحياة أو الأحكام :

تدل الآيات على ما يأتي :

١- إن عبادة الأصنام والأوثان فارغة المحتوى ، لا مضمون فيها ، ولا هدف لها ، وما مثلها في عدم النفع إلا كمثل بيت العنكبوت. قال الفراء : هذا مثل ضربه اللّه سبحانه لمن اتخذ من دونه آلهة لا تنفعه ولا تضره ، كما أن بيت العنكبوت لا يقيها حرا ولا بردا.

٢- شبّه اللّه تعالى حال عبدة الأوثان بحال العنكبوت التي تتخذ أضعف البيوت ، ولو علموا أن عبادة الأوثان كاتخاذ بيت العنكبوت التي لا تغني عنهم شيئا ، وأن هذا مثلهم أو صفتهم ، لما عبدوها لا أنهم يعلمون أن بيت العنكبوت ضعيف. أما قتل العنكبوت فروي عن سيدنا علي جوازه قائلا : إن تركه في البيوت يورث الفقر. وهذا صحيح لأن العناكب من الحشرات السامة.

٣- إن اللّه يعلم ضعف كل ما يعبدون من دونه من ملائكة وكواكب وأصنام وجن وإنس ، فرثى لحالهم ، وعجب من صنعهم ، فنبههم على سطحية تفكيرهم ، وسوء اعتقادهم ، وأن جميع تلك المعبودات مثل بيت العنكبوت لأن كل ما عدا

ج ٢٠ ، ص : ٢٤٦

اللّه لا ينفع ولا يضر إلا بإذن اللّه ، فلا معبود بحق إلا اللّه ، ولا إله سواه.

٤- إن ضرب الأمثال أي بيانها وعقد المقارنة بين المتشابهات أمر مفيد للناس ، لمعرفة حقائق الأمور ، ولكن لا يفهم تلك الأمثال إلا العالمون باللّه تعالى.

قال أبو حيان : وكان جهلة قريش يقولون : إن رب محمد يضرب المثل بالذباب والعنكبوت ، ويضحكون من ذلك ، وما علموا أن الأمثال والتشبيهات طرق إلى المعاني المحتجبة ، فتبرزها وتصورها للفهم ، كما صور هذا التشبيه الفرق بين حال المشرك وحال الموحد « ١ » .

٥- حقا إن المشرك في غاية الجهل في الاعتقاد ، لذا كانت هذه الآيات تجهيلا للمشركين ، حيث عبدوا ما ليس بشيء ، لأنه جماد ، لا علم لديه ، ولا قدرة أصلا عنده ، وتركوا عبادة القادر القاهر ، الحكيم الذي لا يفعل شيئا إلا لحكمة.

أما المسلم المؤمن قلبه باللّه فهو واع لما يفعل ، مقدر ما يعبد ، يبغي الخير في عبادته ، ويحسن العمل في اتباع الشرع لأن فيه نجاته وإنقاذه ، ويصل إلى مبتغاه فعلا بجلب النفع والخير ، ودفع الضرر والشر.

فائدة خلق السموات والأرض وتلاوة القرآن وإقامة الصلاة [سورة العنكبوت (٢٩) : الآيات ٤٤ الى ٤٥]

خَلَقَ اللَّهُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ (٤٤) اتْلُ ما أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتابِ وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ ما تَصْنَعُونَ (٤٥)

---

(١) البحر المحيط ٧/ ١٥٣.

ج ٢٠ ، ص : ٢٤٧

المفردات اللغوية :

خَلَقَ اللَّهُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ محقا غير قاصد به باطلا ، وقصده بالذات من خلقهما إفاضة الخير ، والدلالة على ذاته وصفاته ، كما أشار إليه بقوله : إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً دلالة على قدرته تعالى.

لِلْمُؤْمِنِينَ لأنهم المنتفعون بها في الإيمان ، بخلاف الكافرين.

اتْلُ ما أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتابِ القرآن ، تقربا إلى اللّه بقراءته ، واستكشافا لمعانيه ، إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَالْمُنْكَرِ بأن تكون سببا للانتهاء عن المعاصي حال الاشتغال بها وغيرها لأنها تذكر باللّه ، وتورث النفس خشية ، أي من شأنها ذلك. والمنكر : القبيح شرعا وعقلا.

روي أن فتى من الأنصار كان يصلي مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم الصلوات ، ولا يدع شيئا من الفواحش إلا ركبه ، فوصف له ، فقال : « إن صلاته تنهاه » فلم يلبث إلا أن تاب.

وَ لَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ أي إن الصلاة أكبر من سائر الطاعات ، وإنما عبر عنها بالذكر لاشتمالها على الذكر الذي هو العمدة في تفضيلها على سائر الحسنات ونهيها عن السيئات. ويصح أن يكون المعنى : ولذكر اللّه إياكم برحمته أكبر من ذكركم إياه بطاعته. وَاللَّهُ يَعْلَمُ ما تَصْنَعُونَ منه ومن سائر الطاعات ، فيجازيكم به أحسن المجازاة.

المناسبة :

بعد أن أمر اللّه تعالى الناس بالإيمان ، وأبان ضعف دليل الكفار على عبادة معبوداتهم ، لفت النظر إلى من تجب له العبادة وهو الذي لا يعجزه شيء ، وخالق السموات والأرض ، والمرشد بكتابه إلى معالم

الحق ، والمبين طريق العبادة المرضية له وهو الصلاة. كما أن في الآيات تسلية للنبي صلّى اللّه عليه وسلم وللمؤمنين عن إعراض الكفار واليأس منهم ، بالتأمل في خلق السموات والأرض وتلاوة القرآن الدال على أن الرسل السابقين كنوح وإبراهيم ولوط بلغوا الرسالة ، وأقاموا الأدلة على الإيمان باللّه تعالى ، ولم ينقذوا قومهم من الضلالة والجهالة.

التفسير والبيان :

خَلَقَ اللَّهُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ، إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ أي إن اللّه تعالى أوجد وأبدع السموات والأرض للدلالة على قدرته العظيمة ، وإفاضة الخير ، ولحكم وفوائد دينية ودنيوية ، فقد خلقهما محقا غير قاصد الباطل ، ولم

ج ٢٠ ، ص : ٢٤٨

يخلقهما عبثا ولهوا ولعبا ، وفي ذلك دلالة واضحة على أنه تعالى المتفرد بالخلق والتدبير والألوهية ، كما

جاء في رواية عن اللّه عز وجل : « كنت كنزا مخفيا ، فأردت أن أعرف ، فخلقت الخلق ، فبي عرفوني »

إلا أنه لم يصح حديثا ، ومعناه صحيح مستفاد من قوله تعالى : وَما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ [الذاريات ٥١/ ٥٦].

(٢٥٤/٢٠)

و لا ينتفع بتلك الدلالات ولا يفهم هذه الأسرار إلا المؤمنون المصدقون باللّه ورسوله لأنهم يستدلون بآثار الخلق على وجود المؤثر فيها.

ثم أمر اللّه تعالى رسوله والمؤمنين بتلاوة القرآن وهو قراءته وإبلاغه للناس للاستزادة من المعرفة الدالة على وجود اللّه ووحدانيته وقدرته وحكمته فقال :

اتْلُ ما أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتابِ أي اقرأ يا محمد ومثلك كل مسلم ، وأدم تلاوة هذا القرآن وتبليغه للناس ، فإنه إمام ونور ، وهدى ورحمة ، ودليل خير ونجاة ، وعلاج ما استعصى من الأزمات والمحن ، وتخطي مراحل اليأس والقنوط.

كذلك أمر تعالى بالصلاة قرة عين المؤمن فقال :

وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَالْمُنْكَرِ أي وأدّ أيها النبي وكل مؤمن فريضة الصلاة ونافلتها تامة الأركان والشروط ، مع الخشوع والخضوع للّه ، واستحضار خشية اللّه في جميع مراحلها ، فهي تشتمل بمواظبتها على شيئين :

ترك الفواحش والمنكرات ، وهي عماد الدين ، وصلة بين العبد وربه ، ودليل الإيمان واليقين ، وفرجة المكروب والمحزون ، وسبب لتطهير العبد من آثار الذنوب والمعاصي.

جاء في الحديث الذي أخرجه الطبراني وغيره من رواية عمران وابن عباس مرفوعا : « من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر ، لم تزده من اللّه إلا بعدا »

و

روى أحمد والنسائي والحاكم والبيهقي عن أنس رضي اللّه عنه أن النبي صلّى اللّه عليه وسلم قال : « حبّب إلي من دنياكم النساء ، والطيب ، وجعلت قرة عيني في الصلاة » .

ج ٢٠ ، ص : ٢٤٩

(٢٥٥/٢٠)

و كل ذلك مشروط بأدائها بخشوع وخضوع وإخلاص كما ذكر ، حتى تكون ذات مدلول وروح ، وذات إشعاع تملأ النفس استحضارا لعظمة اللّه والخوف منه ، وإلا كانت مجرد حركات وأفعال مادية فاقدة الأثر المقصود منها. ثم أكد تعالى رفعة شأن الصلاة فقال : وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ ما تَصْنَعُونَ أي إن الصلاة أكبر من سائر الطاعات ، وذكر اللّه وتفقده الناس العابدين برحمته أكبر من ذكرهم إياه بطاعته ، واللّه عليم بما تصنعون من خير أو شر ، وعليم بذات الصدور ، يعلم جميع أقوالكم وأفعالكم ونياتكم : فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفى [طه ٢٠/ ٧] وفي ذلك وعد ووعيد ، وحث على مراقبة اللّه في كل الأحوال ، فمن يعلم أن اللّه يسمعه ويراه ، لزم الحياء ، وخشي العذاب ، وأحسن العبادة. ومن أتى بالذكر النافع وهو الحاصل عن علم وتأمل ووعي قلب وتفرغ نفس مما سوى اللّه ، نال المراد ، وحقق المبتغى ، وأما ما كان مجرد لقلقة باللسان ، دون استحضار لعظمة اللّه وخشوع معه ، فلا خير فيه ولا نفع.

فقه الحياة أو الأحكام :

يستنبط من الآيات ما يأتي :

١- خلق اللّه السموات والأرض على وجه الإحكام والإتقان والعدل والقسط ، ولأهداف وغايات دينية ودنيوية ، منها أن الإنسان يستدل بهما على وجود الخالق القادر الكامل الشامل العلم ، الذي لا يعزب عن علمه أجزاء الموجودات فيهما ، ولا يعجزه شيء فيهما.

٢- إن المستفيد من خلق السموات والأرض هو الإنسان ، ولا ينتفع في دلالتهما على الاعتقاد بوجود الخالق الواحد إلا المصدقون باللّه ورسوله.

٣- على المسلم مواظبة التلاوة لآي القرآن ، وتبليغ أحكامها المستفادة منها ، فإن القرآن كتاب هداية

، ودستور حياة فاضلة.

ج ٢٠ ، ص : ٢٥٠

(٢٥٦/٢٠)

٤- على المؤمن أيضا استدامة إقامة الصلاة : وهو أداؤها في وقتها بقراءتها ، وركوعها وسجودها ، وقعودها ، وتشهدها ، وجميع شروطها.

٥- إن الصلوات الخمس لما فيها من تلاوة القرآن المشتمل على الموعظة تنهى عن الفواحش والمنكرات ، وتكفّر ما بينها من الذنوب إذا أديت بحقها وكانت مع استحضار عظمة اللّه وبأسه ، أخرج الترمذي من حديث أبي هريرة أن النبي صلّى اللّه عليه وسلم قال : « أ رأيتم لو أن نهرا بباب أحدكم يغتسل فيه كلّ يوم خمس مرات ، هل يبقى من درنه شي ء ؟ قالوا : لا يبقى من درنه شيء ، قال : فذلك مثل الصلوات الخمس ، يمحو اللّه بهن الخطايا » .

و

روى أنس بن مالك قال : كان فتى من الأنصار يصلي مع النبي صلّى اللّه عليه وسلم ، ولا يدع شيئا من الفواحش والسرقة إلا ركبه ، فذكر للنبي صلّى اللّه عليه وسلم ، فقال : « إن الصلاة ستنهاه » فلم يلبث أن تاب وصلحت حاله ، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم : « أ لم أقل لكم ؟ » .

ويؤكده

الحديث المتقدم الذي رواه الطبراني وغيره : « من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم تزده من اللّه إلا بعدا ، ولم يزدد بها من اللّه إلا مقتا » .

قال أبو العالية في قوله تعالى : إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَالْمُنْكَرِ :

إن الصلاة فيها ثلاث خصال ، فكل صلاة لا يكون فيها شيء من هذه الخلال فليست بصلاة : الإخلاص ، والخشية ، وذكر اللّه ، فالإخلاص يأمره بالمعروف ، والخشية تنهاه عن المنكر ، وذكر اللّه : القرآن يأمره وينهاه.

٦- دل قوله تعالى وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ على أن الصلاة أكبر من سائر الطاعات وأفضل من كل العبادات ، وأن ذكر اللّه لعباده بالثواب والثناء عليهم ورحمته إياهم أكبر من ذكرهم له في عبادتهم وصلواتهم ، وكذلك أن تلاوة القرآن وإقامة الصلاة ينبغي أن يكون الإتيان بهما على أبلغ وجوه التعظيم.

ج ٢٠ ، ص : ٢٥١

(٢٥٧/٢٠)

روي عن ابن عمر أن النبي صلّى اللّه عليه وسلم قال في قول اللّه عز وجل : وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ : « ذكر اللّه إياكم أكبر من ذكركم إياه » .

و

في حديث آخر : « من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، ومن ذكرني في ملأ ، ذكرته في ملأ خير منهم » « ١ » .

٧- الذكر النافع : هو الذي يكون مع العلم ، وإقبال القلب ، وتفرغه ، إلا من اللّه ، وأما ما لا يتجاوز اللسان فله رتبة أخرى.

وذكر اللّه تعالى للعبد : هو إفاضة الهدى ونور العلم عليه ، وذلك ثمرة لذكر العبد ربه ، قال اللّه عز وجل : فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ [البقرة ٢/ ١٥٢].

٨- إن قوله تعالى : وَاللَّهُ يَعْلَمُ ما تَصْنَعُونَ نوع من الوعد والوعيد ، وحث على مراقبة اللّه تعالى في السرّ والعلن.

آمنت باللّه تعالى انتهى الجزء العشرون

---

(١) روى الطبراني عن معاذ بن انس حديثا بلفظ : « لا يذكرني عبد في نفسه إلا ذكرته في ملأ من ملائكتي ، ولا يذكرني في ملأ إلا ذكرته في الملأ الأعلى » .

ج ٢١ ، ص : ٥

[الجزء الحادي والعشرون]

[تتمة سورة العنكبوت]

طريقة إرشاد أهل الكتاب [سورة العنكبوت (٢٩) : الآيات ٤٦ الى ٤٩]

وَ لا تُجادِلُوا أَهْلَ الْكِتابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلهُنا وَإِلهُكُمْ واحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٤٦) وَكَذلِكَ أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ فَالَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هؤُلاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَما يَجْحَدُ بِآياتِنا إِلاَّ الْكافِرُونَ (٤٧) وَما كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لارْتابَ الْمُبْطِلُونَ (٤٨) بَلْ هُوَ آياتٌ بَيِّناتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَما يَجْحَدُ بِآياتِنا إِلاَّ الظَّالِمُونَ (٤٩)

المفردات اللغوية :

وَلا تُجادِلُوا المجادلة والجدل : الحجاج والمناظرة والمناقشة أَهْلَ الْكِتابِ اليهود والنصارى أتباع موسى

وعيسى عليهما السلام ، يؤمنون بوجود اللّه واليوم الآخر وبالتوراة والإنجيل إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ أي إلا بالخصلة التي هي أحسن كمعارضة الخشونة باللين ، والغضب بالكظم وضبط النفس ، والمشاغبة بالنصح ، والتنبيه إلى آيات اللّه وحججه إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ أي لكن الظالمون منهم بالإفراط في الاعتداء والعناد والمحاربة ، فجادلوهم وعاملوهم بالمثل وَقُولُوا لمن سالمكم وأذعن للحق أو قبل المعاهدة السلمية معكم إذا أخبروكم بشيء مما في كتبهم آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ أي صدّقنا بما أنزله اللّه إلينا وهو القرآن ، وما أنزله إليكم في أصوله الصحيحة من التوراة والإنجيل ، ولا تصدقوهم ولا تكذبوهم في ذلك ، فهذا من المجادلة بالتي هي أحسن. و

عن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم فيما يأتي تخريجه : « لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم ، وقولوا : آمنا باللّه وملائكته وبكتبه ورسله ، فإن قالوا باطلا لم تصدقوهم ، وإن قالوا حقا لم تكذبوهم » .

ج ٢١ ، ص : ٦

وَ إِلهُنا وَإِلهُكُمْ واحِدٌ ، وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ خاضعون مطيعون له خاصة ، وفيه تعريض باتخاذهم أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون اللّه تعالى.

وَكَذلِكَ ومثل ذلك الإنزال أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ أي القرآن ، كما أنزلنا إليهم التوراة وغيرها ، وكان القرآن وحيا مصدقا لسائر الكتب الإلهية فَالَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ التوراة كعبد اللّه بن سلام وأمثاله يُؤْمِنُونَ بِهِ بالقرآن وَمِنْ هؤُلاءِ أهل مكة أو العرب أو الكتابيين الموجودين في عهد الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم وَما يَجْحَدُ بِآياتِنا مع ظهورها وقيام الحجة عليها ، والجحد : إنكار الشيء بعد معرفته والعلم به إِلَّا الْكافِرُونَ المتوغلون في الكفر ، وهم المشركون وغير المسلمين الذين لا يؤمنون بالإسلام والقرآن والنبي محمد صلّى اللّه عليه وسلّم ، بعد أن ظهر لهم أن القرآن حق ، ومحمد صلّى اللّه عليه وسلّم حق ، ثم جحدوا ذلك.

وَما كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ أي إنك أمي لم تكن تعرف القراءة والكتابة قبل نزول القرآن ، فإن هذا الكتاب الجامع لأنواع العلوم الذي نزل على أمي لم يعرف القراءة والتعلم أمر خارق للعادة إِذاً لَارْتابَ الْمُبْطِلُونَ أي لو كنت قارئا كاتبا لشك أهل الباطل كاليهود فيك. وإنما سماهم مبطلين لكفرهم وكونهم غير محقين فيما ذهبوا إليه من التنكر لرسالة الإسلام.

بَلْ هُوَ أي القرآن الذي جئت به آياتٌ بَيِّناتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أي هو آيات واضحات الدلالة على الحق في قلوب أهل العلم وهم المؤمنون فيحفظونه من كل تحريف وَما يَجْحَدُ بِآياتِنا إِلَّا الظَّالِمُونَ أي وما ينكر آيات اللّه إلا الظالمي أنفسهم الذين جحدوا وجه الحق ، بعد وضوح دلائل إعجاز تلك الآيات.

المناسبة :

بعد بيان اللّه تعالى طريقة إرشاد المشركين عبدة الأصنام أو غيرها ، أبان اللّه تعالى طريقة إرشاد أهل الكتاب من اليهود والنصارى المنكري نبوة محمد صلّى اللّه عليه وسلّم ، والقائلين ببقاء شريعتهم وأنها لم تنسخ بشريعة أخرى ، مبتدئا بأمر الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم والمؤمنين به أن يعلنوا إيمانهم بالقرآن وبما تقدمه من التوراة والإنجيل ، وبإطاعة الإله الواحد ، ثم مبينا إيمان بعض أهل الكتاب وبعض المشركين من أهل مكة بالقرآن ، ثم موضحا دليل الإيمان بما أنزل على محمد صلّى اللّه عليه وسلّم ، وهو كونه أميا لم يقرأ ولم يكتب ، وكون القرآن مشتملا على علوم نافعة فريدة.

ج ٢١ ، ص : ٧

التفسير والبيان :

وَلا تُجادِلُوا أَهْلَ الْكِتابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ أي ولا تحاججوا ، ولا تناقشوا اليهود والنصارى إلا بالطريقة الحسنة وبالأسلوب الهادىء اللطيف ، إلا الذين ظلموا أنفسهم ، وحادوا عن سبيل الحق ، وعموا عن واضح الحجة ، وعاندوا وكابروا ، ولم ينفع معهم أسلوب المنطق والإقناع العقلي ، فهؤلاء يعاملون بالمثل ، ويرد على عدوانهم ومكابرتهم بطريقتهم نفسها ، فيقاتلون ويردعون بالحرب ، وهؤلاء- كما قال مجاهد وسعيد بن جبير- هم الذين نصبوا للمؤمنين الحرب ، فجدالهم بالسيف حتى يؤمنوا أو يعطوا الجزية. وهذا هو العلاج الحاسم كما قال الشاعر :

و وضع الندى في موضع السيف للعلا مضرّ كوضع السيف في موضع الندى

أما القسم الأول من الآية ، فقال قتادة وآخرون : هذه الآية منسوخة بآية السيف ولم يبق معهم مجادلة ، وإنما هو الإسلام أو الجزية أو السيف. واحتجوا بأن الآية مكية. والحق كما قال مجاهد وآخرون أن هذه الآية باقية محكمة لمن أراد الاستبصار منهم- من أهل الكتاب- في الدين ، فيجادل بالتي هي أحسن ، ويدعى إلى اللّه عز وجل وحده لا شريك له ، وينبه على حججه وآياته ، رجاء إجابته إلى الإيمان ، بغير إغلاظ ولا مخاشنة ، كما قال تعالى : ادْعُ إِلى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ، وَجادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ .. [النحل ١٦/ ١٢٥] وقال تعالى لموسى وهارون حين بعثهما إلى فرعون :

فَقُولا لَهُ قَوْلًا لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشى [طه ٢٠/ ٤٤]. واختار هذا القول ابن جرير الطبري.
وأما القسم الثاني من الآية فلا خوف في محاربته لعدوانه ، فيقاتل بما يمنعه ويردعه ، قال اللّه عز وجل : لَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلَنا بِالْبَيِّناتِ ، وَأَنْزَلْنا مَعَهُمُ الْكِتابَ وَالْمِيزانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ، وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ ، وَمَنافِعُ لِلنَّاسِ ، وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ، إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ [الحديد : ٥٧/ ٢٥].

ج ٢١ ، ص : ٨

أسلوب الجدال :

١- وَقُولُوا : آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ ، وَإِلهُنا وَإِلهُكُمْ واحِدٌ ، وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ أي إذا دعوتم أيها الرسول وأتباعه أهل الكتاب إلى الإيمان برسالة الإسلام ، وأخبروكم عما لا يعلم صدقه ولا كذبه ، فلا تصدقوهم لأنه قد يكون كذبا أو باطلا ، ولا تكذبوهم لأنه قد يكون حقا أو صحيحا ، وإنما قولوا لهم : آمنا بالقرآن الذي أنزل إلينا وإليكم وإلى البشر كافة ، وآمنا بالتوراة والإنجيل اللذين أنزلا إليكم أي نؤمن بالمنزّل فعلا على موسى وعيسى عليهما السلام ، غير المبدّل ولا المؤول ، ومعبودنا ومعبودكم الحق واحد لا شريك له ، ونحن له خاضعون مطيعون أمره ونهيه.
أخرج البخاري والنسائي عن أبي هريرة رضي اللّه عنه قال : « كان أهل الكتاب يقرءون التوراة بالعبرانية ، ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام ، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : « لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم ، وقولوا : آمنا بالذي أنزل إلينا ، وما أنزل إليكم ، وإلهنا وإلهكم واحد ، ونحن له مسلمون » .

و

أخرج الإمام أحمد أن أبا نملة الأنصاري « ١ » أخبره أنه بينما هو جالس عند رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم جاءه رجل من اليهود ، فقال : يا محمد ، هل تتكلم هذه الجنازة ؟
فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : اللّه أعلم ، قال اليهودي : أنا أشهد أنها تتكلم ، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : « إذا حدثكم أهل الكتاب ، فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم ، وقولوا : آمنا باللّه وكتبه ورسله ، فإن كان حقا لم تكذبوهم ، وإن كان باطلا لم تصدقوهم » .

و

أخرج ابن جرير عن عبد اللّه بن مسعود رضي اللّه عنه أن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم قال : « لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء ، فإنهم يهدوكم وقد ضلّوا ، إما أن تكذّبوا بحق ، وإما أن تصدقوا بباطل » .

)

(٥/٢١)

(١) أبو نملة : هو عمارة ، أو عمار ، أو عمرو بن معاذ بن زرارة الأنصاري رضي اللّه عنه.

ج ٢١ ، ص : ٩

و أخرج البخاري عن حميد بن عبد الرحمن أنه سمع معاوية يحدث رهطا من قريش بالمدينة ، وذكر كعب الأحبار ، فقال : « إن كان من أصدق هؤلاء المحدثين الذين يحدثون عن أهل الكتاب ، وإن كنا مع ذلك ، لنبلو عليه الكذب » .

٢- وَكَذلِكَ أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ ، فَالَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ، وَمِنْ هؤُلاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ ، وَما يَجْحَدُ بِآياتِنا إِلَّا الْكافِرُونَ أي كما أنزلنا الكتب على من قبلك من الرسل أيها الرسول ، أنزلنا إليك هذا الكتاب (القرآن) فالذين آتيناهم الكتاب السابق من اليهود والنصارى ، إذا أخذوا هذا القرآن ، فتلوه حق تلاوته ، كعبد اللّه بن سلام وسلمان الفارسي وأشباههما آمنوا وصدقوا بنزوله من عند اللّه ، وكذلك بعض كفار قريش وغيرهم يؤمنون به لأنه- كما عرفوا من لغة البيان- ليس من كلام البشر ، وإنما هو من كلام اللّه الموحى به إلى نبيه.

وما يكذّب بآياتنا ويجحد حقها إلا من يستر الحق بالباطل ، ويطمس معالم الهداية والنور ، ويعاند في كفره ويستكبر ، فلا يؤمن باللّه وحده ، ولا يشكر نعمة اللّه عليه. وهذا تنفير عما هم عليه من الشرك والباطل.

٣- وَما كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتابٍ ، وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ ، إِذاً لَارْتابَ الْمُبْطِلُونَ أي وما كنت أيها الرسول في تاريخك مع قومك تقرأ من قبل نزول القرآن من كتاب آخر ، ولا تعرف الكتابة ولا تستطيع أن تخط شيئا من الكتاب إذ لو كنت قارئا وكاتبا لشك المشركون الجهلة فيما نزل إليك ، وقالوا : لعل ذلك مأخوذ من كتب سابقة ، ولما لم يكن كاتبا ولا قارئا فلا وجه لارتيابهم.

(٦/٢١)

قال مجاهد : كان أهل الكتاب يجدون في كتبهم أن محمدا صلّى اللّه عليه وسلّم لا يخطّ ولا يقرأ ، فنزلت هذه الآية. وقال النحاس : الدليل على نبوة محمد صلّى اللّه عليه وسلّم لقريش أنه لا يقرأ

ج ٢١ ، ص : ١٠

و لا يكتب ولا يخالط أهل الكتاب ، ولم يكن بمكة أهل الكتاب ، فجاءهم بأخبار الأنبياء والأمم ، وزالت الريبة والشك.

وقوله : مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتابٍ لتأكيد النفي ، وكذلك قوله :

وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ تأكيد أيضا ، وذكر اليمين خرج مخرج الغالب ، كقوله تعالى : وَلا طائِرٍ يَطِيرُ بِجَناحَيْهِ [الأنعام ٦/ ٣٨].

والخلاصة : أن صفة النبي محمد صلّى اللّه عليه وسلّم في الكتب المتقدمة وتاريخه المعروف بين قومه : أنه رجل أمي لا يقرأ ولا يكتب ، كما قال تعالى : الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْراةِ وَالْإِنْجِيلِ ، يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ، وَيَنْهاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ [الأعراف ٧/ ١٥٧].

فلا وجه أصلا للشك في أن هذا القرآن نزل من عند اللّه ، لا بإيحاء بشر ولا ملك ولا جانّ ، وبالرغم من نصاعة هذه الحقيقة ، ومع علم قريش بأن محمدا صلّى اللّه عليه وسلّم أمي لا يحسن الكتابة ، اتهموه بأخذه عن الكتب المتقدمة ، كما حكى تعالى عنهم : وَقالُوا : أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَها ، فَهِيَ تُمْلى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا [الفرقان ٢٥/ ٥].

وتأكيدا لما سبق أن القرآن منزل من عند اللّه ، قال تعالى :

بَلْ ، هُوَ آياتٌ بَيِّناتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ، وَما يَجْحَدُ بِآياتِنا إِلَّا الظَّالِمُونَ أي بل إن هذا القرآن آيات واضحة الدلالة على الحق ، وذلك أمر مستقر في قلوب العلماء من أهل الكتاب وغيرهم ، ولكن ما ينكر وما يكذب بآيات اللّه النيّرة ويبخس حقها ويردها إلا الظالمون ، أي المعتدون المكابرون الذين يعلمون الحق ويحيدون عنه ، كما قال تعالى : إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ ، وَلَوْ جاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذابَ الْأَلِيمَ [يونس ١٠/ ٩٦- ٩٧].

ج ٢١ ، ص : ١١

و الخلاصة : أن هذا القرآن العظيم ليس من مخترعات البشر ، بل هو آيات بينة واضحة في الدلالة على الحق ، أمرا ونهيا وخبرا ، يفهمه العلماء ويحفظونه ، وقد يسر اللّه عليهم حفظه وتلاوته وتفسيره ، كما قال اللّه تعالى : وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ ، فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ [القمر ٥٤/ ١٧]. و

روى البخاري في صحيحة أن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم قال : « ما من نبي إلا وقد أعطي ما آمن على مثله البشر ، وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه اللّه إلي ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا » .

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يأتي :

١- فضيلة الجدال والنقاش بالأسلوب الحسن وبالحكمة والموعظة الحسنة ، فذلك أدعى عند العقلاء إلى توفير القناعة ، والوصول إلى الإيمان ، وتحقيق الهدف المقصود.

٢- إن المعاملة بالمثل واللجوء إلى القتال والعنف واستخدام القوة هو السبيل المتعين في الرد على أهل العصبية والعناد والإصرار على الكفر.

٣- إن هذه الآية الآمرة بالجدال بالتي هي أحسن والدعوة إلى اللّه عز وجل بالحجة والمنطق والبرهان آية محكمة ، كما قرر أثبات العلماء والمفسرين مثل مجاهد التابعي وغيره ، قال القرطبي : وقول مجاهد حسن لأن أحكام اللّه عز وجل لا يقال فيها : إنها منسوخة إلا بخبر يقطع العذر ، أو حجة من معقول « ١ » . وهذا اختيار ابن جرير الطبري وابن العربي. قال ابن العربي : الآية ليست منسوخة ، وإنما هي مخصوصة ، لأن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم بعث باللسان يقاتل به في اللّه ، ثم أمره اللّه بالسيف واللسان ، فمن قاتل قتل ، ومن سالم بقي الجدال في حقه ،

---

(١) تفسير القرطبي : ١٣/ ٣٥٠

ج ٢١ ، ص : ١٢

و لكن بما يحسن من الأدلة ، ويجمل من الكلام ، ولين الخطاب « ١ » .

٤- بعض أهل الكتاب معتدلون في آرائهم ومعتقداتهم ، بعيدون عن الشرك وإثبات الولد والتثليث ، وهؤلاء ينفع معهم الجدال والنقاش ، فهم يؤمنون باللّه وبكتابهم وباليوم الآخر ، ولم يبق إلا الإيمان بمحمد صلّى اللّه عليه وسلّم ، كالإيمان بموسى وعيسى عليهما السلام.

وبعض أهل الكتاب متعصبون حاقدون خلطوا بين التوحيد والتثليث ، وحرفوا في الكتاب وغيروا ، ونسبوا للّه ولدا أو شريكا ، ثم صيروه هو الإله ، وهؤلاء يصعب معهم الجدال وقد لا ينفع معهم النقاش ، ومع ذلك ندعوهم إلى الإيمان بالتي هي أحسن ، لأنه لا إكراه في الدين ، والإسلام يقر بحرية الرأي والتعبير والاعتقاد ، بعد التبليغ والإنذار ، والترغيب والترهيب.

أما المشركون عبدة الأوثان ففي جزيرة العرب لا مجال لإقرارهم على وثنيتهم ، وأما في غير جزيرة العرب ، فكذلك ندعوهم إلى الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة.

٥- النبي محمد صلّى اللّه عليه وسلّم قبل نزول القرآن كان أميا لا يقرأ ولا يكتب بشهادة الكتب السماوية المتقدمة ، وبمعرفة قومه الذين عايشوه في مكة مدة أربعين عاما.

وأمّية النبي صلّى اللّه عليه وسلّم دليل قاطع واضح على أن القرآن كلام اللّه العزيز الحكيم.

ثم ذكر النقاش في تفسير هذه الآية عن الشعبي أنه قال : ما مات النبي صلّى اللّه عليه وسلّم حتى كتب ، وقرأ. و

قد ثبت في صحيحي البخاري ومسلم أن النبي في صلح

---

(١) أحكام القرآن : ٣/ ١٤٧٥ بتصرف.

ج ٢١ ، ص : ١٣

الحديبية كتب بيده : محمد بن عبد اللّه ، ومحا كلمة رسول اللّه ، حينما أصر المشركون على عدم كتابتها.

قال القرطبي : الصحيح أنه صلّى اللّه عليه وسلّم ما كتب ولا حرفا واحدا ، وإنما أمر من يكتب ، وكذلك ما قرأ ولا تهجى. و

قال : « إنا أمة أمّية لا نكتب ولا نحسب » رواه الشيخان وأبو داود والنسائي عن ابن عمر.

٦- آيات القرآن آيات بيّنات واضحات ، وليس هذا القرآن كما يقول المبطلون : إنه سحر أو شعر ، ولكنه علامات ودلائل يعرف بها دين اللّه وأحكامه. وتلك الآيات يحفظها علماء الأمة ويقرءونها ، وقد وصف اللّه المؤمنين بالعلم ، لأنهم ميزوا بأفهامهم بين كلام اللّه وكلام البشر والشياطين ، قال كعب الأحبار في صفة هذه الأمة : إنهم حكماء علماء ، وهم في الفقه أنبياء.

٧- لا ينكر كون القرآن منزلا حقا من عند اللّه إلا القوم المبطلون الجاهلون وهم المشركون ، وإلا الكفار الظالمون الذين جحدوا نبوة محمد صلّى اللّه عليه وسلّم وما جاء به.

٨- ليس القرآن من مخترعات أحد من الملائكة أو الإنس أو الجن ، إذ لا يستطيع الكل على الإتيان بمثله أو بمثل عشر آيات أو بمثل سورة من أقصر سوره. وهذا الإعجاز المتحدي به دليل قاطع على كونه كلام اللّه الموحى به إلى قلب نبيه المصطفى صلّى اللّه عليه وسلّم.

ج ٢١ ، ص : ١٤

بعض مطالب المشركين التعجيزية الإتيان بمعجزات حسية واستعجال بالعذاب [سورة العنكبوت (٢٩) : الآيات ٥٠ الى ٥٥]

وَقالُوا لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آياتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآياتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّما أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (٥٠) أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ يُتْلى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥١) قُلْ كَفى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْباطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ (٥٢) وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ وَلَوْ لا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجاءَهُمُ الْعَذابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (٥٣) يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكافِرِينَ (٥٤)

يَوْمَ يَغْشاهُمُ الْعَذابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٥٥)

البلاغة :

لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آياتٌ مِنْ رَبِّهِ تحضيض.

آمَنُوا بِالْباطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ طباق.

أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ لإفادة القصر عليهم لا غيرهم.

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ يَوْمَ يَغْشاهُمُ الْعَذابُ إطناب بذكر العذاب مرات بقصد الإرهاب والتشنيع على المشركين.

لَمُحِيطَةٌ بِالْكافِرِينَ أي بهم ، بوضع الظاهر موضع المضمر.

ج ٢١ ، ص : ١٥

المفردات اللغوية :

وَقالُوا : لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ أي قال كفار مكة : هلا أنزل على محمد آياتٌ مِنْ رَبِّهِ مثل ناقة صالح وعصا موسى ومائدة عيسى. قُلْ : إِنَّمَا الْآياتُ عِنْدَ اللَّهِ قل يا محمد لهم : إنما الآيات ينزلها اللّه كيف يشاء ، ولست أملكها ، فآتيكم بما تقترحونه. وَإِنَّما أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ أي ليس من شأني إلا إنذار أهل المعصية بالنار بما أعطيت من الآيات.

أَ وَلَمْ يَكْفِهِمْ آية لما طلبوا أو اقترحوا. الْكِتابَ القرآن. يُتْلى عَلَيْهِمْ تدوم تلاوته عليهم ، فهو آية ثابتة مستمرة لا انقضاء لها ، يتحداهم ، بخلاف سائر الآيات. إِنَّ فِي ذلِكَ الكتاب الذي هو آية مستمرة وحجة مبينة. لَرَحْمَةً لنعمة عظيمة. وَذِكْرى عظة وتذكرة. لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ لمن همهم الإيمان دون التعنت.

قُلْ : كَفى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً يشهد بصدقي. يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أي ويعلم حالي وحالكم. وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْباطِلِ وهو ما يعبد من دون اللّه. أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ في صفقتهم حيث اشتروا الكفر بالإيمان.

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ بقولهم : فَأَمْطِرْ عَلَيْنا حِجارَةً مِنَ السَّماءِ [الأنفال ٨/ ٣٢]. وَلَوْ لا أَجَلٌ مُسَمًّى معلوم محدد لكل عذاب أو قوم. لَجاءَهُمُ الْعَذابُ عاجلا. وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً فجأة ، في الدنيا كوقعة بدر ، وفي الآخرة عند نزول الموت بهم.

(١٢/٢١)

وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ بوقت إتيانه. يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ في الدنيا. وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكافِرِينَ ستحيط بهم يوم يأتيهم العذاب. يَوْمَ يَغْشاهُمُ ظرف لكلمة (محيطة) ويَغْشاهُمُ يصيبهم. مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ أي من جميع جوانبهم. وَيَقُولُ اللّه أو الملك الموكل بالعذاب. ذُوقُوا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ أي جزاءه ، فلا تفوتونا.

سبب النزول : نزول الآية (٥(١) :

أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ : أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والدارمي في مسنده وأبو داود عن يحيى بن جعدة قال : جاء ناس من المسلمين بكتب كتبوها ، فيها بعض ما سمعوه من اليهود ،

فقال النبي صلّى اللّه عليه وسلّم : « كفى بقوم حمقا أو ضلالة أن يرغبوا عما جاء به نبيهم إليهم إلى ما جاء به غيره إلى غيرهم » ، فنزلت : أَوَ تْلى عَلَيْهِمْ

.

ج ٢١ ، ص : ١٦

و

أخرج البخاري عند تفسير الآية قوله صلّى اللّه عليه وسلّم : « ليس منا من لم يتغنّ بالقرآن » أي يستغني به عن غيره.

و

أخرج عبد الرزاق عن عبد اللّه بن الحارث الأنصاري قال : دخل عمر بن الخطاب على النبي صلّى اللّه عليه وسلّم بكتاب فيه مواضع من التوراة ، فقال : هذه أصبتها مع رجل من أهل الكتاب أعرضها عليك ، فتغير وجه رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم تغيرا شديدا لم أر مثله قط ، فقال عبد اللّه بن الحارث لعمر : أما ترى وجه رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ؟

فقال عمر : رضينا باللّه ربا ، وبالإسلام دينا ، وبمحمد نبيّا ، فسرّي عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم وقال : « لو نزل موسى فاتبعتموه وتركتموني لضللتم ، أنا حظكم من النبيين ، وأنتم حظي من الأمم » .

المناسبة :

بعد بيان كون القرآن منزلا من عند اللّه ، وليس من عند محمد صلّى اللّه عليه وسلّم ، ذكر اللّه تعالى شبهة للمشركين وهي أنهم قالوا للنبي صلّى اللّه عليه وسلّم : إنك تقول : إنه أنزل إليك كتاب كما أنزل إلى موسى وعيسى ، أفلا تأتينا بآية أو معجزة مادية محسوسة كما أتى بذلك الأنبياء السابقون كناقة صالح وعصا موسى ومائدة عيسى ؟ فأجابهم اللّه تعالى بقوله : إِنَّمَا الْآياتُ عِنْدَ اللَّهِ أي ليس من شرط الرسالة الآية المعجزة ، واللّه إن أراد ينزلها ، وإن لم يرد لا ينزلها ، وكفى بالقرآن آية فهو معجزة ظاهرة باقية ، واللّه شهيد عليم يحكم بين عباده.

وبعد بيان الطريقين في إرشاد الفريقين : المشركين وأهل الكتاب ، أعلن اللّه تعالى الإنذار الشامل العام بقوله : وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْباطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ ولما أنذروا بالخسران أوضح تعالى أن العذاب لا يأتيهم بسؤالهم أو استعجالهم ، وإنما له أجل مسمى اقتضته حكمته وارتضته رحمته.

ج ٢١ ، ص : ١٧

التفسير والبيان :

وَقالُوا : لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آياتٌ مِنْ رَبِّهِ أي وقال المشركون تعنتا وتعجيزا وعنادا : هلا أنزل على محمد آية حسية مادية ، مثل الآيات التي أنزلت على الأنبياء المتقدمين ، كناقة صالح وعصا موسى ومائدة عيسى ، تكون دليلا على صدقه ، ومعجزة تثبت أنه رسول من عند اللّه!! فأجابهم اللّه تعالى بقوله : قُلْ : إِنَّمَا الْآياتُ عِنْدَ اللَّهِ ، وَإِنَّما أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ أي قل يا محمد لهم :

إنما أمر إنزال الآيات وإرسال المعجزات إلى اللّه تعالى ، فلو علم أنكم تهتدون لأجابكم إلى سؤالكم ، لأن ذلك سهل عليه ، يسير لديه ، ولكنه سبحانه يعلم أنكم قصدتم بطلبكم التعنت والامتحان ، فلا يجيبكم إلى مطلبكم ، كما قال :

وَ ما مَنَعَنا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآياتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ، وَآتَيْنا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً ، فَظَلَمُوا بِها [الإسراء ١٧/ ٥٩].

وإنما بعثت نذيرا لكم بيّن الإنذار من عذاب شديد إذا بقيتم على كفركم ، لا الإتيان بما تقترحون ، فعلي أن أبلغكم رسالة اللّه تعالى ، وليس علي هداكم ، إنما الهدى على اللّه الذي قال : مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِداً [الإسراء ١٧/ ٩٧] وقال : لَيْسَ عَلَيْكَ هُداهُمْ وَلكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ [البقرة ٢/ ٢٧٢].

ثم أبان اللّه تعالى كثرة جهلهم وسخافة عقولهم ، حيث طلبوا آيات تدل على صدق محمد صلّى اللّه عليه وسلّم فيما جاءهم ، مع إنزال القرآن عليه ، فقال :

أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ يُتْلى عَلَيْهِمْ أي أما يكفيهم دليلا على صدقك أنا أنزلنا عليك الكتاب العظيم الذي فيه خبر ما قبلهم ، ونبأ ما بعدهم ، وحكم ما بينهم ، وأنت رجل أمي لا تقرأ ولا تكتب ، ولم تخالط أحدا

ج ٢١ ، ص : ١٨

من أهل الكتاب ، وقد جئتهم بأخبار ما في الصحف الأولى ، وأبنت الصواب فيما اختلفوا فيه ، كما قال : أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ ما فِي الصُّحُفِ الْأُولى [طه ٢٠/ ١٣٣].

أخرج الإمام أحمد والشيخان عن أبي هريرة رضي اللّه عنه قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : « ما من الأنبياء من نبي إلا قد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه اللّه إلي ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة » .

قُلْ : كَفى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً أي قل يا محمد لهم : كفى اللّه عالما وحكما عدلا بيني وبينكم ، فهو أعلم بما صدر منكم من التكذيب ، وبما أقول لكم وأبلغكم به من أوامر وإنذارات وبما أرسلني به إليكم ، فلو كنت كاذبا عليه لانتقم مني ، كما قال : وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنا بَعْضَ الْأَقاوِيلِ ، لَأَخَذْنا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ، ثُمَّ لَقَطَعْنا مِنْهُ الْوَتِينَ ، فَما مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حاجِزِينَ [الحاقة ٦٩/ ٤٤- ٤٧] وإنما أنا صادق فيما أخبرتكم به ، ولهذا أيّدني بالمعجزات الواضحات ، والدلائل القاطعات.

يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أي أن اللّه تعالى لا تخفى عليه خافية ، يعلم جميع ما هو كائن ويكون في السموات والأرض ، ومن جملة علمه : أنه يعلم حالي وحالكم ، من صدقي وتكذيبكم وإنكاركم.

وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْباطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ ، أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ أي والذين صدقوا بما يعبد من دون اللّه من الأوثان والأصنام ونحوها ، وجحدوا بوجود اللّه أو توحيده ، مع توافر الأدلة على الإيمان به ، أولئك هم الخاسرون في صفقتهم ، حيث اشتروا الكفر بالإيمان ، وسيجزيهم اللّه يوم القيامة على ما فعلوا ، ويعاقبهم على ما صنعوا من تكذيب برسل اللّه ، مع قيام الأدلة على صدقهم ، وإنكار للحق ، واتباع للباطل من الإيمان بالطواغيت والأوثان بلا دليل.

ج ٢١ ، ص : ١٩

و قوله : أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ يقتضي الحصر ، أي من أتى بالإيمان الباطل والكفر باللّه ، فهو خاسر ،

وكل من آمن بالباطل ، فقد كفر باللّه.
ثم أخبر اللّه تعالى عن جهل المشركين وحماقتهم في استعجالهم إيقاع عذاب اللّه بهم ، فقال :

وَ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ ، وَلَوْ لا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجاءَهُمُ الْعَذابُ ، وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً ، وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ أي ويتعجل كفار قريش نزول العذاب بهم ، كما حكى تعالى عنهم : وَإِذْ قالُوا : اللَّهُمَّ إِنْ كانَ هذا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ ، فَأَمْطِرْ عَلَيْنا حِجارَةً مِنَ السَّماءِ ، أَوِ ائْتِنا بِعَذابٍ أَلِيمٍ [الأنفال ٨/ ٣٢].
ولو لا كون العذاب محددا بوقت معلوم ، ولو لا ما حتم اللّه من تأخير العذاب إلى يوم القيامة ، لجاءهم العذاب قريبا سريعا كما استعجلوه ، وسوف يأتيهم بالتأكيد فجأة ، وهم لا يحسون بمجيئه ، بل يكونون في غفلة عنه.
ثم أكد تعالى طلبهم نزول العذاب بقوله :
يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ ، وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكافِرِينَ أي يطلبون منك حدوث العذاب ، وهو واقع بهم لا محالة ، وإن جهنم ستحيط بهم من كل جانب.
ثم وصف تعالى كيفية إحاطة العذاب بقوله :
يَوْمَ يَغْشاهُمُ الْعَذابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ، وَيَقُولُ : ذُوقُوا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ أي يوم يعمهم العذاب من كل الجوانب ، ويقال لهم تقريعا وتوبيخا : ذوقوا جزاء ما كنتم تعملون في الدنيا من كفر ومعاصي ، كما قال تعالى : لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَواشٍ [الأعراف ٧/ ٤١] وقال سبحانه : لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ ، وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ [الزمر ٣٩/ ١٦]
ج ٢١ ، ص : ٢٠
و قال عز وجل : لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلا عَنْ ظُهُورِهِمْ [الأنبياء ٢١/ ٣٩] وقال تعالى : يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ [القمر ٥٤/ ٤٨].
فقه الحياة أو الأحكام :
أرشدت الآيات إلى ما يأتي :

١- طلب المشركون من النبي صلّى اللّه عليه وسلّم معجزة مادية محسوسة ، مثل عصا موسى وناقة صالح ومائدة عيسى ، على سبيل العناد والمكابرة ، لا على سبيل التوصل بحسن نية إلى الإيمان باللّه

عز وجل وتوحيده.

٢- كان الرد القرآني المفحم عليهم أنه : ألا يكفيهم هذا الكتاب المعجز الذي قد تحداهم اللّه بأن يأتوا بمثله أو بسورة منه ، فعجزوا. ولو أتاهم بآيات موسى وعيسى لقالوا : سحر ونحن لا نعرف السحر ، والكلام مقدور لهم ، ومع ذلك عجزوا عن المعارضة. وليس من شرط الرسالة وجود المعجزة ، فقد علمنا وجود رسل كشيث وإدريس وشعيب ، ولم تعلم لهم معجزة.

٣- والقرآن رحمة للمؤمنين في الدنيا والآخرة ، رحمة في الدنيا باستنقاذهم من الضلالة ، وفي الآخرة بصرفهم عن النار ، وهو أيضا ذكرى في الدنيا بإرشادهم به إلى الحق ، ومعجزة باقية يتذكر بها كل إنسان على ممر الزمان. فيكون القرآن أتم من كل معجزة ، لأنه باقي الأثر ، والمعجزات المادية لم يبق لها أثر ، ولأنه بلغ خبره المشرق والمغرب وسمعه كل أحد ، والمعجزات المادية محصورة في مكان واحد.

٤- يقال للمكذبين : كفى باللّه شهيدا يشهد للنبي صلّى اللّه عليه وسلّم بالصدق في ادعائه أنه رسول ، وأن هذا القرآن كتابه. وهذا إنذار وتهديد يفيد تقريرا وتأكيدا.

٥- قوله تعالى : يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أي لا يخفى عليه شي ء :

ج ٢١ ، ص : ٢١

احتجاج على المكذبين في صحة شهادة النبي صلّى اللّه عليه وسلّم عليهم ، لأنهم أقروا بعلم اللّه الشامل ، فلزمهم أن يقرّوا بشهادته.

٦- إن المشركين أو الكفار الذين يؤمنون بالباطل وهو إبليس أو بعبادة الأوثان والأصنام ، ويكفرون باللّه لتكذيبهم برسله ، وجحدهم لكتابه ، وإشراكهم به الأوثان ، وإضافة الأولاد والأضداد إليه ، هم الخاسرون أنفسهم وأعمالهم في الآخرة. وهذا يشمل أهل الكتاب ، لأنهم لم يؤمنوا بمحمد صلّى اللّه عليه وسلّم ولا بأن القرآن منزل من عند اللّه تعالى ، فدل ذلك على أن الآية إنذار عام شامل.

٧- قال المشركون لفرط الإنكار والإمعان في الكفر : عجل لنا هذا العذاب الذي توعدنا به ، كما قال النضر بن الحارث وأبو جهل فيما أخبر القرآن : اللَّهُمَّ إِنْ كانَ هذا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ ، فَأَمْطِرْ عَلَيْنا حِجارَةً مِنَ السَّماءِ [الأنفال ٨/ ٣٢] وقالا : رَبَّنا عَجِّلْ لَنا قِطَّنا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسابِ [ص ٣٨/ ١٦].

٨- اقتضت الحكمة الإلهية رحمة بالناس وإعطائهم فرصة كافية للإصلاح والتوبة تأخير العذاب إلى أجل محدد ووقت معين وهو يوم القيامة ، فلكل عذاب أجل لا يتقدم ولا يتأخر ، بدليل قوله تعالى : لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ [الأنعام ٦/ ٦٧]. وسيأتي العذاب الذي استعجلوه حتما فجأة ، وهم لا يعلمون

بنزوله.

٩- إن كفار قريش وأمثالهم يستعجلون نزول العذاب ، وقد أعد اللّه لهم جهنم ، وأنها ستحيط بهم لا محالة ، فما معنى الاستعجال ؟ وإن ذلك العذاب يصيبهم يوم القيامة من جميع جوانبهم ، فإذا غشيهم العذاب أحاطت بهم جهنم ، ويقال لهم من قبل الملك بأمر اللّه : ذوقوا ما كنتم تعملون.

ج ٢١ ، ص : ٢٢

الأمر بالهجرة عند تعذر إقامة الشعائر الدينية [سورة العنكبوت (٢٩) : الآيات ٥٦ الى ٦٠]

يا عِبادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي واسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ (٥٦) كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنا تُرْجَعُونَ (٥٧) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفاً تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها نِعْمَ أَجْرُ الْعامِلِينَ (٥٨) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٥٩) وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُها وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦٠)

الإعراب :

لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفاً .. : غُرَفاً مفعول به ثان ل لَنُبَوِّئَنَّهُمْ لأنه يتعدى إلى مفعولين ، أما قوله تعالى : وَإِذْ بَوَّأْنا لِإِبْراهِيمَ مَكانَ الْبَيْتِ [الحج ٢٢/ ٢٦] فاللام زائدة في لِإِبْراهِيمَ ومَكانَ الْبَيْتِ : مفعول ثان.

خالِدِينَ فِيها حال من الهاء والميم في لَنُبَوِّئَنَّهُمْ.

وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ : كَأَيِّنْ : في موضع رفع مبتدأ ، بمنزلة (كم) ومِنْ دَابَّةٍ :

تبيين له. ولا تَحْمِلُ : في موضع جر لأنها صفة دَابَّةٍ.

اللَّهُ يَرْزُقُها اللَّهُ مبتدأ ، وجملة يَرْزُقُها خبره ، والجملة من المبتدأ والخبر في موضع رفع ، لأنه خبر كَأَيِّنْ.

البلاغة :

يا عِبادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا

الإضافة للتشريف والتكريم.

المفردات اللغوية :

إِنَّ أَرْضِي واسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ

أي إذا لم يتيسر لكم العبادة في بلدة أو إقامة شعائر الدين ، فهاجروا إلى أي أرض أخرى تتيسر فيها العبادة ،

قال صلّى اللّه عليه وسلّم : « من فرّ بدينه من أرض إلى أرض ، ولو كان شبرا ، استوجب الجنة ، وكان

رفيق إبراهيم ومحمد عليهما السلام » .
والفاء في قوله :
ج ٢١ ، ص : ٢٣
فَإِيَّايَ

(٢٠/٢١)

في جواب شرط محذوف ، إذ المعنى : إن أرضي واسعة إن لم تخلصوا العبادة لي في أرض ، فأخلصوها في غيرها.
كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ أي تناله لا محالة. تُرْجَعُونَ للجزاء ، ومن هذا عاقبته ينبغي أن يجتهد في الاستعداد لذلك الجزاء. لَنُبَوِّئَنَّهُمْ لننزلنهم ، وقرئ : (لنثوينهم) أي لنقيمنهم ، من الثواء ، أي الإقامة ، وتعدية هذا الفعل إلى كلمة غُرَفاً : بحذف مِنَ أي تكون منصوبة بنزع الخافض ، أو لأنه أجري مجرى (لننزلنهم).
خالِدِينَ فِيها ماكثين فيها على الدوام. نِعْمَ أَجْرُ الْعامِلِينَ وقرئ : « فنعم » والمخصوص بالمدح محذوف دل عليه ما قبله ، أي نعم هذا الأجر. الَّذِينَ صَبَرُوا أي هم الصابرون على أذى المشركين والهجرة لإظهار الدين وغير ذلك من المحن والمشاق. وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ أي ولا يتوكلون إلا على اللّه ، فيرزقهم من حيث لا يحتسبون ، لأن الرازق هو اللّه الذي يهيئ الأسباب للرزق وحده ، فلا تخافوا على معاشكم بالهجرة.
وَكَأَيِّنْ أي كم. لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا أي لا تطيق حمله لضعفها. وَهُوَ السَّمِيعُ لأقوالكم. الْعَلِيمُ بضمائركم.
سبب النزول : نزول الآية (٥٦) :
يا عِبادِيَ
: نزلت في ضعفاء مسلمي مكة ، كانوا في ضيق من إظهار الإسلام بها. قال مقاتل والكلبي : هذه الآية نزلت في تحريض المؤمنين الذين كانوا بمكة على الهجرة ، أي في قوم تخلفوا عن الهجرة وقالوا : نخشى إن هاجرنا من الجوع وضيق المعيشة.
نزول الآية (٦٠) :
وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ :
عن ابن عباس أن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم قال للمؤمنين بمكة حين آذاهم المشركون : اخرجوا إلى المدينة وهاجروا ، ولا تجاوروا الظلمة ، قالوا :

ليس لنا بها دار ولا عقار ، ولا من يطعمنا ، ولا من يسقينا ، فنزلت الآية :
وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ، اللَّهُ يَرْزُقُها وَإِيَّاكُمْ

أي ليس معها رزقها مدخرا ، وكذلك أنتم يرزقكم اللّه في دار الهجرة.
ج ٢١ ، ص : ٢٤
المناسبة :
بعد إنذار المشركين وأهل الكتاب بالخسران وجعلهم من أهل النار ، اشتد عنادهم وزاد فسادهم ، وكثر أذاهم للمؤمنين ، ومنعوهم من العبادة ، فأمرهم اللّه تعالى بالهجرة إلى بلاد أخرى ، إن تعذرت عليهم العبادة في بلادهم ، مما يدل على أن المقام في دار الحرب حرام ، والخروج منها واجب. وأبان تعالى أن توقع المكروه لا يمنع من الهجرة ، فالمكروه إن لم يحدث بالهجرة ، وقع بالموت في أي مكان ، كما أبان أنه سبحانه تكفل بأرزاق جميع مخلوقاته حيثما كانوا.
التفسير والبيان :
يا عِبادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي واسِعَةٌ ، فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ
أي أيها العباد المصدقون بي وبرسولي محمد صلّى اللّه عليه وسلّم ، إن أرضي واسعة غير ضيقة ، يمكنكم المقام فيها في أي موضع ، فإذا تعذرت عليكم العبادة وإقامة شعائر الدين بسبب منع الكفار وأذاهم ، فهاجروا إلى المكان الذي تتمكنون فيه من إقامة الشعائر الدينية.
وبالرغم من أن كلمة عِبادِيَ
لا تتناول إلا المؤمنين ، فقد أتبعت بوصف الَّذِينَ آمَنُوا
لا للتمييز ، بل لمجرد بيان اشتمالهم على هذا الوصف.
فهذا أمر للمؤمنين بالهجرة من البلد الذي لا يقدرون فيه على إقامة الدين إلى أرض اللّه الواسعة حيث يمكن إقامة الدين ، بأن يوحدوا اللّه ويعبدوه كما أمرهم ، وهو حثّ على إخلاص العبادة للّه تعالى.
والمقصود من الهجرة : إعداد المؤمن الكامل المخلص الذي يبيع نفسه وماله ووطنه في سبيل إعلاء كلمة اللّه تعالى ، وكانت الهجرة من مكة إلى المدينة واجبة قبل الفتح ، ثم زال وجوبها.
أخرج الإمام أحمد عن الزبير بن العوام رضي اللّه عنه قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : « البلاد بلاد اللّه ، والعباد عباد اللّه ، فحيثما أصبت خيرا فأقم » .

ج ٢١ ، ص : ٢٥

و لهذا لما ضاق على المستضعفين بمكة مقامهم فيها ، خرجوا مهاجرين إلى أرض الحبشة ، ليأمنوا على دينهم هناك ، فوجدوا خير المنزلين لدى أصحمة النجاشي ملك الحبشة رحمه اللّه تعالى ، فآواهم وأيدهم بنصره ، ثم هاجر رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم والصحابة الباقون إلى المدينة المنورة.

وبعد أن أمر اللّه تعالى عباده بالحرص على العبادة والإخلاص فيها وصدق الاهتمام بها ، أبان أن الدنيا ليست بدار بقاء ، وأمر بالاستعداد إلى دار الجزاء ، فقال :

كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنا تُرْجَعُونَ أي إن الموت كائن لا محالة بكل نفس ، وأينما كنتم يدرككم الموت ، فكونوا في طاعة اللّه ، وحيث أمركم اللّه ، فهو خير لكم ، فإن الموت لا بدّ منه ولا محيد عنه ، سواء في الوطن أو خارجه ، ثم إلى اللّه المرجع والمآب ، فمن كان مطيعا له جازاه أفضل الجزاء ، ووافاه أتم الثواب.

والخلاصة : أن المكروه لا بد من وقوعه ، فلا يصح أن يصعب على المؤمنين ترك الأوطان ومفارقة الإخوان.

ثم بيّن اللّه تعالى نوع جزاء المؤمن المهاجر بدينه ، فرارا من الشرك والمعاصي فقال :

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفاً تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ ، خالِدِينَ فِيها ، نِعْمَ أَجْرُ الْعامِلِينَ أي والذين صدقوا باللّه ورسوله ، وعملوا صالح الأعمال من التزام أوامر اللّه واجتناب نواهيه ، لننزلنهم أو لنسكننهم منازل عالية في الجنة تجري من تحت أشجارها الأنهار ، على اختلاف أصنافها من ماء وخمر وعسل ولبن ، ماكثين فيها أبدا ، لا يبغون عنها حولا ، جزاء لهم على أعمالهم ، نعم الجزاء ، ونعمت هذه الغرف أجرا على أعمال المؤمنين.

ج ٢١ ، ص : ٢٦

و هذا الجزاء في مقابل جزاء الكافرين السابق ذكره : وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكافِرِينَ فكما أن للكافرين النيران ، يكون للمؤمنين الجنان أجر عملهم.

ومن صفات هؤلاء العاملين :

الصبر والتوكل :

الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ أي إن أولئك المؤمنين الذين صبروا على القيام بواجبات دينهم من صلاة وصيام وهجرة في سبيل اللّه ، وجهاد الأعداء ، ومفارقة الأهل والأقرباء ابتغاء وجه اللّه ، وتحمل

أذى المشركين ، وتوكلوا على ربهم وفوضوا إليه أمورهم في أحوالهم كلها في دينهم ودنياهم ، فقاموا بما يجب عليهم ، ثم تركوا أمر تحقيق النتائج إلى ربهم ، من نصر ونجاح ورزق وعزة وغير ذلك.

وذكر صفتي الصبر والتوكل هنا مناسب للمقام ، فإن الهجرة والجهاد وترك الأوطان ومفارقة الإخوان تتطلب الصبر على تحمل الأذى ، والمواظبة على عبادة اللّه تعالى والتوكل عليه.

ثم ذكر اللّه تعالى ما يعين على التوكل وهو معرفة أن اللّه هو الكافي في رزق مخلوقاته فقال : وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ، اللَّهُ يَرْزُقُها وَإِيَّاكُمْ ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ أي إن الرزق لا يختص ببقعة ، بل رزقه تعالى عام لخلقه حيث كانوا وأين وجدوا ، فكم من دابة لا تطيق حمل رزقها لضعفها ، ولا تستطيع جمعه وتحصيله ولا تدخر شيئا لغد ، اللّه يقيض لها رزقها على ضعفها ، وييسره لها ، فيبعث إلى كل مخلوق من الرزق ما يصلحه ويكفيه ، سواء كان في باطن الأرض ، أو طيرا في الهواء ، أو حوتا في الماء ، واللّه هو السميع لأقوال عباده ، العليم بضمائرهم وأسرارهم وما في قلوبهم.

ج ٢١ ، ص : ٢٧

و قد أنجز اللّه وعده ، فكانت أرزاق المهاجرين في المدينة أكثر وأوسع وأطيب ، وصاروا بعد زمن قصير حكام البلاد في سائر الأقطار والأمصار. ونظير الآية قوله تعالى : وَما مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُها ، وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّها وَمُسْتَوْدَعَها ، كُلٌّ فِي كِتابٍ مُبِينٍ [هود ١١/ ٦].

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يلي :

١- الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام مطلوبة واجبة حال وجود أذى الكفار وتعذر إقامة شعائر الدين ، فعلى المسلم أن يتلمس عبادة اللّه في أرضه مع صالحي عباده ، فإن كان في حال مضايقة من إظهار الإيمان في أرض ، فهاجر إلى أرض أخرى ، فإن أرض اللّه واسعة ، لإظهار التوحيد بها. وهذا كان مناسبا للمؤمنين في صدر الإسلام حيث هاجروا من مكة مهد الشرك والوثنية إلى المدينة الطيبة المطهرة ، ثم ارتفع الوجوب ولم تعد الهجرة واجبة بعد فتح مكة ، وإنما بقيت الهجرة بمعنى هجر السوء وترك ما نهى اللّه عنه.

والآية نزلت في الهجرة قبل الفتح ، لا في الهجرة مطلقا في كل زمان ومن أي بلد ، ولكن بعمومها تعد مستندا للقول بوجوب الهجرة على الدوام عند الإمكان إذا لم يتمكن المسلم من إقامة شعائر دينه.

٢- رغّب اللّه في الهجرة السابقة من مكة إلى المدينة بتحقير أمر الدنيا ومخاوفها وبيان أن البشر كلهم ميتون ومحشورون إلى اللّه ، وما عليهم إلا المبادرة إلى طاعة اللّه والهجرة إليه وإلى ما يمتثل.

٣- وعد اللّه المؤمنين العاملين بسكنى الجنة تحريضا منه تعالى ، وذكر الجزاء الذي ينالونه وهو دخول الجنان التي تجري من تحتها الأنهار وإسكانهم المنازل العالية.

ج ٢١ ، ص : ٢٨

روى مسلم في صحيحة عن سهل بن سعد أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم قال : « إن أهل الجنة ليتراؤون أهل الغرف من فوقهم ، كما تتراؤون الكوكب الدرّيّ الغابر من الأفق من المشرق أو المغرب ، لتفاضل ما بينهم ، قالوا : يا رسول اللّه ، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم ، قال : بلى والذي نفسي بيده رجال آمنوا باللّه وصدّقوا المرسلين » .

و

روى الترمذي عن علي رضي اللّه عنه قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : « إن في الجنة لغرفا يرى ظهورها من بطونها وبطونها من ظهورها ، فقام إليه أعرابي فقال : لمن هي يا رسول اللّه ؟ قال : هي لمن أطاب الكلام ، وأطعم الطعام ، وأدام الصيام ، وصلّى اللّه بالليل والناس نيام » .

٤- من أهم صفات المؤمنين الذين يستحقون الجنان : الصبر على الأذى وعلى مشاق التكاليف الشرعية ، والتوكل على اللّه ، فهما صفتان يدلان على العلم باللّه تعالى ، وهما صفتان مناسبتان أيضا للهجرة والجهاد موضوع الآيات.

٥- بدد اللّه سبحانه مخاوف المهاجرين ومخاطر المغتربين ، فأبان أن الموت حتمي في أجل مسمى ، فلا يزيد العمر ولا ينقص ، سواء أكان الشخص مقيما في موطنه ، أم مسافرا مغتربا بعيدا عن بلده ، كما قال سبحانه : أَيْنَما تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ ، وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ [النساء ٤/ ٧٨].

وأبان أيضا أن الرزق مكفول ومقسوم منه تعالى ، كما قال تعالى : وَفِي السَّماءِ رِزْقُكُمْ وَما تُوعَدُونَ [الذاريات ٥١/ ٢٢] ومن رحمته سبحانه أنه

اعتراف ا

و فروعها ، فكيف يشركون به بعض مخلوقاته الذي لا يقدر على شيء من ذلك. الْحَمْدُ لِلَّهِ على ما عصمك من هذه الضلالة ، وعلى تصديقك وإظهار حجتك عليهم. بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ تناقضهم في ذلك ، إنهم يتناقضون حيث يقرون بأنه المبدئ لكل ما عداه ، ثم يشركون به الصنم.

ج ٢١ ، ص : ٣٠

المناسبة :

بعد بيان أمر المشركين ومطالبهم التعجيزية وسوء أعمالهم ، ثم مخاطبة المؤمنين بقوله تعالى : يا عِبادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا

ذكر تعالى ما يكون إرشادا للمشرك إذا فكر وتأمل ، بأسلوب أدبي رفيع تضمن نصح المفسد أولا ، ثم مخاطبة الرشيد ، ليسمع المفسد ، على طريقة : (إياك أعني واسمعي يا جارة) ، وكأن المتكلم يقول : إن هذا لا يستحق الخطاب ، فاسمع أنت ، ولا تكن مثل هذا المفسد ، فيتضمن هذا الكلام نصيحة المصلح ، وزجر المفسد ، ودعوته إلى سبيل الرشاد ، وهو الإقرار بوحدانية مبدع العالم ، وخالق السماء والأرض وما فيهما ، ورازق المخلوقات ، ومحيي الأرض بعد موتها.

التفسير والبيان :

وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ ، وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ، لَيَقُولُنَّ : اللَّهُ ، فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ أي واللّه لئن سألت يا محمد المشركين باللّه : من الذي أوجد وأبدع السموات وما فيها من الكواكب النيّرات ، والأرض وما حوته من كنوز ومعادن ، وذلّل الشمس والقمر يجريان لمصالح الخلق ، وأدى ذلك إلى تعاقب الليل والنهار ، لو سألتهم لأجابوا بأن المستقل بالخلق والإيجاد هو اللّه عز وجل.

وإذ أقروا بذلك واعترفوا ، فكيف يصرفون عن توحيد اللّه وإخلاص العبادة له ؟ ! فإن الاعتراف بأن اللّه هو الخالق يمنع المشركين من عبادة إله آخر سواه ، أو اتخاذ شريك معه ، والاعتراف بتوحيد الربوبية الصادر من المشركين بقولهم : « لبيك لا شريك لك إلا شريكا هو لك ، تملكه وما ملك » يقتضي الإقرار بتوحيد الألوهية ، وكثيرا ما يذكر اللّه تعالى توحيد الألوهية بعد الاعتراف بتوحيد الربوبية.

ج ٢١ ، ص : ٣١

و بعد الاعتراف بالخلق ، ذكر تعالى ما هو سبب لدوام الحياة ، وبقاء المخلوقات وهو الرزق ، فقال :

اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ، إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ أي إن اللّه يوسع الرزق لمن يريد من عباده امتحانا له ، ويضيق أو يقتّر على من يريد ابتلاء واختبارا ، فاللّه هو الخالق الرازق لعباده ، يقسم وحده الأرزاق على وفق الحكمة ومقتضى المصلحة ، لأن اللّه عليم بكل شيء من المفاسد والمصالح ، ومقتضيات سعة الرزق وتضييقه ، فيمنح ويمنع ، بما هو الأصلح وما هو خير لعباده في الحالين ، ويحصل التفاوت بين الناس في الأرزاق ، ويكون هناك الغني والفقير ، واللّه هو العليم بما يصلح كلّا منهم ، ومن يستحق الغنى ممن يستحق الفقر ، كما قال سبحانه : إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ [الذاريات ٥١/ ٥٨] وقال تعالى : وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبادِهِ ، لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ ، وَلكِنْ

يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ ما يَشاءُ ، إِنَّهُ بِعِبادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ [الشورى ٤٢/ ٢٧].

ثم ذكر تعالى سبب الرزق وهو إنزال الماء ، فقال :

وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّماءِ ماءً ، فَأَحْيا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِها ، لَيَقُولُنَّ : اللَّهُ أي ومن الحقائق الثابتة أنك لو سألتهم أيضا عمن ينزل المطر من السحاب ، فيحيي به الأرض الجدباء الهامدة التي لا حركة فيها بالنبات الأخضر ، لأجابوك بأنه هو اللّه المبدع الموجد لكل المخلوقات ، ثم يتعجب الإنسان من إشراكهم بعد ذلك بعض مخلوقاته.

(٢٨/٢١)

قُلِ : الْحَمْدُ لِلَّهِ ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ أي قل يا محمد : الحمد للّه على ثبوت الحجة عليهم ، واعترافهم بأن اللّه مصدر جميع النعم ، ولكن أكثر هؤلاء المشركين لا يعقلون هذا التناقض الحاصل منهم ، فتراهم يقولون بأن الخالق الموجد المحيي الرازق هو اللّه ، ثم يقولون بألوهية غير اللّه ، فيخالف فعلهم أقوالهم

ج ٢١ ، ص : ٣٢

و إقراراتهم ، ويعبدون مع اللّه إلها آخر سواه ليست له مقومات الألوهية ، ولا يدركون ما فيه الخير والمصلحة ودفع الضر عنهم.

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى ما يأتي :

١- يقر المشركون بأمرين أساسيين :

أولهما- أن اللّه هو الخالق المبدع المستقل بخلق السموات والأرض والشمس والقمر وتسخير الليل والنهار.

وثانيهما- أن اللّه هو الخالق الرازق لعباده ، المحيي الأرض بالماء النازل من السحاب ، فتصبح الأرض مخضرة بعد جدبها وقحط أهلها.

٢- ثم في مجال الأفعال ترى المشركين متناقضين مع أنفسهم ، فهم يقرون بوجود اللّه ، ثم يشركون معه إلها آخر من مخلوقاته.

٣- وإذا اعترفتم بأن اللّه خالق كل الأشياء في السماء والأرض ، فكيف تشكّون في الرزق ؟ فمن بيده تكوين الكائنات لا يعجز عن رزق العباد ، وكيف تكفرون بتوحيد اللّه ، وتتحولون عن إخلاص العبادة للّه ؟

وإذا أقررتم بأن اللّه يحيي الأرض الجدبة ، فلم تشركون به وتنكرون الإعادة ؟ ومن قدر على ذلك فهو

القادر على إغناء المؤمنين.

٤- لا يختلف أمر الرزق بالإيمان والكفر ، فالتوسيع والتقتير من اللّه ، فلا تعيير بالفقر ، فكل شيء بقضاء وقدر ، واللّه عليم بكل شيء من أحوال العباد وأمورهم ، وبما يصلحهم من إقتار أو توسيع.

٥- يستحق اللّه الحمد على ما أوضح من الحجج والبراهين على قدرته وعلى

ج ٢١ ، ص : ٣٣

إقرار المشركين بوجود اللّه ، ولكن أكثر المشركين لا يتدبرون هذه الحجج ، ولا يعون ما فيه النفع والمصلحة الحقيقية.

بيان حال الدنيا واضطراب أوضاع الكفار فيها [سورة العنكبوت (٢٩) : الآيات ٦٤ الى ٦٩]

وَما هذِهِ الْحَياةُ الدُّنْيا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوانُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ (٦٤) فَإِذا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذا هُمْ يُشْرِكُونَ (٦٥) لِيَكْفُرُوا بِما آتَيْناهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٦٦) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنا حَرَماً آمِناً وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْباطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ (٦٧) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْكافِرِينَ (٦٨)

وَ الَّذِينَ جاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (٦٩)

الإعراب :

لَهِيَ الْحَيَوانُ يجوز في هاء لَهِيَ الكسر والتسكين ، فمن كسر أتى به على الأصل ، ومن سكن حذف الكسرة تخفيفا ، كما قالوا في كتف وكتف. والحيوان : أصله « الحييان » بياءين ، إلا أنه لما اجتمعت ياءان متحركتان ، استثقلوا اجتماعهما ، فأبدلوا من الياء الثانية واوا كراهية لاجتماع ياءين متحركتين ، وكان قلب الثانية أولى من الأولى لأن الثانية هي التي حصل التكرار بها.

وَلِيَتَمَتَّعُوا قرئ بكسر اللام وسكونها ، وهي لام الأمر ومعناه التهديد ، فمن قرأ بالكسر فعلى الأصل ، ومن سكّن فعلى التخفيف ، كما قالوا في « كتف كتف » .

البلاغة :

وَ ما هذِهِ الْحَياةُ الدُّنْيا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ تشبيه بليغ أي كاللهو واللعب ، حذفت أداة التشبيه ووجه الشبه.

ج ٢١ ، ص : ٣٤

حَرَماً آمِناً مجاز عقلي ، أي آمنا أهله.

لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ إيجاز بحذف جواب الشرط ، أي لو علموا لما آثروا الدنيا على الآخرة.

يَعْلَمُونَ يُشْرِكُونَ يَكْفُرُونَ فيها مراعاة الفواصل ، ذات الإيقاع والتأثير على السمع.

المفردات اللغوية :

وَما هذِهِ الْحَياةُ الدُّنْيا إشارة تهوين وتحقير ، لأن الدنيا لا تزن عند اللّه جناح بعوضة.

لَهْوٌ وَلَعِبٌ أي كلهو الصبيان ولعبهم ، يبتهجون ساعة ثم يتفرقون متعبين ، وأما الطاعات والقرب فمن أمور الآخرة ، لظهور ثمرتها فيها. واللهو : الاستمتاع بالملذات ، واللعب : هو العبث وما لا فائدة فيها. لَهِيَ الْحَيَوانُ أي لهي دار الحياة الحقيقية التامة التي لا فناء فيها. لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ تلك الحقيقة ما آثروا الدنيا عليها.

الْفُلْكِ السفينة السائرة في البحر. مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الدعاء ، أي لا يدعون معه غيره ، لأنهم في شدة لا يكشفها إلا اللّه ، فيظهرون في صورة من أخلص دينه من المؤمنين ، فلا يذكرون إلا اللّه ، ولا يدعون سواه. إِذا هُمْ يُشْرِكُونَ فاجؤوا المعاودة إلى الشرك.

لِيَكْفُرُوا بِما آتَيْناهُمْ اللام فيه لام « كي » أي يشركون ليكونوا كافرين بشركهم نعمة النجاة وكذلك اللام في : وَلِيَتَمَتَّعُوا باجتماعهم على عبادة الأصنام وتوادهم عليها ، أي قاصدين التمتع بها والتلذذ ، لا غير ، أي أن هذه اللام لام التعليل في تقدير اللّه ، ولام العاقبة بالنسبة إليهم.

ويصح أن تكون اللام في الفعلين المذكورين لام الأمر ، وهو أمر تهديد فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ عاقبة ذلك.

(٣١/٢١)

أَ وَلَمْ يَرَوْا يعلموا ، يعني أهل مكة أَنَّا جَعَلْنا حَرَماً آمِناً أي جعلنا بلدهم مكة مصونا من النهب والتعدي ، آمنا أهله من القتل والسبي. وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ يختلسون قتلا وسبيا ، وهم في أمان.

أَفَبِالْباطِلِ أي بعد هذه النعمة الواضحة وغيرها مما لا يقدر عليه إلا اللّه يؤمنون بالصنم أو الشيطان.

وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ حيث أشركوا به غيره.

وتقديم الجار والمجرور في قوله فَبِالْباطِلِ وبِنِعْمَةِ اللَّهِ للاهتمام أو الاختصاص على طريق المبالغة.

وَمَنْ أَظْلَمُ أي لا أحد. مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً بأن زعم أن له شريكا. أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جاءَهُ أي كذب بالنبي الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم أو القرآن. وقوله لَمَّا فيه تسفيه لهم بأن لم يتوقفوا ، ولم يتأملوا قط حين جاءهم ، بل سارعوا إلى التكذيب أول ما سمعوه. أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً مأوى ،

والاستفهام تقرير لثوائهم ، أي ألا يستوجبون الثواء في جهنم ، وقد افتروا مثل هذا

ج ٢١ ، ص : ٣٥

الكذب على اللّه وكذبوا بالحق!! وَالَّذِينَ جاهَدُوا فِينا أي في حقنا ، والجهاد يعم أنواع الجهاد الظاهرة والباطنة لكل الأعداء. لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا طريق السير إلينا أو لنزيدنهم هداية إلى سبيل الخير وتوفيقا لسلوكها. وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ أي المؤمنين بالنصر والعون.

سبب النزول : نزول الآية (٦٧) :

أَوَلَمْ يَرَوْا .. أخرج جويبر عن ابن عباس أنهم قالوا : يا محمد ، ما يمنعنا أن ندخل في دينك إلا مخافة أن يتخطفنا الناس لقلتنا ، والأعراب أكثر منا ، فمتى ما يبلغهم أنا قد دخلنا في دينك اختطفنا ، فكنا أكلة رأس ، فأنزل اللّه :

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنا حَرَماً آمِناً.

المناسبة :

بعد بيان كون المشركين يعترفون بأن اللّه هو الخالق وهو الرازق وهو المحيي ، وهم مع ذلك يتركون عبادته ، ويعبدون من دونه الشركاء حرصا على زينة الحياة الدنيا ومكاسبها المادية ، أوضح اللّه تعالى أن ما يميلون إليه وهو الدنيا ليس بشيء ، وأن الحياة الآخرة هي الحياة الحقة التامة التي تستحق الحرص عليها والعمل من أجلها ، فلو كان عندهم شيء من العلم ما آثروا الدنيا الفانية على الآخرة الباقية.

ثم أبان اللّه تعالى أحوال تخبطهم وتناقضهم ، فهم مع شركهم بربهم في الدعاء والعبادة إذا تعرضوا لمحنة أو شدة ، رجعوا إلى الفطرة الشاهدة بالتوحيد ، ولجؤوا إلى اللّه وحده ، وأخلصوا له النية والدعاء لتخليصهم من الشدة ، وتلك نعمة عظمي.

ثم ذكّرهم تعالى بنعمة أخرى تتناسب مع حال الخوف الشديد ، وهي حالهم عند الأمن العظيم وهي كونهم في مكة بلدهم ومولدهم ومسكنهم البلد الآمن الحرام ، بتحصين اللّه أمنها ، ودفع الشرور عن سكانها ، لكنهم نفعيون متناقضون

ج ٢١ ، ص : ٣٦

جاحدون النعمة في الحالتين : نعمة النجاة ونعمة الأمن في بلدهم ، فاستحقوا اللوم والتعنيف ، إذ أنهم في أخوف ما كانوا ، يدعون اللّه ، وفي آمن ما حصلوا عليه من الأمن السكني ، يكفرون باللّه ، فكيف يكفرون باللّه حين الأمن. ويؤمنون به حال الخوف ؟ !

التفسير والبيان :

وَما هذِهِ الْحَياةُ الدُّنْيا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ، وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوانُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ يقارن اللّه تعالى بين الدنيا والآخرة ، ويخبر بأن الحياة الدنيا حقيرة زائلة لا دوام لها ، وغاية ما فيها لهو يتلهى به ، ولعب يتسلى به ، وأما الآخرة فهي دار الحياة الدائمة التي لا تزول ولا تنقضي ، بل هي مستمرة أبد الآباد ، فلو علموا ذلك لآثروا ما يبقى على ما يفنى.

(٣٣/٢١)

و الفرق بين اللهو واللعب : أن اللعب إقبال على الباطل ، واللهو : إعراض عن الحق. وليس المراد بالحيوان : الشيء النامي المدرك ، وإنما الحيوان مصدر حي كالحياة ، لكن فيها مبالغة ليست في الحياة.

ثم يخبر اللّه تعالى عن حال المشركين حين الترفع عن الدنيا ووقت التعرض للمحنة والشدة ، فيقول : فَإِذا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ، فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذا هُمْ يُشْرِكُونَ أي إن المشركين عند الاضطرار يدعون اللّه وحده لا شريك له ، فهلا يكون هذا منهم دائما ؟ ! فتراهم إذا ركبوا في السفينة ، وأحدق بهم الغرق ، دعوا اللّه وحده ، مفردين إياه بالطاعة ، مخلصين له النية ، صادقين في اتجاههم إلى اللّه ، فإذا تحقق لهم الأمن والنجاة من الهلاك ، عادوا إلى شركهم ، ودعوا الآلهة المزعومة كافرين بنعمة النجاة.

ج ٢١ ، ص : ٣٧

و نحو الاية قوله تعالى : وَإِذا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ، ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ ، فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ، وَكانَ الْإِنْسانُ كَفُوراً [الإسراء ١٧/ ٦٧] وهذا دليل على أن معرفة اللّه في فطرة كل إنسان.

ذكر محمد بن إسحاق عن عكرمة بن أبي جهل أنه لما فتح رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم مكة ، ذهب فارّا منها ، فلما ركب في البحر ، ليذهب إلى الحبشة ، اضطربت بهم السفينة ، فقال أهلها : يا قوم أخلصوا لربكم الدعاء ، فإنه لا ينجي هاهنا إلا هو ، فقال عكرمة : واللّه لئن كان لا ينجي في البحر غيره ، فإنه لا ينجي في البر أيضا غيره ، اللهم لك علي عهد لئن خرجت لأذهبنّ ، فلأضعن يدي في يد محمد ، فلأجدنّه رؤفا رحيما ، فكان كذلك » .

(٣٤/٢١)

لِيَكْفُرُوا بِما آتَيْناهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا ، فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ اللام لام العاقبة أو الصيرورة ، أي يشركون لتكون عاقبة أمرهم الكفر بنعمة النجاة ، والتمتع بالاجتماع على عبادة الأصنام ، وعقد الروابط بسببها ، ولكنهم سوف يعلمون عاقبة فعلهم هذا ، وسيجازون الجزاء الوفاق على أعمالهم. وهذا وصف لسوء ما يترتب على شركهم ، وتهديد ووعيد على بقائهم على كفرهم.

ويصح أن تكون اللام لام الأمر ، ويكون المعنى التهديد أي : ليكفروا ، كما قال تعالى : اعْمَلُوا ما شِئْتُمْ [فصلت ٤١/ ٤٠] وقال : اعْمَلُوا عَلى مَكانَتِكُمْ ، إِنِّي عامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ [الزمر ٣٩/ ٣٩] فساد ما تعملون.

ثم وصف اللّه تعالى تناقض المشركين إذ يلجأون إلى اللّه وحده مخلصين له الدعاء وقت الشدة ، ويكفرون باللّه ويشركون به حين الأمن في بلدهم مكة ، فقال :

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنا حَرَماً آمِناً وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ، أَفَبِالْباطِلِ يُؤْمِنُونَ ، وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ؟ ! أي أولم يعلم هؤلاء المشركون ما أنعمنا به عليهم من إسكانهم في بلد حرام آمن وهو مكة ، لا يتعرضون فيه لقتل وسبي

و خطف ، فيشكروا اللّه على هذه النعمة ، وهذا امتنان على قريش بما أحلهم من حرم اللّه الآمن ، كما قال سبحانه : وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ [قريش ١٠٦/ ٤].

ولكن عجبا لهم أنهم قابلوا الشكر بالكفر ، أفكان شكرهم على هذه النعمة العظيمة أن أشركوا به ، وعبدوا معه غيره من الأصنام والأنداد ، وبدلوا نعمة اللّه كفرا ، فكفروا بنبي اللّه وعبده ورسوله ؟ ! فكان اللائق بهم إخلاص العبادة للّه ، وألا يشركوا به ، وأن يصدّقوا برسوله ، ويعظموه ويوقروه.

وبعد بيان حالهم العجيبة وتناقضهم ، أبان اللّه تعالى أنهم قوم أظلم من يكون ، فقال :

وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جاءَهُ ، أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْكافِرِينَ ؟ أي لا أحد أشد عقوبة ممن كذب على اللّه بالشرك وتكذيب كتابه ورسوله وقوله : إن اللّه أوحى إليه ، ولم يوح إليه شيء ، أو قوله إذا فعل فاحشة : إن اللّه أمر بها ، واللّه لا يأمر بالفحشاء ، ألا يستوجب هؤلاء المشركون من أهل مكة وأمثالهم المقام في جهنم ؟

وهذا تسفيه آرائهم وتقريع لهم ، وتبيين سوء مصيرهم ، بطريق الاستفهام التقريري الذي هو أبلغ في إثبات العقاب المنتظر لهم.

وبعد بيان عاقبة الكافرين ، أبان اللّه تعالى عاقبة المؤمنين فقال :

وَالَّذِينَ جاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا ، وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ أي من جاهد بالطاعة ، ونصر دين اللّه ، وقاتل أعداء اللّه المكذبين بكتابه ورسوله ، هداه اللّه ووفقه إلى طريق الجنة وطريق السعادة والخير في الدنيا والآخرة ، كما قال : وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زادَهُمْ هُدىً وَآتاهُمْ تَقْواهُمْ [محمد ٤٧/ ١٧] و جاء في الحديث الثابت : « من عمل بما علم ، ورّثه اللّه علم ما لم يعلم » .

ج ٢١ ، ص : ٣٩

و اللّه مع المحسنين أعمالهم بالنصرة والإعانة ، والتأييد والحفظ والرعاية والتوفيق ، روى ابن أبي حاتم عن الشعبي قال : قال عيسى بن مريم عليه السلام :

« إنما الإحسان أن تحسن إلى من أساء إليك ، ليس الإحسان أن تحسن إلى من أحسن إليك » .

فقه الحياة أو الأحكام :

يفهم من الآيات ما يأتي :

١- الحياة الدنيا بما فيها من المال والجاه والملبس ملهاة وملعب ، أو شيء يلهى به ويلعب ، وليس ما أعطاه اللّه الأغنياء من الدنيا إلا وهو يضمحل ويزول ، كاللعب الذي لا حقيقة له ولا ثبات.

٢- ما يعمل في الدنيا للّه من القرب والطاعات هو من الآخرة ، وهو الذي يبقى ، كما قال تعالى : وَيَبْقى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالْإِكْرامِ [الرحمن ٥٥/ ٢٧] أي يبقى ما ابتغي به ثواب اللّه ورضاه.

٣- إن الدار الآخرة هي دار الحياة الباقية التي لا تزول ولا موت فيها ، وهي الحياة الصحيحة ، فلا حياة إلا حياة الآخرة ، وعبّر عنها بالحيوان : وهو الحياة ، لأن فيها مبالغة ليست في الحياة.

٤- المشركون قوم متناقضون ، فتراهم في وقت الشدة المستعصية ، كما إذا ركبوا في السفن وخافوا الغرق ، يدعون اللّه صادقين في نياتهم ، ويتركون دعاء الأصنام وعبادتها ، فإذا وصلوا إلى بر الأمان دعوا معه غيره ، وما لم ينزل به سلطانا أو حجة ، وما لا حقيقة لألوهيته أصلا ، فهم يشركون في البر ، ولا يشركون في البحر.

٥- إن عاقبة الشرك أو ثمرته أن يجحد المشركون نعم اللّه ويتمتعوا بالدنيا ،

ج ٢١ ، ص : ٤٠

و اللّه يهددهم ويوعدهم ويقول لهم : اكفروا بما أعطيناكم من النعمة والنجاة من البحر وتمتعوا.

٦- جعل اللّه البيت الحرام مثابة للناس وأمنا : وَمَنْ دَخَلَهُ كانَ آمِناً [آل عمران ٣/ ٩٧] وتلك نعمة تستحق الشكر والحمد للّه والإذعان له بالطاعة ، لا سيما إذا قورنت مكة بما عليه أحوال أهل البلاد الأخرى المجاورة ، حيث يقتل بعضهم بعضا ، ويسبي بعضهم بعضا ، ويغار بعضهم على بعض.

ولكن المشركين كما تقدم تتناقض أحوالهم ، فهم بالشرك أو بإبليس يؤمنون وبنعمة اللّه وعطائه وإحسانه يكفرون ويجحدون.

٧- لا أحد أظلم ممن جعل مع اللّه شريكا وولدا ، وإذا فعل فاحشة قال :

وَجَدْنا عَلَيْها آباءَنا وَاللَّهُ أَمَرَنا بِها [الأعراف ٧/ ٢٨] وكذّب بالقرآن أو بتوحيد اللّه ، وأنكر رسالة محمد صلّى اللّه عليه وسلّم ، وعاقبتهم الثّواء في نار جهنم.

(٣٧/٢١)

٨- إن المجاهدين جهادا عاما في دين اللّه وطلب مرضاته يوفقهم ربهم إلى سبل الخير والسعادة في الدنيا والآخرة. قال عمر بن عبد العزيز رحمه اللّه : « إنما قصّر بنا عن علم ما جهلنا تقصيرنا في العمل بما علمنا ، ولو عملنا ببعض ما علمنا ، لأورثنا علما لا تقوم به أبداننا » قال اللّه تعالى : وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ [البقرة ٢/ ٢٨٢].

قال ابن عطية في آية : وَالَّذِينَ جاهَدُوا فِينا : هي قبل الجهاد العرفي ، وإنما هو جهاد عام في دين اللّه وطلب مرضاته.

وقال أبو سليمان الداراني : ليس الجهاد في الآية قتال الكفار فقط ، بل هو نصر الدين ، والرد على المبطلين ، وقمع الظالمين ، وعظمه : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ومنه مجاهدة النفوس في طاعة اللّه ، وهو الجهاد الأكبر.

ج ٢١ ، ص : ٤١

٩- إن اللّه لمع المحسنين بالنصرة والمعونة ، والحفظ والهداية ، ومع جميع الناس بالإحاطة والقدرة. فتكون فائدة المجاهدين في طاعة اللّه أمرين : التوفيق للخير والإيمان والسعادة ، والعون والتأييد والحفظ.

ج ٢١ ، ص : ٤٢

بسم اللّه الرّحمن الرّحيم

سورة الروم

مكية ، وهي ستون آية.

تسميتها :

سميت سورة الروم لافتتاحها بخبر غلبة الروم ، والإخبار عن نصرهم بعدئذ في بضع سنين ، وتلك إحدى معجزات القرآن العظيم بالإخبار عن المغيبات في المستقبل ووقوع الشيء كما أخبر به.

موضوعها :

هو موضوع سائر السور المكية التي تبحث في أصول العقيدة الإسلامية وهي التوحيد وصفات اللّه تعالى ، والإيمان بالرسالة النبوية ، وبالبعث والجزاء في الآخرة.

مناسبتها لما قبلها :

تتشابه سورة الروم وسورة العنكبوت التي قبلها في المطلع ، فإن كلا منهما افتتح ب الم غير مقرون بذكر التنزيل والكتاب والقرآن ، على خلاف القاعدة الخاصة في المفتتح بالحروف المقطعة ، فإنها كلها قرنت بذلك إلا هاتين السورتين وسورة القلم. وقد ذكر في أول هذه السورة ما هو معجزة وهو الإخبار عن الغيب ، فقدمت هذه الحروف الهجائية لتنبيه السامع والإقبال بقلبه وعقله وروحه على الاستماع.

ج ٢١ ، ص : ٤٣

و هناك تشابه آخر بين السورتين من وجوه ثلاثة :

الأول- إن السورة السابقة بدئت بالجهاد وختمت به : وَالَّذِينَ جاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا وبدئت هذه السورة بوعد المؤمنين بالغلبة والنصر ، وهم يجاهدون في سبيل اللّه تعالى.

الثاني- إن الاستدلال في هذه السورة على أصول الاعتقاد وأهمها التوحيد جاء مفصلا للمجمل في السورة السابقة مثل قوله تعالى : أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ [١٩] فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ [٢٠].

الثالث- ترتب على التفرقة بين المشركين وأهل الكتاب في السورة المتقدمة أن أبغض المشركون أهل الكتاب ، وتركوا مراجعتهم في الأمور ، وكانوا من قبل يراجعونهم في الأمور ، وسبب البغضاء أن المشركين في جدالهم نسبوا إلى عدم العقل : بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ [٦٣] وطلب مجادلة أهل الكتاب بالحسنى وَلا تُجادِلُوا أَهْلَ الْكِتابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ [٤٦] وكان أهل الكتاب يوافقون النبي في الإله ، كما قال تعالى : وَإِلهُنا وَإِلهُكُمْ واحِدٌ [٤٦].

فلما غلب أهل الكتاب حين قاتلهم الفرس المجوس ، فرح المشركون بذلك ، فأنزل اللّه تعالى أوائل سورة الروم لبيان أن الغلبة لا تدل على الحق ، وإنما قد يريد اللّه تعالى مزيد ثواب في المحب ، فيبتليه ويسلط عليه الأعادي ، وقد يختار للمعادي تعجيل العذاب الأدنى ، دون العذاب الأكبر يوم القيامة.

مشتملات السورة :

افتتحت السورة بإثبات النبوة بالإخبار بالغيب ، وهو انتصار الروم على الفرس في حرب تقع بينهما في غضون بضع سنوات (من ٣- ٩ سنوات) ووقع الخبر كما أخبر القرآن ، وتلك معجزة القرآن تثبت صدق النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، وتتضمن البشارة بنصر جند الرحمن على حزب الشيطان.

ج ٢١ ، ص : ٤٤

ثم ذكرت أدلة الوحدانية وعظمة القدرة الإلهية بالتأمل في صفحة الكون والنظر في خلق السموات والأرض ، والاعتبار بمأساة المكذبين الغابرين وعاقبتهم السيئة ، وأردف بعدها أدلة البعث ، والأمر بعبادة اللّه وحده ، وذلك مقتضى الفطرة التي فطر الناس عليها.

ونوقش فيها المشركون وضربت لهم الأمثال في أن الشركاء ضعفاء عاجزون لا يملكون لأنفسهم يوم القيامة نفعا ، ولا يتمكنون دفع الضر عن أحد ، ولا يستطيعون خلق شيء وإيجاده ولا إمداد أحد بالرزق. وكشف القرآن حقيقة حال المشركين كما ذكر في السورة المتقدمة وهي لجوءهم إلى اللّه وقت الضر ، وإشراكهم به وقت الرخاء ، وأميط اللثام عن طبيعة الإنسان وهي الفرح بالنعمة ، والقنوط حين الشدة إلا من آمن وعمل صالحا.

ونهى اللّه تعالى عن اتباع المشركين وغيرهم الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا ، ثم أمر تعالى بالتصدق على ذوي القربى والمساكين وابن السبيل ، واجتناب أكل الربا ، وتنمية المال بوجوه الحلال وتطهيره بالزكاة.

ثم قارنت السورة بين مصير المؤمنين في روضات الجنان فضلا من اللّه تعالى ، ومصير الكافرين في نيران الجحيم جزاء أعمالهم وكفرهم ، وحينئذ تظهر فائدة الإيمان والخير ، وظلام الكفر والشر.

وأعقب ذلك إيراد بعض الأدلة الكونية الناطقة بقدرة اللّه والدالة على وحدانيته من إرسال الرياح مبشرات بالرحمة ، وتسيير السفن في البحار ، وتمكين المسافرين من التجارة وابتغاء فضل اللّه في أقطار الأرض ، والدلائل الملحوظة في الأنفس من خلق ثم رزق ، ثم إماتة ، ثم إحياء.

وختمت السورة بتسلية الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم عن إعراض قومه عن الإيمان برسالته بأنهم أغلقوا منافذ الهداية ، وعطلوا طاقات الفكر والعقل عن النظر في وسائل

ج ٢١ ، ص : ٤٥

الوصول إلى الإيمان باللّه ، فهم صمّ عمي لا يسمعون ولا يبصرون ، وأنهم مهما رأوا من الآيات ، وشاهدوا من البراهين والمعجزات ، لن يؤمنوا بسبب العناد ، والتشبث بمواقع الكفر ، والحفاظ على مراكز الزعامة والنفوذ بين العرب.

وهذا يقتضي الصبر على أذى المشركين حتى يأتي النصر ، ومتابعة القيام بواجب تبليغ الرسالة ، فإنه قد يهتدي بعضهم أو غيرهم ، وسيكون النصر في جانب الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم ، والخذلان لمن كذب به ، ولن يؤثر في مسيرة دعوته كفر الذين لا يوقنون بالبعث بعد الممات.

الإخبار بالغيب في المستقبل [سورة الروم (٣٠) : الآيات ١ الى ٧]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الم (١) غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤)

بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٥) وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٦) يَعْلَمُونَ ظاهِراً مِنَ الْحَياةِ الدُّنْيا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غافِلُونَ (٧)

الإعراب :

مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ غلب : مصدر مضاف إلى المفعول ، وتقديره : وهم من بعد أن غلبوا سيغلبون.

مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ ظرف مبني على الضم لأنه مقطوع عن الإضافة ، لأن المضاف والمضاف إليه بمنزلة كلمة واحدة ، فلما اقتطع عن الإضافة ، نزّل منزلة بعض الكلمة ، وبعض الكلمة مبني. والبناء على الضم تعويضا عن المحذوف ، لأنه أقوى الحركات ، ولئلا تلتبس حركة الإعراب بحركة البناء ، فلو بني على الفتح أو الكسر ، لالتبست حركة الإعراب بحركة البناء.

ج ٢١ ، ص : ٤٦

بِنَصْرِ اللَّهِ في موضع نصب ، متعلق ب يَفْرَحُ.

وَعْدَ اللَّهِ منصوب على المصدر المؤكد لما قبله ، والمصدر مضاف إلى الفاعل.

البلاغة :

غُلِبَتِ وسَيَغْلِبُونَ بينهما طباق ، وكذا بين قَبْلُ وبَعْدُ.

لا يَعْلَمُونَ يَعْلَمُونَ ظاهِراً بينهما طباق السلب.

الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ صيغة مبالغة ، أي البالغ نهاية العزة وغاية الرحمة.

وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غافِلُونَ تكرار الضمير لإفادة الحصر ، والتعبير بالجملة الاسمية للدلالة على استمرار الغفلة.

المفردات اللغوية :

غُلِبَتِ الرُّومُ الروم : أمة ذات مدنية وحضارة وقوة ، من ولد روم بن عيص بن إسحاق بن إبراهيم ، كانوا نصارى ، غلبتهم فارس الذين كانوا يعبدون الأوثان ، ففرح كفار مكة بذلك ، وقالوا للمسلمين : نحن نغلبكم كما غلبت فارس الروم فِي أَدْنَى الْأَرْضِ أقرب أرض الروم إلى فارس بالجزيرة ، وأقرب مكان إلى أرض العرب من جهة الشام ، فيها التقى الجيشان ، وكان الفرس هم البادئين بالغزو وَهُمْ الروم مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ أضيف المصدر إلى المفعول ، أي غلبة فارس إياهم سَيَغْلِبُونَ فارس.

فِي بِضْعِ سِنِينَ البضع : ما بين الثلاث إلى التسع أو إلى العشر ، وقد تم لقاء الجيشين فعلا في السنة السابعة من اللقاء الأول ، وغلبت الروم فارس لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ أي من قبل غلب الروم ومن بعده ، والمعنى أن غلبة الفرس أولا وغلبة الروم ثانيا تم بأمر اللّه ، أي إرادته وَيَوْمَئِذٍ يوم تغلب الروم.

بِنَصْرِ اللَّهِ أي نصر أهل الكتاب على من لا كتاب له الْعَزِيزُ الغالب الرَّحِيمُ الواسع الرحمة بالمؤمنين وَعْدَ اللَّهِ مصدر مؤكد للفعل ، أي وعدهم اللّه النصر وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ كفار مكة لا يَعْلَمُونَ وعده تعالى بنصرهم لجهلهم وعدم تفكيرهم يَعْلَمُونَ ظاهِراً مِنَ الْحَياةِ الدُّنْيا أي ما يشاهدونه منها من المعايش في التجارة والزراعة والبناء والغرس وغير ذلك.

وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غافِلُونَ أي أنهم غافلون عن الغاية والمقصود من الحياة ، لا تخطر ببالهم ، وإعادة هُمْ تأكيد.

ج ٢١ ، ص : ٤٧

سبب النزول :

أخرج الترمذي عن أبي سعيد الخدري قال : لما كان يوم بدر ، ظهرت الروم على فارس ، فأعجب ذلك المؤمنين ، فنزلت الم ، غُلِبَتِ الرُّومُ.

(٤٣/٢١)

و أخرج ابن أبي حاتم عن ابن شهاب الزهري قال : بلغنا أن المشركين كانوا يجادلون المسلمين ، وهم بمكة ، قبل أن يخرج رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، فيقولون : الروم يشهدون أنهم أهل كتاب ، وقد غلبتهم المجوس ، وأنتم تزعمون أنكم ستغلبوننا بالكتاب الذي أنزل على نبيكم ، فكيف غلب المجوس الروم ، وهم أهل كتاب ؟ ! فسنغلبكم كما غلب فارس الروم ، فأنزل اللّه : الم ، غُلِبَتِ الرُّومُ.

وأخرج الترمذي والنسائي وابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي : أن فارس غزوا الروم ، فوافوهم بأذرعات وبصرى من أرض الشام ، فغلبوا عليهم ، وبلغ ذلك النبي صلّى اللّه عليه وسلّم وأصحابه وهو بمكة ، فشق ذلك عليهم ، من قبل أن الفرس مجوس ، والروم أهل الكتاب ، وفرح المشركون بمكة وشمتوا ،

ولقوا أصحاب النبي صلّى اللّه عليه وسلّم وهم فرحون ، وقالوا : إنكم أهل كتاب ، والنصارى أهل كتاب ، وقد ظهر إخواننا من أهل فارس على إخوانكم من أهل الكتاب ، وإنكم إن قاتلتمونا لنظهرنّ عليكم ، فأنزل اللّه هؤلاء الآيات.

فخرج أبو بكر رضي اللّه عنه إلى المشركين ، فقال : أفرحتم بظهور إخوانكم على إخواننا ؟ فلا تفرحوا ، ولا يقرّنّ اللّه أعينكم « ١ » ، فو اللّه لتظهرنّ الروم على فارس ، كما أخبرنا بذلك نبينا صلّى اللّه عليه وسلّم ، فقام إليه أبيّ بن خلف فقال : كذبت ، فقال : أنت أكذب يا عدو اللّه ، اجعل بيننا أجلا أناحبك عليه « ٢ » على عشر قلائص « ٣ » مني ، وعشر قلائص منك ، فإن ظهرت الروم على فارس غرمت ،

---

(١) لا يسرّنكم.

(٢) أراهنك.

(٣) جمع قلوص وهي الناقة الشابة الفتية.

و إن ظهرت فارس غرمت إلى ثلاث سنين ، فناحبه ، ثم جاء إلى النبي صلّى اللّه عليه وسلّم فأخبره ، فقال صلّى اللّه عليه وسلّم : « زايده في الخطر « ١ » وماده في الأجل »

فخرج أبو بكر ، فلقي أبيا ، فقال : لعلك ندمت ، فقال : لا ، تعال أزايدك في الخطر ، وأمادّك في الأجل ، فاجعلها مائة قلوص إلى تسع سنين ، قال : قد فعلت ، فلما أراد أبو بكر الهجرة ، طلب منه أبي كفيلا بالخطر إن غلب ، فكفل به ابنه عبد الرحمن ، فلما أراد أبيّ الخروج إلى أحد ، طلبه عبد الرحمن بالكفيل ، فأعطاه كفيلا ، ومات أبيّ من جرح جرحه إياه النبي صلّى اللّه عليه وسلّم في الموقعة ، وظهرت الروم على فارس لما دخلت السنة السابعة ، فأخذ أبو بكر الخطر من ورثة أبي ، و جاء به إلى النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، فقال النبي صلّى اللّه عليه وسلّم : « تصدّق به » .

وقد كان هذا قبل تحريم القمار ، لأن السورة مكية ، وتحريم الخمر والميسر بالمدينة. واستدل به الحنفية على جواز العقود الفاسدة في دار الحرب.

والآية من دلائل النبوة ، لأنها إخبار عن الغيب.

التفسير والبيان :

الم هذه الحروف المقطعة التي تقرأ هكذا : « ألف ، لام ، ميم » للتنبيه على إعجاز القرآن ، كما تقدم

في أمثالها ، وتنبيه السامع على الاستماع بقلبه لما يلقى إليه بعدها.
غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ ، وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ، فِي بِضْعِ سِنِينَ أي غلبت فارس قوم الروم في أقرب أرض الروم إلى بلاد العرب في مشارف الشام ، بين الأردن وفلسطين ، وسيغلب الروم فارس في بضع سنين (ما بين الثلاث إلى العشر من السنين) من تاريخ الوقعة الأولى ، وتلك الأيام نداولها بين الناس.

---

(١) الخطر : السبق الذي يتراهن عليه أي الرهن الذي يخاطر عليه.

و هذا إخبار بالغيب عن أمر في المستقبل ، أيده الواقع ، وقد نزلت الآيات كما بينا حين غلب سابور ملك الفرس على بلاد الشام وما والاها من بلاد الجزيرة وأقاصي بلاد الروم ، فاضطر هرقل ملك الروم حتى ألجأه إلى القسطنطينية ، وحاصره فيها مدة طويلة ، ثم عادت الدولة لهرقل. فبعد نزول سورة الروم سنة ٦٢٢ م ببضع سنين في سنة ٦٢٧ م أحرز هرقل أول نصر حاسم للروم على الفرس في نينوى على نهر دجلة ، وانسحب الفرس لذلك من حصارهم للقسطنطينية ، ولقي كسرى أبرويز مصرعه سنة ٦٢٨ م على يد ولده (شيرويه).
ولقد كانت هاتان الدولتان مسيطرتين على العالم القديم : فارس في الشرق ، والروم في الغرب ، وكانتا تتنازعان السيادة على بلاد الشام وغيرها.
لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ أي الأمر كله من قبل الغلبة ومن بعدها ، فتغلب إحدى الدولتين على الأخرى بقضاء اللّه وقدره ، فهو يقضي في خلقه بما يشاء : وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُداوِلُها بَيْنَ النَّاسِ [آل عمران ٣/ ١٤٠] فليس الانتصار دائما عن قوة مادية ذاتية ، وإنما القوة إحدى وسائل النصر ، والمعول في النهاية إرادة اللّه وقدرته ، فقد يتغلب الضعيف على القوي ، والقليل على الكثير : كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ [البقرة : ٢/ ٢٤٩].
وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ أي ويوم ينتصر الروم النصارى أصحاب قيصر ملك الشام على فارس أصحاب كسرى الوثنيين المجوس ، يفرح المؤمنون بنصر اللّه أهل الدين والكتاب على من لا دين له ولا كتاب.
يَنْصُرُ مَنْ يَشاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ أي ينصر اللّه من يريد على الأعداء ، فهو الفعال لما يريد ، وهو

القوي الذي لا يغلب ، المنتقم من أعدائه ،
ج ٢١ ، ص : ٥٠

(٤٦/٢١)

المعزّ أولياءه بقوته وقدرته ، الرحيم بعباده المؤمنين ، فلا يدع القوي يتحكم بالضعيف ، ولا يعاجل بالانتقام على الذنوب ، كما قال تعالى : وَلَوْ يُؤاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِما كَسَبُوا ما تَرَكَ عَلى ظَهْرِها مِنْ دَابَّةٍ ، وَلكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى [فاطر ٣٥/ ٤٥].
روى الترمذي وابن جرير وابن أبي حاتم والبزار عن أبي سعيد الخدري قال :
لما كان يوم بدر ظهرت الروم على فارس ، فأعجب ذلك المؤمنين ، ففرحوا به ، وأنزل اللّه : وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ ، يَنْصُرُ مَنْ يَشاءُ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ.
وقال جماعة آخرون : بل كان نصر الروم على فارس عام الحديبية. والمهم أنه لما انتصرت الروم على الفرس ، فرح المؤمنون بذلك لأن الروم أهل كتاب في الجملة ، فهم أقرب إلى المؤمنين من المجوس ، كما قال تعالى : لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَداوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ، وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قالُوا : إِنَّا نَصارى .. الآية [المائدة ٥/ ٨٢].
وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ ، وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ أي هذا الذي أخبرناك به يا محمد من أنا سننصر الروم على فارس وعد حق من اللّه ، وخبر صدق ، واللّه لا يخلف الميعاد ، ولا بد من وقوعه ، لأن سنة اللّه أن ينصر أقرب الطائفتين المقتتلتين إلى الحق ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون بحكم اللّه وأفعاله القائمة على العدل ، لجهلهم بالسنن القائمة في الكون.

(٤٧/٢١)

يَعْلَمُونَ ظاهِراً مِنَ الْحَياةِ الدُّنْيا ، وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غافِلُونَ أي أكثر الناس لهم علم ظاهري بالدنيا وعلومها المادية كتدبير شؤون المعيشة ، وتحصيل الأموال والمكاسب من تجارة وزراعة وصناعة وغيرها ، ولكنهم غافلون عن أمور الدين والآخرة ، كأنهم عديمو الفكر والنظر ، لا ينظرون إلى المستقبل
ج ٢١ ، ص : ٥١
و ما ينتظرهم من نعيم مقيم إن آمنوا وعملوا الصالحات ، أو عذاب مهين إن كفروا وعصوا أوامر ربهم ، فلا يعملون أبدا لما ينفعهم في الآخرة ، وعلمهم منحصر في الدنيا ، بل لا يعلمون الدنيا على حقيقتها ، وإنما يعلمون ظاهرها ، وهي ملاذها وملاعبها ، ولا يعلمون باطنها وهي مضارها ومتاعبها ، فهم عن

الآخرة غافلون.

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى ما يأتي :

١- إثبات صدق النبي صلّى اللّه عليه وسلّم في دعواه النبوة والرسالة ، وإعلام قاطع بأن القرآن كلام اللّه الذي يعلم وحده الغيب في السموات والأرض. وتلك معجزة واضحة بالإخبار عن مغيبات المستقبل ، وقد وقع الأمر كما أخبر القرآن الكريم.

٢- اللّه تعالى متفرد بالقدرة الشاملة النافذة ، فكل ما في العالم من غلبة وغيرها إنما هي منه ، وبإرادته وقدرته ، فللّه الأمر ، أي إنفاذ الأحكام سواء قبل هذه الغلبة وبعدها ، واللّه دائما هو القوي العزيز في نقمته ، الرحيم لأهل طاعته.

٣- يبشر اللّه تعالى المؤمنين بنصر أهل الكتاب المتعاطفين مع المسلمين ، لاجتماعهم على الإيمان بالإله والإيمان باليوم الآخر ، على الفرس المجوس الوثنيين الذين لا يؤمنون بشيء من الكتب السماوية ، ولا باللّه تعالى ولا بالآخرة.

٤- وعد اللّه لا يخلف لأن كلامه حق وصدق ، ولكن أكثر الناس وهم الكفار لا يعلمون وعده ، ولا أنه لا خلف في وعده.

٥- إن أكثر الناس لا سيما الكفار عاملون بظواهر الأمور الدنيوية من اكتساب الأموال والمعايش ومعرفة شؤون الزراعة والتجارة والصناعة والعلوم المادية ، ولكنهم غافلون عن العلم بالآخرة وعن العمل بها.

قال الزمخشري : أفاد قوله تعالى يَعْلَمُونَ ظاهِراً مِنَ الْحَياةِ الدُّنْيا أن

للدنيا ظاهرا وباطنا ، فظاهرها : ما يعرفه الجهال من التمتع بزخارفها ، والتنعم بملاذها وباطنها وحقيقتها : أنها مجاز إلى الآخرة ، يتزود منها إليها بالطاعة والأعمال الصالحة « ١ » .

الحث على التفكر في المخلوقات الدالة على وجود اللّه ووحدانيته [سورة الروم (٣٠) : الآيات ٨ الى ١٠]

أَ وَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ ما خَلَقَ اللَّهُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ بِلِقاءِ رَبِّهِمْ لَكافِرُونَ (٨) أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوها أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوها وَجاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَما كانَ اللَّهُ

لِيَظْلِمَهُمْ وَلكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٩) ثُمَّ كانَ عاقِبَةَ الَّذِينَ أَساؤُا السُّواى أَنْ كَذَّبُوا بِآياتِ اللَّهِ وَكانُوا بِها يَسْتَهْزِؤُنَ (١٠)

الإعراب :

أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ ما خَلَقَ اللَّهُ .. ما : حرف نفي ، ويَتَفَكَّرُوا قد عدّي إلى أَنْفُسِهِمْ كما عدّي في قوله تعالى : أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ [الأعراف ٧/ ١٨٥].

(٤٩/٢١)

ثُمَّ كانَ عاقِبَةَ الَّذِينَ أَساؤُا السُّواى أَنْ كَذَّبُوا .. عاقِبَةَ : خبر كانَ ، والسُّواى اسمها ، ومن قرأ عاقبة بالرفع ، فهي اسم كانَ ، والسُّواى : خبر كان. والسُّواى على وزن « فعلى » تأنيث للاستواء ، كالحسنى تأنيث الأحسن.

---

(١) الكشاف : ٢/ ٥٠٣ [.....]

ج ٢١ ، ص : ٥٣

و أَنْ كَذَّبُوا مفعول لأجله ، أي لأن كذبوا ، ويجوز كونه في موضع رفع ، لأنه خبر مبتدأ محذوف ، تقديره : هو أن كذبوا ، أو بدل من السُّواى رفعا ونصبا. والسُّواى منصوب بأساؤوا انتصاب المصادر ، لأنه مصدر.

البلاغة :

أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا أَوَلَمْ يَسِيرُوا إنكار وتوبيخ.

أَساؤُا السُّواى جناس اشتقاق.

المفردات اللغوية :

أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ أي أولم يحدثوا التفكر فيها ، أو : أولم يتفكروا في أمر أنفسهم ، فإنها أقرب إليهم من غيرها ، فبالتفكر يرجعون عن غفلتهم ما خَلَقَ اللَّهُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى ما خَلَقَ متعلق بقول محذوف معناه : أولم يتفكروا فيقولوا هذا القول ، وقيل : معناه : فيعلموا لأن في الكلام دليلا عليه. ومعنى قوله : إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى معناه : ما خلقها باطلا وعبثا بغير غرض صحيح وحكمة بالغة ، وإنما خلقها مقرونة بالحق ، مصحوبة بالحكمة ، وبتقدير أجل مسمى لا بد لها من الانتهاء إليه ، وهو قيام الساعة ووقت الحساب والثواب والعقاب. وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ مثل كفار مكة بِلِقاءِ رَبِّهِمْ لَكافِرُونَ أي لا يؤمنون بالبعث بعد الموت ، أي جاحدون يحسبون أن الدنيا بداية وأن الآخرة لا تكون.

أَ وَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ ، فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حض على السير في أقطار الأرض ، والنظر في آثار المدمرين من قبلهم من الأمم ، وهي إهلاكهم بتكذيبهم رسلهم كانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً كعاد وثمود وَأَثارُوا الْأَرْضَ حرثوها وقلبوها للزرع والغرس وَعَمَرُوها أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوها أي عمروا الأرض أكثر من عمارة أهل مكة إياها ، فإنهم أهل واد غير ذي زرع. وفيه تهكم بهم من حيث إنهم مغترون بالدنيا ، مفتخرون بها ، وهم أضعف حالا فيها وَجاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ بالمعجزات ، والآيات الواضحات ، والحجج الظاهرات فَما كانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ ليفعل بهم ما يفعل بالظلمة ، فيدمرهم من غير جرم ولا تذكير وَلكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ حيث عملوا ما أدّى إلى تدميرهم.

ثُمَّ كانَ عاقِبَةَ الَّذِينَ أَساؤُا السُّواى أي ثم كان عاقبتهم العقوبة السوأى ، والمراد بها جهنم ، والسوأى : تأنيث الأسوأ أي الأقبح ، أو مصدر كبشرى أَنْ كَذَّبُوا بِآياتِ اللَّهِ أي كانت إساءتهم بأن كذبوا بالقرآن.

ج ٢١ ، ص : ٥٤

المناسبة :

هذه الآيات مرتبطة بما قبلها ، تتضمن تهديد المشركين وحثهم على التفكر والنظر في المخلوقات الدالة على وجود اللّه وانفراده بخلقها ، وأنه لا إله غيره ، ولا ربّ سواه ، بعد بيان ما صدر منهم من إنكار الإله بإنكار وعده ، وإنكار البعث ، كما قال تعالى : وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غافِلُونَ.

التفسير والبيان :

أَ وَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ ما خَلَقَ اللَّهُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى أي أولم يحدثوا التفكر في عقولهم ، أو يفكروا في أمر أنفسهم بأن يجيلوا فيه الفكر ، فيقولوا : إن اللّه لم يخلق الكون من السماء والأرض وما فيهما من العالم العلوي والسفلي ، وما بينهما من المخلوقات الكثيرة المتنوعة والأجناس المختلفة ، فيعلموا أنها ما خلقت سدى ولا عبثا ولا باطلا ، بل كان خلقها مقرونا بالحق ، مصحوبا بالحكمة ، وبتقدير أجل مسمى لا بد لها من أن تنتهي إليه ، وهو قيام الساعة ووقت الحساب والثواب والعقاب ، فإذا حل الأجل بدلت الأرض غير الأرض والسموات ، وبرزوا لحساب اللّه الواحد القهار.

وهذا حثّ لهم على إعمال الفكر السليم الموصل إلى معرفة اللّه ووحدانيته بالنظر في أنفسهم وما حولهم من مشاهد الكون ، والمراد أن أسباب العلم الصحيح ومفاتيح الهداية تعتمد على العقل وأنه

متوافر لديهم ، لكنهم عطلوه ولم يعملوه فيما يجب إعماله.

وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ بِلِقاءِ رَبِّهِمْ لَكافِرُونَ أي وإن أكثر الناس ولا سيما الكفار لجاحدون منكرون وجود البعث والحساب لأنهم لم يتفكروا في أنفسهم ، ولو تفكروا لأيقنوا بمعادهم إلى ربّهم بعد الموت.

ثم نبّه اللّه تعالى على صدق رسله فيما جاؤوا به عن ربهم بما أيّدهم به من

ج ٢١ ، ص : ٥٥ المعجزات الباهرات ، والدلائل الواضحات المحسوسات من إهلاك من كفر برسالتهم ، ونجاة من صدّقهم فقال :

أَ وَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ ، فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، كانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ، وَأَثارُوا الْأَرْضَ ، وَعَمَرُوها أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوها ، وَجاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ ، فَما كانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ ، وَلكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ أي أولم يتنقل هؤلاء المنكرون للنبوات ، المكذبون بالآخرة في بلاد الأرض ، فينظروا بعقولهم وأفهامهم ، ويبحثوا في آثار اللّه ، ويسمعوا أخبار الماضين ويتأملوا بمصير المكذبين رسلهم من الأمم الماضية ، علما بأنهم كانوا أشدّ قوة من أهل مكة وأمثالهم ، وأكثر أموالا وأولادا ، وحرثوا الأرض وقلبوها للزراعة والغرس أكثر مما فعل المكيون وسائر العرب لقحط بلادهم ، واستغلوا الأرض أكثر من استغلال هؤلاء.

ثم أهلكهم اللّه بذنوبهم وكفرهم وتكذيبهم رسلهم الذين جاءوهم بالمعجزات والأدلة المحسوسة والشواهد الناطقة بقدرة اللّه وتوحيده ، فما كان عقابهم ظلما ، وما كان من شأن اللّه أن يظلمهم وغيرهم فيما حلّ بهم من العذاب والنكال ، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون بتكذيبهم بآيات اللّه واستهزائهم بها وذنوبهم السالفة.

فالعاقل من اتّعظ بغيره ، وعرف أن زخارف الدنيا ومتاعها من أموال وأولاد لا تغني عنه شيئا يوم القيامة ، وقد أكد اللّه تعالى ذلك بقوله :

ثُمَّ كانَ عاقِبَةَ الَّذِينَ أَساؤُا السُّواى أَنْ كَذَّبُوا بِآياتِ اللَّهِ ، وَكانُوا بِها يَسْتَهْزِؤُنَ أي ثم كان مصير المسيئين العذاب السُّواى في الدنيا بالهلاك وفي الآخرة بالخلود في نار جهنم ، بسبب تكذيبهم بآيات اللّه ودلائله الدالة على وجوده ووحدانيته ، واستهزائهم بها وسخريتهم منها. فقوله أَساؤُا السُّواى معناه : كانت السوأى عاقبتهم لأنهم كذبوا بآيات اللّه ، وكانوا بها يستهزئون.

و الإساءة : التكذيب والاستهزاء ، وعبر عن العقاب بالجريمة الصادرة من الكفار ، على سبيل المشاكلة.

ج ٢١ ، ص : ٥٦

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يأتي :

١- الحثّ على التفكر في الكون وإيجابه ، فإن التأمل في خلق السموات والأرض والأنفس البشرية المخلوقة لحكمة ومصلحة وعدل ، والمؤقتة بأجل مسمى تنتهي إليه ، دليل على وجود الخالق وتوحيده وقدرته وعلى حدوث الحشر ، فقوله : إِلَّا بِالْحَقِّ يدل على الوحدانية لأن إحكام الخلق والتنزه عن الفساد يمنع من تعدد الآلهة ، ففي وجود آلهة فساد وخلل وتعثر ، وقوله : وَأَجَلٍ مُسَمًّى دليل على الحشر لأنه يدل على فناء العالم وتخريب الكون ، وبما أن اللّه تعالى قادر على كل شيء فهو قادر على الإعادة ولأن الخلق بالحق يوجب أن يكون بعد هذه الحياة حياة أخرى باقية لأن هذه الحياة ليست إلا لعبا ولهوا ، كما أخبر القرآن.

٢- دلّ قوله : وَأَجَلٍ مُسَمًّى وهو يوم القيامة على حدوث الفناء في نهاية عمر الدنيا ، وعلى أن لكل مخلوق أجلا ، وعلى ثواب المحسن وعقاب المسي ء.

٣- كثير من الناس كافرون بالبعث بعد الموت ، وهذا نقص في التفكير ، وقلة في العقل ، فالعاقل من فكر بالمستقبل ، وعمل لما بعد الموت ، ولم تغره الحياة الدنيا.

٤- التبصر بعبر الماضي درس وعظة ، فمن سمع بأخبار الأمم الماضية المكذبة رسلها ، وأدرك مصيرهم ، وعرف سبب هلاكهم وتدميرهم ، بادر إلى الإيمان باللّه عزّ وجلّ ، وصدّق رسله الذين جاءوهم بالمعجزات الدالة على صدقهم.

٥- الاعتماد على قوة الجسد وسعة المال ، ووفرة الثروة والأولاد خطأ محض ، فإن كل الأموال والمدنيات وتقدم الحضارات لا تغني أصحابها شيئا يوم القيامة.

ج ٢١ ، ص : ٥٧

٦- لقد كان إهلاك الأمم الماضية الجاحدة بربها ورسله وأنبيائه حقا وعدلا ، ولم يكن الهلاك بغير ذنب ولا بغير سابق إنذار بالرسل والحجج ، وإنما كان بظلمهم أنفسهم بالشرك والعصيان ، والتكذيب بآيات اللّه الدالة على وجوده وتفرده بالألوهية ، وتكذيب القرآن والرسول ومعجزاته ، واستهزائهم بها.

إثبات الإعادة والحشر وبيان ما يكون وقت الرجوع إلى اللّه [سورة الروم (٣٠) : الآيات ١١ الى ١٦]

اللَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (١(١) وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ (١(٢) وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكائِهِمْ شُفَعاءُ وَكانُوا بِشُرَكائِهِمْ كافِرِينَ (١(٣) وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ (١(٤) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ (١٥)

وَ أَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآياتِنا وَلِقاءِ الْآخِرَةِ فَأُولئِكَ فِي الْعَذابِ مُحْضَرُونَ (١٦)

البلاغة :

يَبْدَؤُا ويُعِيدُهُ بينهما طباق.

ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ التفات من الغيبة إلى الخطاب للمبالغة في المقصود.

فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ ، فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ. وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآياتِنا وَلِقاءِ الْآخِرَةِ ، فَأُولئِكَ فِي الْعَذابِ مُحْضَرُونَ بين الجملتين مقابلة بين حال السعداء والأشقياء.

تُرْجَعُونَ يَتَفَرَّقُونَ يُحْبَرُونَ مُحْضَرُونَ مراعاة الفواصل في الحرف الأخير ، وذلك له وقع وتأثير على السمع.

ج ٢١ ، ص : ٥٨

المفردات اللغوية :

اللَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ينشئ خلق الناس ثُمَّ يُعِيدُهُ يبعث الناس ويخلقهم مرة أخرى بعد موتهم ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ للجزاء يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ يسكت المشركون متحيرين آيسين لانقطاع حجتهم ، يقال : أبلس الرجل : إذا سكت وانقطعت حجته ، والمبلس : الساكت المنقطع الحجة ، اليائس من الاهتداء إليها وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكائِهِمْ شُفَعاءُ أي لا يكون ممن أشركوهم باللّه وهم الأصنام شفعاء يجيرونهم من عذاب اللّه.

وجاء التعبير بمعنى الماضي لتحققه وَكانُوا أي يكونون بِشُرَكائِهِمْ كافِرِينَ أي متبرئين منهم ، يكفرون بآلهتهم حين يئسوا منهم.

يَوْمَئِذٍ تأكيد لقوله : وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ. يَتَفَرَّقُونَ أي يتفرق المؤمنون والكافرون. فِي رَوْضَةٍ بستان أو أرض ذات أزهار وأنهار يُحْبَرُونَ يسرّون سرورا تهللت له وجوههم بِآياتِنا القرآن وَلِقاءِ الْآخِرَةِ البعث وغيره مُحْضَرُونَ مدخلون فيه لا يغيبون عنه.

المناسبة :

بعد أن ذكر اللّه تعالى أن عاقبة المجرمين إلى الجحيم ، وذلك إشارة إلى الإعادة والحشر ، أقام الأدلة عليه بأن من بدأ خلق الناس بالقدرة والإرادة لا يعجز عن الرجعة والإعادة. ثم بيّن ما يكون وقت الرجوع

إليه ، وأخبر أن الناس حينئذ فريقان : فريق في الجنة وفريق في السعير.

التفسير والبيان :

(٢١/٥٦)

اللَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ أي أن اللّه كما هو قادر على بداءته وإنشائه ، فهو قادر على إعادته ، فاللّه هو الذي بدأ إنشاء الخلق بقدرته وإرادته ، فلا يعجز عن رجعته ، ثم إليه يعودون يوم القيامة ويحشرون للقضاء بينهم ، فيجازي كل عامل بعلمه ، ثم وصف حال الأشقياء بقوله : وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ أي ويوم تقوم القيامة للفصل بين الناس والحساب ، يسكت المجرمون الذين أشركوا باللّه وتنقطع عنهم الحجة من شدة الأهوال ، وييأسون ولا يجدون طريقا للخلاص ، ولا أملا في النجاة من طريق غيرهم ، كما قال :

ج ٢١ ، ص : ٥٩

وَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكائِهِمْ شُفَعاءُ ، وَكانُوا بِشُرَكائِهِمْ كافِرِينَ أي ولن يجدوا لهم شفعاء من الأصنام التي كانوا يعبدونها من دون اللّه ، ينقذونهم من عذاب اللّه ، وكانوا بشركائهم وآلهتهم المزعومة جاحدين ، متبرئين منهم ، إذ خانوهم في أحوج ما كانوا إليهم ، كما قال تعالى : إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا ، وَرَأَوُا الْعَذابَ ، وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبابُ ، وَقالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنا كَرَّةً ، فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَما تَبَرَّؤُا مِنَّا [البقرة ٢/ ١٦٦- ١٦٧].

وهذا دليل على تبين إفلاسهم وإعلان خسرانهم.

ثم يتميز أهل المحشر إلى فريقين ، فقال تعالى :

وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ أي ويوم تقوم القيامة يتفرق الناس فرقة لا اجتماع بعدها ، كما قال تعالى : وَامْتازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ [يس ٣٦/ ٥٩] فيؤخذ أهل الإيمان والسعادة إلى الجنان ، ويؤخذ أهل الكفر والشقاوة إلى النيران. قال قتادة : هي واللّه الفرقة التي لا اجتماع بعدها ، لهذا قال تعالى :

(٢١/٥٧)

فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ ، فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ أي فأما المؤمنون المصدّقون باللّه ورسوله واليوم الآخر ، والعاملون بما أمر اللّه به ، والمنتهون عما نهى اللّه عنه ، فهم يتنعمون ويسرّون سرورا يملأ القلب والنفس ويظهر البشاشة بما لاحظوا به من روضات الجنان ذات البهجة والخضرة والأنهار

الجارية ، أي فهم في جنة يسرون بكل مسرة ، كما قال : فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ [السجدة ٣٢/ ١٧] ، و

قال صلّى اللّه عليه وسلّم فيما رواه أحمد والشيخان والترمذي وابن ماجه عن أبي هريرة : « فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » .

وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآياتِنا وَلِقاءِ الْآخِرَةِ ، فَأُولئِكَ فِي الْعَذابِ مُحْضَرُونَ أي وأما الكافرون الجاحدون بوجود اللّه ووحدانيته ، المكذبون رسله

ج ٢١ ، ص : ٦٠

و آياته ، المنكرون وقوع البعث بعد الموت ، فهم مخلدون في عذاب جهنم ، لا غيبة لهم عنه أبدا ، ولا فتور له عنهم إطلاقا ، كما قال تعالى : كُلَّما أَرادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْها مِنْ غَمٍّ ، أُعِيدُوا فِيها [الحج ٢٢/ ٢٢] وقال : إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذابِ جَهَنَّمَ خالِدُونَ. لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ ، وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ [الزخرف ٤٣/ ٧٤- ٧٥].

فقه الحياة أو الأحكام :

يستنبط من الآيات ما يأتي :

١- اللّه هو منشئ الخلق ، ومعيده بقدرته ، وإليه المرجع والمآب.

٢- لا يجد المشركون والكفار يوم القيامة حجة لهم يدافعون بها عن شركهم وكفرهم ، فتنقطع حجتهم ، ويأسون من الاهتداء إليها ، كذلك لا يجدون لهم من غيرهم ناصرا ينصرهم ولا شفيعا ينقذهم من عذاب اللّه ، وحينئذ يقولون عن آلهتهم : إنهم ليسوا بآلهة ، فيتبرءون منها ، وتتبرأ منهم.

٣- يحدث انفصال يوم القيامة بين المؤمنين وبين الكافرين ، فيتميز الطيبون من الخبيثين ، ويقيم المؤمنون في جنان الخلد ذات الرياض الغناء والأنهار الجارية ، فيغمرهم الحبور والسرور ، وينعّمون ويكرمون ، ويقيم الكافرون في عذاب جهنم إقامة دائمة أبدية ، فلا يفارقونها ، ولا يخفف عنهم فيها شيء من العذاب.

٤- لا بد مع الإيمان من العمل الصالح ، وهو الائتمار بأمر اللّه ، واجتناب ما نهى عنه لأن العمل الصالح معتبر مع الإيمان ، فإن الإيمان المجرد مفيد للنجاة دون رفع الدرجات ، ولا يبلغ المؤمن الدرجة العالية إلا بإيمانه وعمله الصالح.

وأما الكافر فهو في الدركات بمجرد كفره. وهذا هو السبب في ذكر العمل الصالح مع الإيمان ، وعدم ذكر العمل السيئ مع الكفر.

ج ٢١ ، ص : ٦١

تنزيه اللّه تعالى وحمده في جميع الأحوال [سورة الروم (٣٠) : الآيات ١٧ الى ١٩]

فَسُبْحانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ (١٧) وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ (١٨) يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها وَكَذلِكَ تُخْرَجُونَ (١٩)

البلاغة :

تُمْسُونَ وتُصْبِحُونَ بينهما طباق.

يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ استعارة ، استعار الحي للمؤمن ، والميت للكافر.

المفردات اللغوية :

فَسُبْحانَ اللَّهِ سبحان : هو التسبيح ، أي التنزيه ، وهو إخبار في معنى الأمر بتنزيه اللّه تعالى والثناء عليه ، أي سبحوا اللّه بمعنى صلوا في هذه الأوقات التي تظهر فيها قدرته ، وتتجدد فيها نعمته حِينَ تُمْسُونَ تدخلون في المساء ، وفيه صلاتان : المغرب والعشاء وَحِينَ تُصْبِحُونَ تدخلون في الصباح وفيه صلاة الصبح ، وتخصيص التسبيح بالمساء والصباح لأن آثار القدرة والعظمة فيهما أوضح وأبين.

وَ لَهُ الْحَمْدُ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ اعتراض ، ومعناه : يحمده أهلها وَعَشِيًّا عطف على حِينَ تُمْسُونَ وفيه صلاة العصر وَحِينَ تُظْهِرُونَ تدخلون في الظهيرة ، وفيه صلاة الظهر.

عن ابن عباس رضي اللّه عنهما أن الآية جامعة للصلوات الخمس : تُمْسُونَ صلاة المغرب والعشاء وتُصْبِحُونَ صلاة الفجر وعَشِيًّا صلاة العصر وتُظْهِرُونَ صلاة الظهر.

يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ قال أكثر المفسرين : يخرج الدجاجة من البيضة ، والإنسان من النطفة ، والطائر من البيضة ، ويخرج البيضة من الطائر ، والنطفة من الإنسان ، وقال بعضهم : يخرج المؤمن من الكافر والكافر من المؤمن وَيُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها أي يحييها بالنبات بعد يبسها وَكَذلِكَ تُخْرَجُونَ أي ومثل ذلك الإخراج تخرجون من القبور

ج ٢١ ، ص : ٦٢

و تبعثون. والمعنى أن الإبداء والإعادة متساويان في قدرة القادر على إخراج الأشياء من أضدادها ، بإخراج الميت من الحي ، وإخراج الحي من الميت ، وإحياء الميت ، وإماتة الحي. وقرئ : تخرجون.

المناسبة :

بعد بيان عظمة اللّه تعالى وقدرته في خلق السموات والأرض حين ابتداء العالم ، وعظمته حين قيام الساعة (القيامة) حال انتهاء العالم ، وافتراق الناس فريقين : فريق الجنة وفريق النار ، أمر اللّه تعالى بتنزيهه عن كل سوء وعما لا يليق به ، وبحمده على كل حال لأنه المتفرد بإحياء الميت وإماتة الحي ، وإحياء الأرض بعد موتها ، كإحياء الناس من قبورهم للبعث ، وهذا في وقت الصباح يشبه حال انتقال الإنسان من النوم الذي هو الموتة الصغرى إلى اليقظة التي هي الحياة.

التفسير والبيان :

فَسُبْحانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ أي سبحوا اللّه تعالى ونزهوه وصلّوا له في جميع أوقات النهار والليل ، حين ابتداء المساء ، وحين طلوع الصباح. وهذا إرشاد من اللّه تعالى لعباده بتسبيحه وتحميده في هذه الأوقات المتعاقبة الدالة على كمال قدرته وعظيم سلطانه عند المساء : وهو إقبال الليل بظلامه ، وعند الصباح : وهو إسفار النهار بضيائه ، وفي المساء صلاتا المغرب والعشاء ، وفي وقت الصباح صلاة الفجر. وقدم الإمساء على الإصباح هنا لأن الليل يتقدم النهار.

وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أي واللّه تعالى هو المحمود من جميع أهل السموات والأرض من ملائكة وجن وإنس. وهذا اعتراض بحمده مناسب للتسبيح وهو التحميد.

ج ٢١ ، ص : ٦٣

وَ عَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ أي وسبحوه ونزهوه أيضا وقت العشي أو العشاء : وهو شدة الظلام ، وفي وسط النهار وقت الظهيرة.

قال الماوردي : الفرق بين المساء والعشاء : أن المساء : بدوّ الظلام بعد المغيب ، والعشاء : آخر النهار عند ميل الشمس للمغيب.

ويلاحظ أن تخصيص هذه الأوقات بالتسبيح إنما هو بسبب وجود معالم الانتقال المحسوس من حال إلى حال ، ومن زمن إلى زمن ، يشمل جميع أجزاء اليوم ، بدءا من الصبح أو النهار وقوة الضياء ، إلى الظهر حين تتحول الشمس من جهة المشرق إلى المغرب ، إلى العصر حين يبدأ أفول النهار وقدوم العشي ، إلى المغرب بدء الظلام ، إلى العشاء في شدة الظلام. والمعنى : نزهوا اللّه عن صفات النقص ، وصفوه بصفات الكمال في جميع هذه الأوقات المتعاقبة لأن أفضل الأعمال أدومها.

وفي هذا إشارة إلى أصول الإيمان الموجبة للظفر بروضات الجنان ، فبعد أن أبان اللّه تعالى أن المقام الأعلى والجزاء الأوفى لمن آمن وعمل صالحا في قوله :

فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ أعلمنا أن الإيمان تنزيه بالجنان ، وتوحيد باللسان ، وأن العمل الصالح القيام بجميع الأركان ، وكل ذلك تسبيح (تنزيه) وتحميد ، يوصل إلى الحبور (السرور والتنعم) في رياض الجنان.

و قد تكرر في القرآن لفت النظر إلى الإضاءة والإظلام ، وأن اللّه فالق الإصباح ، وجاعل الليل سكنا ، كما قال : وَالنَّهارِ إِذا جَلَّاها ، وَاللَّيْلِ إِذا يَغْشاها [الشمس ٩١/ ٣- ٤] ، وقال : وَاللَّيْلِ إِذا يَغْشى ، وَالنَّهارِ إِذا تَجَلَّى [الليل ٩٢/ ١- ٢] ، وقال : وَالضُّحى وَاللَّيْلِ إِذا سَجى [الضحى ٩٣/ ١- ٢].

ج ٢١ ، ص : ٦٤

ثم ذكر اللّه تعالى بعض مظاهر قدرته وعظمته الموجبة للتنزيه والتحميد ، فقال :

يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ أي أن اللّه تعالى هو القادر على خلق الأشياء المتقابلة ، فهو يخرج أولا الإنسان الحي من التراب الميت ، ثم من النطفة ، والطائر من البيضة ، كما يفعل ضدّ هذا ، فيخرج النطفة من الإنسان ، والبيضة من الطائر ، والمؤمن من الكافر ، والكافر من المؤمن ، واليقظان من النائم ، والنائم من اليقظان.

وأما كون النطفة كائنا حيّا فلا تعرفه العرب ، ولم يكن التقدم العلمي واضح المعالم في هذا لديهم.

وهذا دليل على كمال القدرة الإلهية وبديع الصنع وعظمة الإله.

وَيُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها أي واللّه تعالى يحيي الأرض بالمطر ، فيخرج النبات من الحب ، والحب من النبات ، كما قال : وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْناها ، وَأَخْرَجْنا مِنْها حَبًّا ، فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ. وَجَعَلْنا فِيها جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنابٍ ، وَفَجَّرْنا فِيها مِنَ الْعُيُونِ [يس ٣٦/ ٢٣- ٢٤] ، وقال سبحانه :

وَ تَرَى الْأَرْضَ هامِدَةً ، فَإِذا أَنْزَلْنا عَلَيْهَا الْماءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ، وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ [الحج ٢٢/ ٥].

وَكَذلِكَ تُخْرَجُونَ أي ومثل ذلك الإخراج تخرجون من القبور أحياء بعد أن كنتم أمواتا ، وذلك على اللّه يسير.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يأتي :

١- وجوب تنزيه اللّه تعالى عن جميع صفات النقص ، ووصفه بجميع صفات

ج ٢١ ، ص : ٦٥

الكمال ، في جميع الأوقات المتعاقبة ، وقرن التسبيح بالتحميد على نعم اللّه وآلائه ، والصلوات المفروضة الخمس بعض مظاهر التسبيح والتحميد لاشتمالها على ذلك. وقد استدل ابن عباس كما تقدم بهذه الآيات على بيان عدد الصلوات الخمس في القرآن.

وذلك دليل على الإيمان ، وعلى فضل التسبيح والتحميد ،

قال صلّى اللّه عليه وسلّم : « من قال حين يصبح : فَسُبْحانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ .. الآية ، أدرك ما فاته في ليلته ، ومن قال حين يمسي ، أدرك ما فاته في يومه » .

و

قال صلّى اللّه عليه وسلّم : « من سرّه أن يكال له بالقفيز الأوفى فليقل : فَسُبْحانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ الآية » .

٢- يتجلى كمال قدرة اللّه عزّ وجلّ ويثبت وجوده بتفرده بالخلق والإيجاد ، والإعدام ، والإحياء والإماتة ، فهو سبحانه يخلق الأشياء المتقابلة أو المتضادة بعضها من بعض ، فهو يخرج الحي من الميت ، ويخرج الميت من الحي ، ويحيي الأرض بعد موتها أو يبسها ، وكما أحيا الأرض بإخراج النبات بعد همودها ، كذلك يحيي الناس بالبعث.

قال القرطبي : وفي هذا دليل على صحة القياس. أي أنه قاس إحياء الموتى من القبور على إحياء الأرض الميتة بالمطر الذي ينبت النبات الأخضر الزاهي.

بعض أدلة الوحدانية والقدرة والحشر [سورة الروم (٣٠) : الآيات ٢٠ الى ٢٧]

وَ مِنْ آياتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ إِذا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ (٢٠) وَمِنْ آياتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْها وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢(١) وَمِنْ آياتِهِ خَلْقُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوانِكُمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِلْعالِمِينَ (٢(٢) وَمِنْ آياتِهِ مَنامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهارِ وَابْتِغاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٢(٣) وَمِنْ آياتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّماءِ ماءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٤)

وَ مِنْ آياتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّماءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذا دَعاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ (٢٥) وَلَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قانِتُونَ (٢٦) وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلى فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٧)

الإعراب :

وَمِنْ آياتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ .. أَنْ خَلَقَكُمْ : في موضع رفع على الابتداء ، والجار والمجرور قبلها خبرها ، وتقديره : وخلقكم من تراب من آياته.

وَمِنْ آياتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ فيه محذوف مقدر تقديره : ومن آياته آية يريكم البرق فيها ، فحذف الموصوف وأقيم الصفة مقامه. ومن النحويين من يجعل تقديره : ومن آياته أن يريكم البرق ، كالآيتين المتقدمتين : أَنْ خَلَقَكُمْ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ.

(٢١/٦٤)

دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ جار ومجرور متعلق بمحذوف ، إما صفة للنكرة أي دعاكم دعوة كائنة من الأرض ، أو في موضع الحال من الكاف والميم في دَعاكُمْ. ولا يجوز أن يتعلق ب تَخْرُجُونَ لأن ما بعد إِذا لا يعمل فيما قبلها.

البلاغة :

خَوْفاً وطَمَعاً يَبْدَؤُا ويُعِيدُهُ بين كلّ منهما طباق.

دَعاكُمْ دَعْوَةً بينهما جناس اشتقاق.

المفردات اللغوية :

وَمِنْ آياتِهِ آيات اللّه تعالى الدالة على قدرته. أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرابٍ أي خلق أصلكم

ج ٢١ ، ص : ٦٧

آدم من تراب. ثُمَّ إِذا هي للمفاجاة. أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ بَشَرٌ من دم ولحم تنتشرون في الأرض ، تبتغون من فضل اللّه. مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً بأن خلق حواء من ضلع آدم ، وسائر النساء من نطف الرجال والنساء ، أو المعنى : أنهن خلقن من جنس الرجال ، لا من جنس آخر. لِتَسْكُنُوا إِلَيْها لتميلوا إليها وتألفوها ، فإن اتحاد الجنس علة للضم والاجتماع ، والاختلاف سبب للتنافر. وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً أي وجعل بين الرجال والنساء أو بين أفراد الجنس مودة ورحمة بواسطة الزواج ، بخلاف سائر الحيوانات ، تنظيما لأمر المعيشة ، قال السّدّي :

المودة : المحبة ، والرحمة : الشفقة. إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ أي إن في ذلك المذكور لآيات دالة على قدرة اللّه ، لقوم يتفكرون في صنع اللّه تعالى ، فيعلمون ما في ذلك من الحكم.

وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ لغاتكم من عربية وغير عربية. وَأَلْوانِكُمْ من بياض وسواد وغيرهما ، وأنتم أولاد رجل واحد وامرأة واحدة ، أو اختلاف في تخطيطات الأعضاء وهيئاتها وألوانها وجمالها ، بحيث وقع التمايز

والتعارف. إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِلْعالِمِينَ أي لدلالات على قدرته تعالى لذوي العقول وأولي العلم ، لا تكاد تخفى على عاقل من ملك أو إنس أو جن ، كما قال تعالى :

(٦٥/٢١)

وَ ما يَعْقِلُها إِلَّا الْعالِمُونَ [العنكبوت ٢٩/

م

ل منزلة المصدر ، مثل : « تسمع بالمعيديّ خير من أن تراه » أو صفة لمحذوف تقديره : آية يريكم بها البرق.

الْبَرْقَ شرارة كهربائية تظهر في الجو نتيجة احتكاك السحب ، وينشأ عنها الرعد.

خَوْفاً للمسافر من الصواعق. وَطَمَعاً في الغيث للمقيم. بَعْدَ مَوْتِها بعد يبسها ، وإحياؤها يكون بالإنبات.

إِنَّ فِي ذلِكَ المذكور. لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ لدلالات على قدرته تعالى لقوم يتدبرون ، يستعملون عقولهم في كيفية تكونها ليظهر لهم كمال قدرة الصانع وحكمته.

بِأَمْرِهِ أي بإقامته لهما وإرادته قيامهما في موقعهما المعين من غير مقيم محسوس وجعل السماء من غير عمد ترونها. ثُمَّ إِذا دَعاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ أي خروجكم من القبور إذا دعاكم دعوة واحدة ، فيقول : أيتها الموتى اخرجوا ، أو بأن ينفخ إسرافيل في الصور للبعث من القبور. إِذا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ أي تخرجون من القبور أحياء. وَلَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ ملكا وخلقا

ج ٢١ ، ص : ٦٨

و عبيدا. قانِتُونَ مطيعون منقادون لفعله فيهما ، لا يمتنعون عليه. يَبْدَؤُا الْخَلْقَ خلق الناس. ثُمَّ يُعِيدُهُ بعد هلاكهم. وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ أي الإعادة أسهل عليه من البدء ، بالنظر إلى مفهوم المخاطبين أن إعادة الشيء أسهل من ابتدائه ، وإلا فهما عند اللّه تعالى سواء في السهولة. وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلى أي الصفة العليا ، وهي أنه لا إله إلّا اللّه ، أي الوصف بالوحدانية الأعلى الذي ليس لغيره ما يساويه أو يدانيه في السموات والأرض ، يتصف به دلالة ونطقا. أو له الوصف العجيب الشأن كالقدرة العامة والحكمة التامة. وَهُوَ الْعَزِيزُ القادر في ملكه الذي لا يعجز عن إبداء ممكن وإعادته. الْحَكِيمُ الذي يجري الأفعال في خلقه على مقتضى حكمته.

(٦٦/٢١)

سبب النزول : نزول الآية (٢٧) :

وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ : أخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة قال : تعجب الكفار من إحياء اللّه الموتى ، فنزلت : وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ، ثُمَّ يُعِيدُهُ ، وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ.

المناسبة :

بعد بيان الأمر بتنزيه اللّه تعالى عن جميع النقائص ، واستحقاقه الحمد على خلق جميع الأشياء ، وبيان قدرته على الإماتة والإحياء ، ذكر هنا أدلة التوحيد والوجود والعظمة وكمال القدرة ، والحجج المثبتة للبعث والإعادة ، مبتدئا بدليل خلق الإنسان من تراب ثم بقاء النوع الإنساني بالتوالد ، ثم خلق السموات والأرض ومشاهد الكون ، واختلاف ألوان البشر ولغاتهم ، ومنامهم بالليل واكتسابهم بالنهار ، وتلك أوصاف تعرض للنفوس ، ثم عوارض الكون من البرق والمطر والإنبات ، ثم خضوع السماء والأرض لإرادته وإذعان الأموات لدعوته بالخروج أحياء من القبور ، وأعقب كل ذلك بما هو كالنتيجة لما سبق ، من تقرير كمال القدرة على بدء الخلق وإعادته واتصافه بالصفة العليا وهي الوحدانية وجميع الصفات الباهرة كالقدرة التامة والحكمة الشاملة.

ج ٢١ ، ص : ٦٩

التفسير والبيان :

وَمِنْ آياتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرابٍ ، ثُمَّ إِذا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ أي ومن آياته تعالى الدالة على عظمته وكمال قدرته على الخلق والإيجاد والإعدام والإفناء بدء خلق الإنسان ، فخلق أباكم في الأصل من تراب ، وجعل مصدر غذائكم من لحوم الحيوان والنبات من التراب ، ثم بعد إنشائكم تعمرون الأرض وتتوزعون فيها لأغراض مختلفة من بناء المدائن والحصون ، وزراعة الحقول ، والاتّجار بالسفر في البلاد المختلفة لتحصيل الأرزاق ، وكسب المعايش ، وجمع الأموال ، مع اختلاف المواهب والعقول والأفكار ، والغنى والفقر ، والسعادة والتعاسة.

(٢١/٦٧)

روى الإمام أحمد والترمذي وأبو داود عن أبي موسى الأشعري قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : « إن اللّه خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض ، فجاء بنو آدم على قدر الأرض ، جاء منهم الأبيض والأحمر والأسود ، وبين ذلك ، والخبيث والطيب ، والسهل والحزن ، وبين ذلك » .

ثم ذكر اللّه تعالى طريق بقاء النوع الإنساني فقال :

وَمِنْ آياتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْها ، وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ، إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ أي ومن آياته الدالة على قدرته ورحمته أن خلق النساء لكم من جنس الرجال ،

وجعل بدء خلق المرأة من جسد الرجل ، ليتحقق الوفاق ويكتمل الأنس ، وجعل بين الجنسين المودة أي المحبة ، والرحمة أي الشفقة ليتعاون الجنسان على أعباء الحياة ، وتدوم الأسرة على أقوى أساس وأتم نظام ، ويتم السكن والاطمئنان والراحة والهدوء ، فإن الرجل يمسك المرأة ويتعلق بها إما لمحبته لها ، أو لرحمة بها بأن يكون لها منه ولد ، أو محتاجة إليه في الإنفاق ، أو للألفة بينهما وغير ذلك.

إن في ذلك الخلق والإيجاد الأصلي من التراب ، وجعل الأزواج من أنفس

ج ٢١ ، ص : ٧٠

الرجال ، وتقوية الروابط بينهما بالمودة والمحبة والرحمة والرأفة لدلالة على الخالق الموجد والنعم المتفضل لمن تأمل وفكر في أسباب الحياة ، وتحقيق النتائج ، وبناء الروابط على وفق الحكمة والمصلحة ، والنظام البديع.

(٦٨/٢١)

فأبونا من تراب ، وذريته من ماء ، والماء من الدم ، والدم من الغذاء ، والغذاء من النبات وخواص الأرض وكنوزها ، ثم جعل الرابطة الزوجية بين الجنسين من تكوين واحد ، وطباع واحدة ، وغرائز متحدة ، ليتحقق السكن إلى المرأة ، ويتوافر الميل إليها ، ويحدث الهدوء النفسي معها فإن النفس ميالة إلى ما يلائمها ، وينسجم معها في الأغراض ، نافرة مما يناقضها ويعاكسها في الجملة.

وقوله : لِتَسْكُنُوا إِلَيْها يفسره قوله تعالى : هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْها زَوْجَها ، لِيَسْكُنَ إِلَيْها [الأعراف ٧/ ١٨٩].

ثم ذكر اللّه تعالى أدلة أخرى على وجوده وربوبيته وتوحيده وقدرته من الكون العظيم وعظمة تكوين الإنسان ، فقال :

وَمِنْ آياتِهِ خَلْقُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوانِكُمْ ، إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِلْعالِمِينَ أي ومن آياته تعالى الدالة على قدرته العظيمة ووجوده : خلقه السموات المرتفعة بدون عمد ، المزينة بالكواكب والنجوم الثوابت والسيارات ، وخلق الأرض بطبقاتها المترعة بالكنوز والمعادن والخيرات ، المثبّتة بالجبال ، المشتملة على الوديان والقفار ، والبحار ، والحيوان ، والأشجار.

ولم يكن ذلك الكون فارغا من المخلوقات ، وإنما أوجد فيه الأنس بالناس ذوي الجنسيات المتعددة ، واللغات المختلفة ، والألوان المتنوعة ، والأصوات المتميزة ، والسمات والهيئات والتقاطيع المتفاوتة كاختلاف البصمات وغير ذلك من حسن وجمال ، وقبح وتفاوت بالرغم من كونهم من أصل واحد وأب واحد وأم واحدة. قال اللّه تعالى : بَلى قادِرِينَ عَلى أَنْ نُسَوِّيَ بَنانَهُ [القيامة ٧٥/ ٤].

ج ٢١ ، ص : ٧١

إن في ذلك المذكور لآيات دالة على تمام القدرة الإلهية لقوم ذوي عقول نافذة ، وأفكار مبصرة ، وعلوم نافعة تهديهم إلى الحق ، وترشدهم إلى التفكير في المخلوقات ، وتبين لهم أنها خلقت لحكمة بالغة ، ومصلحة راقية ، لا عبثا ولا فسادا.

وَمِنْ آياتِهِ مَنامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهارِ ، وَابْتِغاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ ، إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ أي ومن علامات قدرته ورحمته تعالى التمكين من الراحة من التعب ، والهدوء والاستقرار بالليل ، والحركة والسعي للرزق والنشاط المتتابع في النهار ، إن في ذلك المذكور لدلالات وعبرا لقوم يسمعون سماع اتعاظ وتدبر ، ووعي وتفهم للحجج ، يؤدي بهم إلى القناعة والاعتقاد الجازم بأن اللّه قادر على بعث العالم وإعادته.

ثم ذكر اللّه تعالى أدلة من عوارض الأكوان وتقلبات الحياة ، فقال :

وَمِنْ آياتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً ، وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّماءِ ماءً ، فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها ، إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ أي ومن آياته الدالة أيضا على عظمة قدرته إراءتكم البرق ، خوفا للمسافر وغيره من الصواعق المتلفة ، وطمعا فيما تحبون من المطر المحتاج إليه لحياة الإنسان والحيوان والنبات ، كما قال : وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّماءِ ماءً ، فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها [الروم ٣٠/ ٢٤] ، أي بعد ما كانت هامدة لا نبات فيها ولا شيء ، فلما جاءها الماء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ [الحج ٢٢/ ٥].

إن في ذلك المذكور من الإحياء بعد الموت لبرهانا ساطعا دالا على البعث والمعاد وقيام الساعة ، فإن الذي أحيا الأرض قادر على إحياء الموتى ، وهو على كل شيء قدير.

وَ مِنْ آياتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّماءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ، ثُمَّ إِذا دَعاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ

ج ٢١ ، ص : ٧٢

إِذا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ

أي ومن أدلة قدرته ووجوده تعالى قيام السماء بلا عمد ، والأرض الكروية الدائرية القائمة في الفضاء بلا وتد ، بل بإقامته وتدبيره وإحكامه وتصرفه ، كما قال : اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّماواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها [الرعد ١٣/ ٢] ، وقال : وَيُمْسِكُ السَّماءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ [الحج ٢٢/ ٦٥] ، وقال : إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولا [فاطر ٣٥/ ٤١].

ثم إنه تعالى يحفظ نظام هذا العالم حتى ينتهي أجل الدنيا ، فإذا دعاكم الداعي حينئذ للخروج من قبوركم أحياء خرجتم ، كما قال : يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْداثِ سِراعاً كَأَنَّهُمْ إِلى نُصُبٍ يُوفِضُونَ [المعارج ٧٠/ ٤٣] ، وقال : يَوْمَ يَدْعُوكُمْ ، فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ ، وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا [الإسراء ١٧/ ٥٢] ، وقال : فَإِنَّما هِيَ زَجْرَةٌ واحِدَةٌ ، فَإِذا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ [النازعات ٧٩/ ١٣- ١٤] ، وقال : إِنْ كانَتْ إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً ، فَإِذا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنا مُحْضَرُونَ [يس ٣٦/ ٥٣].

والنتيجة الحتمية هي :

وَلَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قانِتُونَ أي وللّه جميع من في السموات والأرض ملكا وخلقا وعبيدا وتصريفا ، وهم جميعا خاضعون خاشعون لما يريد اللّه من موت أو حياة ، وحركة أو سكون ، طوعا أو كرها.

روي عن أبي سعيد الخدري مرفوعا إلى النبي صلّى اللّه عليه وسلّم قال : « كلّ قنوت في القرآن فهو الطاعة » .

وَ هُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ أي واللّه تعالى هو الذي بدأ خلق الإنسان من غير أصل سابق له ، ثم يميته ويفنيه ، ثم يعيده كما بدأه ، وذلك أيسر وأسهل عليه ، بحسب تصور البشر المخاطبين وإدراكهم أن

الإعادة أسهل من البدء ، وكل ما ذكر كان تقريبا لعقول الكفرة الجهلة منكري البعث ، وإلا فالبدء والإعادة سواء في قدرة اللّه تعالى ، فأهون بمعنى : هيّن لأنه ليس شيء أهون على اللّه من شي ء.

أخرج البخاري عن أبي هريرة رضي اللّه عنه قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : « يقول اللّه تعالى : كذّبني ابن آدم ، ولم يكن له ذلك ، وشتمني ولم يكن له ذلك ، فأما تكذيبه إياي فقوله : لن يعيدني كما بدأني ، وليس أول الخلق بأهون عليّ من إعادته ، وأما شتمه إياي فقوله : اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً [البقرة ٢/ ١١٦ ومواضع أخرى] ، وأنا الأحد الصمد الذي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ [الإخلاص ١١٢/ ٣- ٤] » .

وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلى فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ أي وله الصفة العليا الكاملة وهي تفرده بالوحدانية ، أي أنه لا إله إلا اللّه ، ولا ربّ غيره ، واتصافه بكل صفات الكمال ، وتنزهه عن جميع صفات النقصان ، وليس كمثله شيء ، فلا ندّ ولا شبيه ولا نظير له ، وهو القوي في ملكه الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء ، الحكيم في صنعه وتدبير خلقه ، خلق فسوّى ، وقدّر فهدى ،

يجري كل شيء في الوجود على وفق علمه وإرادته ، ومقتضى حكمته ، ونطق كل موجود بأنه الخالق الواحد القادر القاهر فوق عباده ، لا رادّ لقضائه ، ولا معقّب لحكمه.

فقه الحياة أو الأحكام :

في الآيات ستة أدلة على ربوبية اللّه تعالى ووحدانيته ونتيجة مقررة لها وهي :

١- الدليل الأول :

خلق أصل الإنسان من تراب ، والفرع كالأصل. وقد خلق اللّه تعالى

الإنسان أولا ، لا أنه خلقه حيوانا ثم جعله إنسانا ، ثم زوده بعد الخلق بطاقات الإدراك والمعرفة والعلم والعقل ، فأصبح هناك عقلاء ناطقون يتصرفون في قوام معايشهم ، لم يخلقهم عبثا ، وإنما لحكمة ورسالة معينة ، ومن قدر على هذا فهو أهل للعبادة والتسبيح.

والتعبير بقوله : بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ إشارة بقوله بَشَرٌ إلى القوة المدركة المغايرة للحيوان ، وبقوله تَنْتَشِرُونَ إشارة إلى القوة المحركة ، وكلاهما من التراب عجيب. وقد خصّ اللّه تعالى بالذكر عنصري التراب والماء ، مع أن الإنسان مركب من العناصر الأربعة وهي التراب والماء والهواء والنار لأن الحاجة إلى الهواء والنار تكون بعد امتزاج الماء بالتراب ، ولأن المحسوس من العناصر في الغالب هو التراب والماء « ١ » .

٢- الدليل الثاني :

بقاء النوع الإنساني بالتوالد : دلّ قوله تعالى مِنْ أَنْفُسِكُمْ على أن اللّه خلق حواء من جسم آدم كما قال بعضهم ، والصحيح كما قال الرازي : أن المراد منه من جنسكم ، كما قال تعالى : لَقَدْ جاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ [التوبة ٩/ ١٢٨] ، ويدل عليه قوله : لِتَسْكُنُوا إِلَيْها أي أن السكن والألفة والاطمئنان لا تتحقق إلا بين متحدي الجنس « ٢ » . وأحاط اللّه تعالى رباط الزوجية بما يكفل دوامه واستمراره ، فجعل النساء موضع سكون قلبي واطمئنان للرجال ، وجعل بين الزوجين مودة ورحمة أي محبة وشفقة ، كما قال السدّي ، وروي معناه عن ابن عباس قال : المودّة : حبّ الرجل امرأته ، والرحمة : رحمته إياها أن يصيبها بسوء.

---

(١) تفسير الرازي : ٢٥/ ١٠٨- ١١٠

(٢) تفسير الرازي : ٢٥/ ١١٠
ج ٢١ ، ص : ٧٥

(٧٣/٢١)

و الخلاصة : أن اللّه تعالى حافظ على النوع الإنساني بأمرين : كون الزوج من جنس الرجل ، وما تفضي إليه الجنسية وهو السكون إليه ، فالجنسية توجب السكون ، وأحاط السكون بأمرين : المودة والرحمة ، والمودة تكون أولا ثم إنها تفضي إلى الرحمة لأن الإنسان يجد بين القرينين الزوجين من التراحم ما لا يجده بين ذوي الأرحام ، وليس ذلك بمجرد الشهوة ، فإنها قد تنتفي وتزول أو يعصف بها الغضب الكثير الوقوع ، وتبقى الرحمة التي هي من اللّه تعالى ، وبها يدفع الإنسان المكاره عن حرمه.

٣- الدليل الثالث :

دلائل الآفاق والأنفس : وأهمها خلق السموات والأرض ، ثم اختلاف الكلام واللغات العديدة في العالم من عربية وغيرها ، واختلاف الألوان من البياض والسواد والحمرة ، واختلاف الأصوات والصور ، ومقاطع الجلد وتقاسيم الوجه وغير ذلك ، فلا تكاد ترى أحدا إلا وأنت تفرّق بينه وبين الآخر ، وليست هذه الأشياء من فعل النطفة ولا من فعل الأبوين ، فلا بدّ من فاعل ، ولا فاعل إلا اللّه تعالى. وهذا من أدلّ الأدلة على وجود المدبر البارئ.

٤- الدليل الرابع والخامس :

العرضيات الطارئة للإنسان : وهي النوم بالليل والحركة طلبا للرزق بالنهار ، وإظهار البرق والرعد تخويفا من الصواعق ، وطمعا في إنزال الغيث النافع ، وإنزال المطر فعلا من السحاب لإحياء الزرع والشجر وإنبات النبات وتغذية منابع الماء ومصادر الثروة المائية.

٥- الدليل السادس :

إقامة السماء والأرض وإمساكهما بقدرته وتدبيره وحكمته ، فيمسك تعالى السماء بغير عمد لمنافع الخلق ، كيلا تسقط على الناس ، ويحفظ الأرض الدائرة

ج ٢١ ، ص : ٧٦

(٧٤/٢١)

المتحركة بأهلها من غير وتد ، وفي حال من التوازن ، دون تعارض ولا تصادم بينها وبين بقية الكواكب الثابتة والسيارة ، حتى ينتهي أجل الدنيا ، وحينئذ يحدث البعث ، فإن الذي خلق هذه الأشياء قادر

على أن يبعث المخلوقات من قبورهم ، والمراد من قوله : ثُمَّ إِذا دَعاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ سرعة وجود ذلك من غير توقف ولا انتظار ، كما يجيب الداعي المطاع مدعوّه.

٦- النتيجة المقررة لما سبق من إثبات الوحدانية التي هي الأصل الأول ، وإثبات القدرة على الحشر التي هي الأصل الآخر : أن للّه جميع من في السموات والأرض خلقا وملكا وعبيدا وتصرفا ، كلّ له طائعون طاعة انقياد ، وأن اللّه تعالى هو مبدئ الخلق وهو معيده مرة أخرى ، كما قال : إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ [البروج ٨٥/ ١٣] ، والإعادة أمر هيّن على اللّه ، والبدء والإعادة سواء في قدرة اللّه تعالى.

وإذ ثبتت القدرة العظمى للّه في كل شيء ، وثبتت الوحدانية ، فلله الصفة العليا في السموات والأرض : وهي أنه لا إله إلا هو ولا ربّ غيره ، وتلك صفة الوحدانية ، وأنه متصف بكل كمال ، منزّه عن كل نقصان ، ليس كمثله شيء ، وهو السميع البصير ، القوي الغالب الذي لا يعجزه شيء ، الحكيم في صنعه وتدبير خلقه ، وما أراده جلّ وعزّ كان.

دعاء الأرق :

إن النوم بفضل اللّه وتيسيره كما قال : وَمِنْ آياتِهِ مَنامُكُمْ بِاللَّيْلِ و

قد روى الطبراني عن زيد بن ثابت رضي اللّه عنه قال : أصابني أرق من الليل ، فشكوت ذلك إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم فقال : « قل : اللهم غارت النجوم ، وهدأت العيون ، وأنت حيّ قيوم ، يا حيّ يا قيوم أنم عيني ، وأهدئ ليلي » .

فالحمد للّه الذي جعل راحة الإنسان بفضله وقدرته ، لا بالطبيعة والعادة ، فلو لا إلقاء النوم على الإنسان ليلا أو نهارا ، لما تمكن من متابعة جهده وعمله في النهار.

إثبات الوحدانية من واقع البشر [سورة الروم (٣٠) : الآيات ٢٨ الى ٢٩]

ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلاً مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ مِنْ شُرَكاءَ فِي ما رَزَقْناكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَواءٌ تَخافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٨) بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْواءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَما لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ (٢٩)

المفردات اللغوية :

ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ جعل لكم أيها المشركون مثلا كائنا منتزعا من أحوال أنفسكم التي هي أقرب الأمور إليكم. والمثل : الصفة الغريبة التي تشبه المثل في الغرابة. هَلْ لَكُمْ مِنْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ

أي من مماليككم وعبيدكم. مِنْ شُرَكاءَ لكم. فِي ما رَزَقْناكُمْ من الأموال وغيرها. فَأَنْتُمْ فِيهِ سَواءٌ أي فتكونون أنتم وهم فيه سواء في إمكان التصرف فيه ، يتصرفون فيه كتصرفكم مع أنهم بشر مثلكم.
ومن الأولى : مِنْ أَنْفُسِكُمْ للابتداء ، والثانية : مِنْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ للتبعيض ، والثالثة : مِنْ شُرَكاءَ مزيدة لتأكيد الاستفهام المقصود به النفي.
تَخافُونَهُمْ أي تخافون أن يستقلوا بالتصرف فيه. كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ أي كما يخاف الأحرار بعضهم من بعض. والمعنى : ليس مماليككم شركاء لكم في أموالكم ، فكيف تجعلون بعض مماليك اللّه شركاء له ؟ ! كَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ أي مثل ذلك التفصيل نبين الآيات بالتمثيل الموضح للمعاني.
لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ يتدبرون ، يستعملون عقولهم في تدبر الأمثال. ظَلَمُوا بالإشراك. بِغَيْرِ عِلْمٍ جاهلين لا يردعهم شي ء. فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ أي فمن يقدر على هدايته ؟ والمعنى :

لا أحد يهديهم. وَما لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ يخلصونهم من الضلالة ويحفظونهم من آفاتها ، أي : وليس لهم منقذ من قدرة اللّه.
سبب النزول :
أخرج الطبراني عن ابن عباس قال : كان يلبي أهل الشرك : لبّيك اللهم

لبيك ، لبيك لا شريك لك إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك ، فأنزل اللّه :
هَلْ لَكُمْ مِنْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ مِنْ شُرَكاءَ فِي ما رَزَقْناكُمْ.
التفسير والبيان :
من أسلوب القرآن المتميز تصوير المعنويات بصور المحسوسات ، وضرب الأمثال الواقعية تقريبا للأذهان ، وإمعانا في الإقناع ، وهذا مثل ضربه اللّه تعالى للمشركين به ، العابدين معه غيره ، الجاعلين له شركاء ، وهم مع ذلك معترفون أن شركاءه من الأصنام والأنداد عبيد له ، ملك له ، كما كانوا يقولون :
لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك إلا شريكا هو لك ، تملكه وما ملك.
والقصد من هذا المثل إثبات الوحدانية ، وهدم الشرك والوثنية ، فقال تعالى :
ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ ، هَلْ لَكُمْ مِنْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ مِنْ شُرَكاءَ فِي ما رَزَقْناكُمْ ، فَأَنْتُمْ فِيهِ سَواءٌ تَخافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ ؟ أي جعل اللّه لكم مثلا تشهدونه وتفهمونه من أنفسكم ، ومنتزع من أحوالكم ومشاعركم التي تسيطر عليكم ، وقريبة منكم قربا ملازما ، لإثبات وحدانية اللّه تعالى ،

والإقلاع عما أنتم فيه من عبادة الأوثان والأصنام.
ذلك المثل : هو هل ترضون أن يكون لكم أيها المشركون شركاء في أموالكم ؟

(٧٧/٢١)

و هؤلاء الشركاء هم عبيدكم يساوونكم في التصرف فيها ، وأنتم وهم في المال سواء ، تخافون أن يقاسموكم الأموال ؟ ! وإذا كنتم تأنفون من ذلك ، ولا ترضونه لأنفسكم ، فكيف تجعلون للّه الأنداد من خلقه ، وتجعلون عبيده شركاء له ؟ ! والمعنى المقصود : أن أحدكم يأنف من ذلك أي بأن يساويه عبده في التصرف
ج ٢١ ، ص : ٧٩
في أمواله ، فكيف تجعلون للّه الأنداد الأشباه من خلقه ؟ ! وهذا كقوله تعالى : وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ما يَكْرَهُونَ [النحل ١٦/ ٦٢] أي من البنات حيث جعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا ، وجعلوها بنات للّه ، وقد كان أحدهم إذا بشر بالأنثى ، ظل وجهه مسودا وهو كظيم ، فهم يأنفون من البنات وجعلوا الملائكة بنات اللّه ، فنسبوا إليه ما لا يرتضونه لأنفسهم ، فهذا أغلظ الكفر.
كَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ أي مثل ذلك التفصيل والتبيان في إلزام الخصم الحجة القوية ، نفصل الآيات ونوضحها لقوم يستعملون عقولهم ويتأملون فيما يقال لهم ويذكر من الأدلة المنطقية والحجج الإقناعية.
بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْواءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أي ولكن هؤلاء المشركين الذين ظلموا أنفسهم اتبعوا أهواءهم جهلا منهم ، ولم يحكّموا عقولهم ، في عبادتهم الأنداد بغير مستند من عقل أو نقل ، وساروا على غير هدى ولا علم ولا بصيرة.
فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ ؟ وَما لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ أي إذا كان أمر هؤلاء الناس المشركين كذلك ، فلا أحد يهديهم ويوفقهم إلى الحق ، بعد أن اختاروا الكفر ، وفقدوا الاستعداد للإيمان ، وصار الشرك طبعا لهم ، وخلقوا ميالين بالفطرة إليه ، واللّه عالم بهم وبشأنهم قبل خلقهم ، فصاروا معتمدين على أنفسهم ، ولا ناصر لهم ينقذهم من بأس اللّه ولا مجير لهم من عذابه وشديد انتقامه إذا أحدق بهم لأنه ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن.

(٧٨/٢١)

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى ما يأتي :

١- الشركة بين المتفاوتين في الدرجة أو الطبقة مرفوضة في واقع الأمر

ج ٢١ ، ص : ٨٠

و عادة الناس ، وهي باطلة غير قائمة فعلا بين العبيد والسادة فيما يملكه السادة ، وإذا كان الخلق كلهم عبيدا متساوين للّه تعالى ، فيبطل أن يكون شيء من العالم شريكا للّه تعالى في شيء من أفعاله.

وهذه الآية تنفي جميع محاسن العبادة عن غير اللّه تعالى ، إذ لا ملك لهم فلم يصلحوا للشركة ، ولا عظمة لهم حتى يعبدوا لعظمتهم ، ولا يرتجى منهم منفعة حتى يعبدوا لنفع ، وليس لهم قوة وقدرة لأنهم عبيد ، والعبد المملوك لا يقدر على شي ء.

٢- إذا ثبت أنه لا يجوز ولا يعقل أن يشارك المملوك مالكه ، فلا يجوز أن يكون المخلوقون المملوكون لربهم شركاء له ، ولكن الذين أشركوا تجاوزوا هذا المنطق ، واتبعوا بعبادتهم الأصنام أهواءهم من غير دليل علمي ، وقلدوا فقط الأسلاف في ذلك.

٣- هؤلاء المشركون الذين اختاروا الشرك والكفر أضلهم اللّه ، فلا هادي لهم ، كما لا هادي لكل من أضله اللّه تعالى ، وهم أيضا مخذولون فاقدو النصرة من أحد ، ولا منقذ لهم من قدرة اللّه ، ولا مجير ، ولا حيلة لهم بالهرب من عذاب اللّه ولا محيد لهم عنه.

الأمر باتباع الإسلام دين الفطرة والتوحيد [سورة الروم (٣٠) : الآيات ٣٠ الى ٣٢]

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٣٠) مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٣(١) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِما لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٣٢)

ج ٢١ ، ص : ٨١

الإعراب :

فِطْرَتَ اللَّهِ منصوب بتقدير فعل ، أي اتبع فطرة اللّه ، دل عليه قوله تعالى : فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ أي اتبع الدين ، أو منصوب على المصدر ، تقديره : فطر اللّه الخلق فطرة ، أو منصوب على الإغراء.

مُنِيبِينَ إِلَيْهِ منصوب على الحال من ضمير فَأَقِمْ. وإنما جمع حملا على المعنى لأن الخطاب للرسول صلّى اللّه عليه وسلّم ، والمراد به أمته ، مثل قوله تعالى : يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذا طَلَّقْتُمُ النِّساءَ [الطلاق ٦٥/ ١].

مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا بدل بإعادة الجار ، أي بدل من المشركين.

البلاغة :

فَأَقِمْ وَجْهَكَ من إطلاق الجزء وإرادة الكل ، أي توجه إلى اللّه بكليتك.

فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ بينهما جناس اشتقاق.

المفردات اللغوية :

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ أي اتبع الدين وأخلص فيه وأقبل على الإسلام واثبت عليه يا محمد ومن تبعك.

حَنِيفاً مائلا إلى الاستقامة ، تاركا طرق الضلالة. فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها خلقة اللّه التي خلق الناس عليها من الشعور بالعبودية للّه تعالى ، وقبول الحق وإدراكه.

لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ لا ينبغي لأحد أن يغير فطرة اللّه وخلقه ، وليس لكم أن تبدلوا دينه بأن تشركوا.

ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ أي ذلك الدين المأمور باتباعه أو الفطرة بمعنى الملة هو الدين المستقيم أو المستوي الذي لا عوج فيه ولا انحراف ، وهو توحيد اللّه. وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ أي أغلب الناس ، مثل كفار مكة حين نزول الوحي لا يعلمون توحيد اللّه تعالى واستقامة الدين ، لعدم تدبرهم وتفكرهم.

(٨٠/٢١)

مُنِيبِينَ إِلَيْهِ راجعين إليه تعالى بالتوبة وإخلاص العمل ، والتزام ما أمر به واجتناب ما نهى عنه. وَاتَّقُوهُ أي أقيموا الدين واتبعوه وخافوا اللّه لأن الخطاب للرسول صلّى اللّه عليه وسلّم والأمة معه ، غير أن الآية صدرت بخطاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم تعظيما له. فَرَّقُوا دِينَهُمْ أي اختلفوا فيما يعبدونه على اختلاف أهوائهم ، وقرئ : فارقوا ، اي تركوا دينهم الذي أمروا به.

شِيَعاً فرقا ، تشايع كل فرقة إمامها الذي قرر لها دينها وأصّله ، أي وضع أصوله.

كُلُّ حِزْبٍ بِما لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ أي كل حزب منهم بما عندهم مسرورون.

ج ٢١ ، ص : ٨٢

المناسبة :

بعد بيان أدلة الوحدانية والقدرة الإلهية على كل شيء ومنه الحشر والبعث ، وبعد توطين عزيمة الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم على الاعتزاز بدعوته وعدم الاهتمام بموقف المشركين منها ، وترك الالتفات إليهم ، أمر اللّه تعالى بمتابعة دين الإسلام ، والثبات عليه ، والإخلاص في العمل الذي اشتمل عليه لأنه فطرة اللّه التي أودع النفوس والعقول عليها ، والاعتراف بمضمونها ، والشعور الصافي بمدلولها.

التفسير والبيان :

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً ، فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها أي إذا تبين الحق في الاعتقاد والدين

بدلائله السابقة ، وبطل الشرك ومعالمه ، فاتبع الدين الذي شرعه اللّه لك من الحنيفية ملة إبراهيم ، التي هداك اللّه لها ، وأكملها لك ، وهو دين الفطرة السليمة التي فطر اللّه الخلق عليها ، فإنه خلقهم على معرفته وتوحيده وأنه لا إله غيره ، وكن بذلك مائلا عن الأديان الباطلة إلى الدين الحق. وهذا أمر للنبي صلّى اللّه عليه وسلّم وأمر لأمته أيضا. وتلك الفطرة كما قال تعالى : وَأَشْهَدَهُمْ عَلى أَنْفُسِهِمْ : أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قالُوا : بَلى [الأعراف ٧/ ١٧٢] وكما

قال النبي صلّى اللّه عليه وسلّم في الحديث القدسي الصحيح الذي رواه مسلم وأحمد : « إني خلقت عبادي حنفاء ، فاجتالتهم الشياطين عن دينهم »

و

في حديث آخر رواه البخاري ومسلم : « كل مولود يولد على الفطرة ، حتى يكون أبواه هما اللذان يهوّدانه أو ينصرانه أو يمجسانه ، كما تنتج البهيمة جمعاء « ١ » ، هل تحسّون فيها من جدعاء « ٢ » » .

فكل من الآيتين والحديثين دليل على نقاوة أصل الخلق ، وأن اللّه تعالى فطر خلقه على معرفته وتوحيده ، وعلى الإسلام الصافي ، ثم طرأ على بعضهم الأديان

---

(١) مستوية كاملة لا نقص في شيء من بدنها.

(٢) جدعاء : مقطوعة الأذن أو الأنف.

الفاسدة كاليهودية والنصرانية والمجوسية.

وقوله : فِطْرَتَ اللَّهِ أي الزموا فطرة اللّه ، أو عليكم فطرة اللّه. وقدر فعل الخطاب للجماعة لقوله : مُنِيبِينَ إِلَيْهِ.

لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ أي لا ينبغي لأحد أن يبدّل أو يغير فطرة اللّه أي الخلقة الأصلية والملة السليمة ، وهو خبر في معنى النهي أو الطلب ، أي لا تبدلوا خلق اللّه ودينه بالشرك ، فتغيروا الناس عن فطرتهم التي فطرهم اللّه عليها.

وهذا دليل على سلامة الخلقة العقدية ، ونقاوة العقل البشري في أصل التكوين والوجود ، ثم يحدث التغيير بتأثيرات البيئة من أهواء وعلوم ومعارف زائغة ، وموروثات باطلة وتقليد مستمر للأسلاف ، دون إعمال الفكر وتكوين الاعتقاد بالنظرة المستقلة الصائبة ، ولو ترك الإنسان وشأنه لما اختار غير الإسلام

دينا لأنه دين الفطرة والعقل.
ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ، وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ أي ذلك المأمور به من اتباع ملة التوحيد والتمسك بالشريعة والفطرة السليمة هو الدين المستقيم الذي لا عوج فيه ولا انحراف.

(٨٢/٢١)

غير أن أكثر الناس لا يعرفون ذلك حق المعرفة ، فهم ناكبون عنه ، لعدم إعمال فكرهم والإفادة من العلم الصحيح والبراهين الواضحة الدالة عليه ، ولو فكروا وعقلوا وعلموا حق العلم ، لما عدلوا عن ملة التوحيد وشريعة الإسلام وهديه.
مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ ، وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ ، وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ أي اتبعوا دين اللّه ، مقبلين عليه ، راجعين إليه ، وإذا أقبلتم عليه وتركتم الدنيا ، فلا تأمنوا فتتركوا عبادته ، بل خافوه وداوموا على العبادة ، وراقبوه فلا تفرطوا في طاعة ، ولا ترتكبوا معصية ، وأقيموا الصلاة ، أي داوموا على إقامتها كاملة
ج ٢١ ، ص : ٨٤
الأركان مستوفية الشروط ، قائمة على الخشوع وتعظيم اللّه عز وجل ، ولا تكونوا بعد الإيمان من المشركين به غيره ، فلا تقصدوا بذلك غير اللّه ، أي بل كونوا من الموحدين المخلصين له العبادة ، لا يريدون بها سواه ، والعبادة الخالصة هي كما
جاء في الحديث الصحيح عند الشيخين عن عمر : « اعبد اللّه كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .
وروى ابن جرير عن يزيد بن أبي مريم قال : مرّ عمر رضي اللّه عنه بمعاذ بن جبل ، فقال عمر : ما قوام هذه الأمة ؟ قال معاذ : ثلاث ، وهن المنجيات : الإخلاص ، وهي الفطرة فطرة اللّه التي فطر الناس عليها ، والصلاة وهي الملة ، والطاعة وهي العصمة ، فقال عمر : صدقت.
وأوصاف المشركين هي :

(٨٣/٢١)

مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكانُوا شِيَعاً ، كُلُّ حِزْبٍ بِما لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ أي من المشركين الذين فرقوا دينهم أي اختلفوا فيما يعبدونه على حسب اختلاف أهوائهم ، وبدلوا دين الفطرة وغيروه ، وآمنوا ببعض وكفروا ببعض ، وصاروا فرقا مختلفة كاليهود والنصارى والمجوس وعبدة الأوثان وسائر أهل الأديان الباطلة ، كل فرقة منهم تفرح بما عندها وتسر وتعجب ، وتزعم أن الصواب في جانبها ، مع أنهم على

الباطل الذي يناقض الحق الذي أراده اللّه واختاره دينا لعباده.

وهذا يشمل أيضا اختلاف الأمة الإسلامية ، اختلفوا بينهم على مذاهب شتى في الاعتقاد والعمل ، كلها ضلالة ، إلا واحدة ، وهم أهل السنة والجماعة المتمسكون بكتاب اللّه وسنة رسوله صلّى اللّه عليه وسلّم ، وبما كان عليه الصدر الأول من الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين ، كما

روى الحاكم في مستدركه أنه سئل صلّى اللّه عليه وسلّم عن الفرقة الناجية منهم ، فقال : « من كان على ما أنا عليه اليوم وأصحابي » .

وقرئ : « فارقوا دينهم » .

ج ٢١ ، ص : ٨٥

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى ما يأتي :

١- الإسلام دين الفطرة والتوحيد ، فهو دين يلائم أصل الفطرة السوية التي فطر اللّه الناس عليها.

وفطرة اللّه هي التوحيد ، فإن اللّه خلق الناس موحدين مقرين بوجود ربهم وبوحدانيته ، حيث أخذهم من ظهر آدم في عالم الذر ، وسألهم : أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ؟ فقالوا : بَلى [الأعراف ٧/ ١٧٢].

٢- أمر اللّه تعالى باتباع دين الفطرة النقية لأنه دين التوحيد ، والدين المستقيم الذي لا عوج فيه ولا انحراف ، وهو دين الإسلام ، وحذر من تبديله وتغييره ، فلا يصح تبديل دين اللّه ، قال البخاري : قوله : لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ : لدين اللّه ، خلق الأولين ، دين الأولين ، الدين والفطرة : الإسلام.

كما حذر اللّه تعالى من الميل لأي دين آخر غير ملة الإسلام ، بقوله :

حَنِيفاً معناه معتدلا مائلا عن جميع الأديان المحرّفة المنسوخة.

٣- إن أكثر الناس لا يتفكرون ، فيعلمون أن لهم خالقا معبودا ، وإلها قديما سبق قضاؤه ونفذ حكمه ، وأن الإسلام هو الدين المستقيم.

٤- أمر اللّه تعالى بالإنابة إليه ، أي بالرجوع إليه بالتوبة والإخلاص ، والإقبال عليه ، وإطاعته ، والتوبة إليه من الذنوب.

وأمر أيضا بالتقوى ، أي بالخوف من اللّه وامتثال ما أمر به ، وبإقامة الصلاة تامة كاملة مشتملة على الخشوع ومحبة الإله المعبود ، وحذر من اقتران العبادة بالشرك ، فأبان أن العبادة لا تنفع إلا مع الإخلاص ، فلذلك قال :

ج ٢١ ، ص : ٨٦

وَ لا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ والمراد إخراج العبد عن الشرك الخفي ، أي لا تقصدوا بعملكم إلا وجه اللّه ولا تطلبوا به إلا رضاء اللّه.

٥- لقد غيّر الناس دين الفطرة ، وجعلوا أديانا وآراء متناقضة ، وذلك يشمل المشركين : عبدة الأوثان ، واليهود والنصارى ، والمسلمين أهل القبلة أصحاب الأهواء والبدع ، كل حزب بما عندهم مسرورون معجبون لأنهم لم يتبينوا الحق ، وعليهم أن يتبينوه.

سوء حال بعض الناس بالرجوع إلى اللّه أحيانا ثم الشرك والنكول [سورة الروم (٣٠) : الآيات ٣٣ الى ٣٧]

وَ إِذا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذا أَذاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٣٣) لِيَكْفُرُوا بِما آتَيْناهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣٤) أَمْ أَنْزَلْنا عَلَيْهِمْ سُلْطاناً فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِما كانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ (٣٥) وَإِذا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِها وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذا هُمْ يَقْنَطُونَ (٣٦) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣٧)

الإعراب :

أَمْ أَنْزَلْنا عَلَيْهِمْ سُلْطاناً سُلْطاناً : قيل : هو جمع (سليط) كرغيف ورغفان ، وقفيز وقفزان ، ويجوز فيه التذكير والتأنيث ، فمن ذكّر فعلى معنى الجمع ، ومن أنثه فعلى معنى الجماعة. والأصح أن السلطان : الحجة ، وتكلّمه مجاز كما تقول : كتابه ناطق بكذا ، وهذا مما نطق به القرآن ، ومعناه الدلالة.

وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ .. إذا هُمْ يَقْنَطُونَ إِنْ : شرطية ، وجوابها قوله : إذا

ج ٢١ ، ص : ٨٧

بمنزلة الفاء ، وصارت إذا بمنزلة الفاء لأنها لا يبتدأ بها ، كما لا يبتدأ بالفاء ، بسبب أنها للمفاجاة.

وإنما يبتدأ ب (إذا) إذا كان فيها معنى الشرط. وتُصِبْهُمْ : مبتدأ ، ويَقْنَطُونَ :

خبره. وإذا خبر آخر ، تقديره : وبالحضرة هم قانطون.

البلاغة :

يَبْسُطُ وَيَقْدِرُ بينهما طباق.

فَتَمَتَّعُوا التفات من الغيبة إلى الخطاب للمبالغة.

المفردات اللغوية :

وَ إِذا مَسَّ النَّاسَ أي المشركين كفار مكة وأمثالهم. ضُرٌّ شدة وبلاء. مُنِيبِينَ إِلَيْهِ راجعين إليه دون غيره. ثُمَّ إِذا أَذاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً أي خلاصا من تلك الشدة. إِذا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ أي فاجأ فريق منهم الإشراك بربهم.

لِيَكْفُرُوا بِما آتَيْناهُمْ اللام فيه لام العاقبة أو الصيرورة ، مثل آية لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَناً [القصص ٢٨/ ٨] وقيل : للأمر بمعنى التهديد. فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ عاقبة تمتعكم.

أَمْ بمعنى همزة الإنكار. سُلْطاناً حجة وكتابا. فَهُوَ يَتَكَلَّمُ تكلم دلالة ، فهو مجاز ، كما تقول : كتابه ناطق بكذا ، ومعناه الدلالة والشهادة ، كأنه قال : فهو يشهد بشركهم وبصحته. بِما كانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ أي يأمرهم بالإشراك.

وَإِذا أَذَقْنَا النَّاسَ فئة من الكفار. رَحْمَةً نعمة من صحة وسعة. فَرِحُوا بِها فرح بطر ، أي بطروا بسببها. سَيِّئَةٌ شدة. بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ أي بشؤم معاصيهم.

يَقْنَطُونَ ييأسون من الرحمة. ومن شأن المؤمن أن يشكر عند النعمة ، ويرجو عند الشدة.

أَ وَلَمْ يَرَوْا أولم يعلموا. يَبْسُطُ يوسع. لِمَنْ يَشاءُ امتحانا. وَيَقْدِرُ يضيق لمن يشاء ابتلاء. إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ بربهم ، فيستدلون بها على كمال القدرة والحكمة.

المناسبة :

بعد بيان التوحيد والاستدلال عليه عقلا وبالمثال ، أبان اللّه تعالى حال فئتين من الناس : الأولى- بعض المشركين الذين يتضرعون إلى اللّه وقت الشدة ، ويشركون به الأوثان والأصنام وقت الرخاء. والثانية- بعض الكفار أو

المشركين غير المذكورين سابقا الذين تكون عبادتهم اللّه للدنيا ، إن أوتوا منها رضوا ، وإن منعوا منها سخطوا وقنطوا.

التفسير والبيان :

وَ إِذا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ، ثُمَّ إِذا أَذاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً ، إِذا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ أي إذا أصاب الناس عادة شدة أو بلاء من مرض أو قحط أو تعرض للخطر في جو أو بحر أو بر ونحو ذلك من حالات الاضطرار ، لجؤوا إلى اللّه يدعونه وحده لا شريك له ، وتضرعوا إليه واستغاثوا به مقبلين عليه ، راجعين إليه ، حتى إذا كشف عنهم البلاء وأسبغ عليهم النعمة ، فاجأ فريق منهم في حالة الاختيار ، يشركون باللّه ، ويعبدون معه غيره من الأوثان والأصنام.

فهم انتهازيون نفعيون يؤمنون باللّه ، ويدعونه دون سواه وقت المصلحة أو الحاجة الشديدة ، ثم يتنكرون لربهم ، ويعرضون عنه حال السراء والرخاء ، بل ويشركون به سواه ، وهذا مبعث العجب والاستغراب.

لِيَكْفُرُوا بِما آتَيْناهُمْ اللام لام العاقبة ، أي ليؤول أمرهم إلى الكفر بنعمة اللّه ، وجحود فضله وإحسانه.

ورأى بعضهم أن الفعل فعل أمر للتهديد ، كما في قوله تعالى : فَمَنْ شاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شاءَ فَلْيَكْفُرْ [الكهف ١٨/ ٢٩] وكالأمر بعده :

فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ الأمر للتهديد ، كما في قوله تعالى : اعْمَلُوا ما شِئْتُمْ [فصلت ٤١/ ٤٠] أي استمتعوا أيها المشركون بمتاع الدنيا ورخائها ، فمتاعها قصير زائل ، فسوف تعلمون عقابي وشدة عذابي في الآخرة على كفركم في الدنيا.

قال بعضهم : واللّه لو توعدني حارس درب ، لخفت منه ، فكيف والمتوعّد هاهنا هو الذي يقول للشيء : كُنْ فَيَكُونُ ؟ !

ج ٢١ ، ص : ٨٩

ثم أنكر اللّه تعالى على المشركين فيما اختلفوا فيه من عبادة غيره بلا دليل ولا حجة ، فقال :

أَمْ أَنْزَلْنا عَلَيْهِمْ سُلْطاناً فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِما كانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ أي أأنزلنا عليهم في عبادة الأوثان حجة وكتابا فيه تقرير ما يفعلون ، وينطق أو يدل ويشهد بشركهم ؟ ! وهذا استفهام إنكاري معناه أنه لم يكن شيء من ذلك ، فلم ينزل اللّه عليهم كتابا بما يقولون ، ولا أرسل رسولا ، وإنما هو شيء اخترعوه ، وفي ضلالتهم يترددون.

وبعد ان بيّن اللّه تعالى حال المشرك الظاهر شركه ، بيّن حال المشرك الذي دونه ، وهو من تكون عبادته اللّه للدنيا ، فإذا آتاه منها رضي ، وإذا منعه سخط وقنط ، فقال :

وَإِذا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِها ، وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذا هُمْ يَقْنَطُونَ أي إذا أنعم اللّه على بعض الناس نعمة بطر بها ، كما قال : ذَهَبَ السَّيِّئاتُ عَنِّي ، إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ [هود ١١/ ١٠] أي يفرح في نفسه ، ويفخر على غيره وإذا أصابته شدة أو شر قنط وأيس من رحمة اللّه وسخط لأن إصابته بالسيئة كان بسبب شؤم معصيته.

ويلاحظ أنه تعالى لم يذكر عند النعمة سببا لها لتفضله بها ، وذكر عند العذاب سببا تحقيقا للعدل.

وهذا إنكار على الإنسان وطبيعته ، لكن في آية أخرى عقب آية هود المتقدمة استثنى تعالى المؤمنين الصابرين فقال : إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ [هود ١١/ ١١] أي الذين صبروا في الضراء

وعملوا الصالحات ،

كما ثبت في الصحيح عند أحمد ومسلم عن صهيب : « عجبا للمؤمن ، لا يقضي اللّه له قضاء إلا كان خيرا له ، إن أصابته سرّاء شكر ، فكان خيرا له ، وإن أصابته ضراء صبر ، فكان خيرا له » .

ج ٢١ ، ص : ٩٠

ثم نبههم تعالى إلى ما يطرد اليأس والقنوط ، فقال :

أَ وَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ أي ألم يعلموا ويشاهدوا أن اللّه يوسع الرزق لمن يشاء من عباده امتحانا ، بغض النظر عن وجود صفة الكفر ، ويضيق الرزق على من يشاء ابتلاء ، ولو مع وجود الإيمان وصالح الأعمال ، فاللّه هو المتصرف الفاعل للأمرين بحكمته وعدله ، يوسع على قوم ، ويضيق على آخرين ، دون نظر إلى صفتي الإيمان والكفر لأن الدنيا لا تساوي عند اللّه جناح بعوضة ، والمؤمن : هو الراضي بقضاء اللّه وقدره ، ولا ييأس من رحمة اللّه ، فإنه لا ييأس من روح اللّه إلا القوم الكافرون.

إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ أي إن في ذلك المذكور من سعة الرزق وإقتاره لدلالة واضحة على الإيمان الصادق ، وحجة للمؤمن المصدق بوحدانية اللّه وقدرته تجعله يفوض الأمر إلى اللّه وحده.

فقه الحياة أو الأحكام :

تدل الآيات على ما يأتي :

١- إن حال فريق من المشركين أو الكفار مدعاة للعجب ، فهم يتركون الإنابة إلى اللّه تعالى مع تتابع الحجج عليهم ، وتراهم لا يثبتون على وتيرة واحدة ، فإذا مسّهم ضرّ من مرض أو شدة ، دعوا ربهم ، أي استغاثوا به في كشف ما نزل بهم ، وأقبلوا عليه وحده دون الأصنام ، لعلمهم بأنه لا فرج عندها ، وإذا أنعم اللّه عليهم بنعمة أو عافية أشركوا به في العبادة.

٢- إن مصير هؤلاء هو ملازمة الكفر ، وقد هددهم اللّه وأوعدهم على تمتعهم بمتاع الدنيا ، ثم يجدون جزاءهم العادل في عالم الآخرة.

٣- لا حجة ولا برهان للكافرين على كفرهم ، فاللّه لم ينزل عليهم في شأن

ج ٢١ ، ص : ٩١

إقرار كفرهم كتابا ولا أرسل رسولا ، ولم يسوغ ذلك في أي وثيقة يعتمدون عليها.

٤- أنكر اللّه تعالى على الإنسان من حيث هو إلا من عصمه ووفقه ، حيث إنه يفرح ويبطر حال الخصب والسعة والعافية وغيرها من النعم ، وييأس ويقنط من الرحمة والفرج حال البلاء والعقوبة ، بما عمل من المعاصي. أما المؤمن فيشكر عند الرخاء ، ويصبر عند البلاء.

٥- اللّه تعالى وحده هو المتصرف في أرزاق العباد ، فيوسع الخير في الدنيا لمن يشاء أو يضيق ، على وفق الحكمة والعدل ، فلا يصح أن يكون الفقر سببا للقنوط ، ولا ينبغي أن يكون الغنى سببا للبطر ، فكل من الغنى والفقر من اللّه تعالى ، وعلى المؤمن الموحد تفويض أمر الرزق إلى اللّه سبحانه.

الترغيب بالنفقة وأنواع العطاء وضمان الرزق وإثبات الحشر والتوحيد [سورة الروم (٣٠) : الآيات ٣٨ الى ٤٠]

فَآتِ ذَا الْقُرْبى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٣٨) وَما آتَيْتُمْ مِنْ رِباً لِيَرْبُوَا فِي أَمْوالِ النَّاسِ فَلا يَرْبُوا عِنْدَ اللَّهِ وَما آتَيْتُمْ مِنْ زَكاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ (٣٩) اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحانَهُ وَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٤٠)

البلاغة :

فَأُولئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ فيه التفات من الخطاب إلى الغيبة.

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ .. سجع مرصّع.

ج ٢١ ، ص : ٩٢

المفردات اللغوية :

فَآتِ ذَا الْقُرْبى حَقَّهُ أعط القريب حقه من صلة الرحم والبرّ به ، واحتج به الحنفية على وجوب النفقة للمحارم. وَالْمِسْكِينَ هو المحتاج وهو المعدم الذي لا مال له. وَابْنَ السَّبِيلِ المسافر المحتاج إلى المال ، وإيتاؤهما : إعطاؤهما ما وظّف لهما من الزكاة. والخطاب للنبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، وأمته تبع له في ذلك. لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ ثوابه بما يعملون أو ذاته أو جهته قاصدين إياه بمعروفهم خالصا. الْمُفْلِحُونَ الفائزون.

وَما آتَيْتُمْ مِنْ رِباً أي ما فعلتم من ربا ، وهو الزيادة ، والمراد بها الهبة أو الهدية التي يقصد بها الوصول إلى أكثر منها. لِيَرْبُوَا فِي أَمْوالِ النَّاسِ المعطين أي يزيد. فَلا يَرْبُوا عِنْدَ اللَّهِ لا يزكو عنده ، ولا يبارك فيه ، ولا ثواب فيه للمعطين.

وَما آتَيْتُمْ مِنْ زَكاةٍ أي صدقة. الْمُضْعِفُونَ ثوابهم بما أرادوه ، أي يضاعف اللّه لهم الثواب ، مأخوذ من

(أضعف) إذا صار ذا ضعف.

المناسبة :

لما ذكر اللّه تعالى أنه هو الباسط الرازق لمن يشاء والقابض له ، وجعل في ذلك آية للمؤمن ، أردفه بأنه لا ينبغي أن يتوقف الإنسان في الإحسان لذوي الحاجة ، فإن اللّه إذا بسط الرزق لا ينقص بالإنفاق ، وإذا قدر وقتّر لا يزداد بالإمساك ، ولأن من الإيمان الشفقة على خلق اللّه من قريب أو مسكين وابن سبيل.

التفسير والبيان :

فَآتِ ذَا الْقُرْبى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ يأمر اللّه تعالى بإعطاء هؤلاء ، فيقول : فأعط أيها الرسول ومن تبعك من أمتك المؤمنين ذوي القرابة حقهم من صلة الرحم والبرّ بهم والإحسان إليهم لأنهم جزء من رابطة الدم والنسب ، فكانوا أحق الناس بالتواصل والتزاور والشفقة ، وأعط الحق أيضا للمسكين الذي لا شيء له ينفق عليه ، أو له شيء لا يقوم بكفايته ، ومثله المسافر البعيد عن ماله المحتاج إلى نفقة وحوائج السفر. وسرعة المواصلات لا تستأصل حاجة هذا المسافر ، وإنما تقلل من المبلغ المالي الذي يحتاج إليه. فسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج ، ج ٢١ ، ص : ٩٣

و قد احتج أبو حنيفة رحمه اللّه بهذه الآية في وجوب النفقة للمحارم إذا كانوا محتاجين عاجزين عن الكسب. والظاهر أن الحق ليس الزكاة ، وإنما يصير حقا بالإحسان والمواساة. وقدم ذا القربى على المسكين وابن السبيل للاهتمام به لأن بره صدقة وصلة.

ذلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ ، وَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ أي إن الإيتاء أو الإعطاء لمن ذكر خير في ذاته لمن يقصدون بعملهم وجه اللّه خالصا ، أي يطلبون ذاته أو جهته أو ثوابه ورضوانه يوم القيامة ، دون أن يفعلوا ذلك رياء ولا سمعة وشهرة ، وأولئك هم المفلحون الفائزون في الدنيا والآخرة.

وكون هذا الإعطاء خيرا لأنه سبب لتكافل الأسرة وتعاون المسلمين فيما بينهم ، وفي التكافل والتعاون قوة وتوادد وتراحم وتآزر ، وتخلص من أمراض الفقر والتمزق والحقد والحسد.

ثم ذكر نوعين من أنواع العطاء : أحدهما حسن مقبول عند اللّه والآخر قبيح مبغوض عند اللّه ، أما القبيح فهو الربا ، وأما الحسن فهو الزكاة ، والقبيح هو المذكور في قوله تعالى :

وَ ما آتَيْتُمْ مِنْ رِباً لِيَرْبُوَا فِي أَمْوالِ النَّاسِ ، فَلا يَرْبُوا عِنْدَ اللَّهِ أي من أعطى عطية يريد أن يرد الناس عليه أكثر مما أهدى لهم ، فلا ثواب له عند اللّه ، كما قال تعالى : وَلا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ [المدثر ٧٤/ ٦] أي لا تعط عطاء تريد أكثر منه ، وهذا حرام على النبي صلّى اللّه عليه وسلّم على الخصوص ، حلال على غيره ، لكن لا ثواب فيه.

قال ابن عباس : الربا نوعان : ربا لا يصح ، وهو ربا البيع ، وربا لا بأس به ، وهو هدية الرجل يريد فضلها وإضعافها ، ثم تلا هذه الآية : وَما آتَيْتُمْ مِنْ رِباً لِيَرْبُوَا فِي أَمْوالِ النَّاسِ فَلا يَرْبُوا عِنْدَ اللَّهِ.

ج ٢١ ، ص : ٩٤

و روي مثل ذلك عن عكرمة والضحاك ومجاهد وقتادة ومحمد بن كعب والشعبي.

وأما العطاء الحسن الذي يثاب عليه صاحبه فهو الزكاة كما قال تعالى :

وَما آتَيْتُمْ مِنْ زَكاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ ، فَأُولئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ أي ومن أعطى صدقة يقصد بها وجه اللّه وحده خالصا ، فله الثواب المضاعف والجزاء الأفضل عند اللّه تعالى ، كما قال تعالى : مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً ، فَيُضاعِفَهُ لَهُ أَضْعافاً كَثِيرَةً [البقرة ٢/ ٢٤٥] وقال سبحانه : مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً ، فَيُضاعِفَهُ لَهُ ، وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ [الحديد ٥٧/ ١١] و

جاء في الحديث الصحيح : « و ما تصدّق أحد بعدل تمرة من كسب طيب إلا أخذها الرحمن بيمينه ، فيربيها لصاحبها ، كما يربّي أحدكم فلوّه أو فصيله ، حتى تصير التمرة أعظم من أحد » « ١ »

الجبل المعروف في المدينة.

ثم أكد اللّه تعالى ما سبق بأن الزيادة والنماء داخل في رزق اللّه المحدد لكل إنسان ، فقال :

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ، ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ، ثُمَّ يُحْيِيكُمْ أي اللّه هو الخالق الرازق الذي يرزق الإنسان من الميلاد إلى الوفاة ، ثم هو المميت بعد هذه الحياة ، ثم هو المحيي يوم القيامة للحشر والبعث.

هَلْ مِنْ شُرَكائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذلِكُمْ مِنْ شَيْ ءٍ ؟ أي هل من آلهتكم الذين تعبدونهم من دون اللّه من يفعل من ذلكم شيئا ، أي من الخلق أو الرزق أو الإماتة أو الإحياء ؟ ! لا يقدر أحد منهم على فعل شيء من ذلك ، بل اللّه سبحانه وتعالى هو المستقل بالخلق والرزق والإحياء والإماتة ، ثم يبعث الخلائق يوم القيامة ، لهذا قال :

سُبْحانَهُ وَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ أي تنزه اللّه وتقدس وتعاظم عن أن

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم والنسائي والترمذي وابن ماجه وابن خزيمة في صحيحة عن أبي هريرة.

ج ٢١ ، ص : ٩٥

يكون له شريك أو نظير أو مساو أو ولد أو والد ، بل هو الأحد الفرد الصمد.

وأضاف الشركاء إلى عبدة الأصنام لأنهم كانوا يسمونهم بالآلهة والشركاء ، ويجعلون لهم من أموالهم.

ويلاحظ أنه تعالى جمع في هذه الآية بين إثبات الأصلين : الحشر والتوحيد ، أما الحشر فبقوله : يُحْيِيكُمْ بدليل قدرته على الخلق في ابتداء الخليقة ، وأما التوحيد فبقوله : هَلْ مِنْ شُرَكائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذلِكُمْ مِنْ شَيْ ءٍ.

فقه الحياة أو الأحكام :

يفهم من الآيات ما يأتي :

١- يأمر اللّه تعالى بصلة الأقارب ذوي الأرحام ، وبمساعدة المسكين وابن السبيل ، وقد فضّل رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم الصدقة على الأقارب على عتق الرقاب ،

فقال لميمونة ، وقد أعتقت وليدة (أمة رقيقة) : « أما إنك لو أعطيتها أخوالك كان أعظم لأجرك » .

و الأصح أن الآية ليست منسوخة بآية المواريث ، فللقريب حق لازم في البرّ على كل حال ، ومعاونة المحتاجين من الفقراء والمنقطعين في الأسفار عن الوصول لبلادهم من مظاهر البرّ والخير في الإسلام.

وفسر ابن عباس الْمِسْكِينَ فقال : أي أطعم السائل الطوّاف ، وابْنَ السَّبِيلِ بأنه الضيف ، فجعل الضيافة فرضا. واستدل أبو حنيفة كما بينا بالآية على وجوب النفقة للمحارم المحتاجين.

٢- إن إعطاء الحق المقرر شرعا لمن ذكر أفضل من الإمساك إذا أريد بذلك وجه اللّه والتقرب إليه ، وفاعلوه هم المفلحون الفائزون بمطلوبهم من الثواب في الآخرة.

٣- إذا كان العطاء بقصد التوصل إلى الزيادة والأفضل فهو حرام على

ج ٢١ ، ص : ٩٦

النبي صلّى اللّه عليه وسلّم خاصة ، مباح لأمته ، وإن كان لا ثواب فيه. وهذا هو الربا الحلال أو هبة الثواب. أما الربا الحرام شرعا الذي يمحقه اللّه ، وإثمه كبير فهو ربا البيع وربا القرض ، وهو إعطاء الشيء وأخذ بدل عنه بشرط في العقد ، أو عمل بالعرف السائد.

٤- إذا كان العطاء صدقة أو زكاة بقصد إرضاء اللّه وابتغاء الثواب من عنده ، فله ذلك عند اللّه بفضله ورحمته. والعطاء لحق القرابة وصلة الرحم يكون لوجه اللّه. أما إذا كان العطاء رياء وسمعة ليحمده الناس ويثنوا عليه من أجله ، فلا ثواب فيه في الدنيا ، ولا أجر في الآخرة قال اللّه عز وجل : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذى كَالَّذِي يُنْفِقُ مالَهُ رِئاءَ النَّاسِ [البقرة ٢/ ٢٦٤].

-٥

« إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى »

(٩٦/٢١)

فلا يبارك اللّه في المأخوذ من الآخرين مقابل الهدية أو الهبة ولا ينمو ولا ثواب فيه عند اللّه تعالى ، وأما المعطى بقصد رضوان اللّه ، فذلك الذي يقبله اللّه ، ويضاعف ثوابه عشرة أضعافه إلى سبع مائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ، فإن فضل اللّه لا يحد ولا ينحصر ويمنح من يشاء.

٦- اللّه تعالى هو القادر على البعث والحشر ، كما خلقنا أول مرة ، وهو الإله الواحد الفرد الصمد الذي لا شريك له ، الخالق الرازق المميت المحيي ، المنزه عن الأنداد والأضداد والصاحبة والولد.

ولن تستطيع الآلهة المزعومة سواه شيئا من أفعاله السابقة كالخلق والرزق والإحياء والإماتة.

جزاء المفسدين والكافرين وجزاء المؤمنين [سورة الروم (٣٠) : الآيات ٤١ الى ٤٥]

ظَهَرَ الْفَسادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِما كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤١) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ (٤٢) فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ (٤٣) مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ (٤٤) لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْكافِرِينَ (٤٥)

ج ٢١ ، ص : ٩٧

البلاغة :

الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بينهما طباق.

بِما كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ مجاز مرسل بإطلاق الجزء وهو الأيدي وإرادة الكل.

فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ استعارة ، شبه القائم بالأعمال الصالحة بمن يمهد فراشه ويعدّه للنوم عليه ، توفيرا للراحة والسلامة.

المفردات اللغوية :

(٩٧/٢١)

ظَهَرَ الْفَسادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ الفساد : الخلل في الأشياء ، كالجدب والقحط وقلة النبات ، وكثرة الحرق والغرق وأخذ المال ظلما وكثرة المضار وقلة المنافع. والبر : الجزء اليابس من الأرض.

والبحر : الجزء المائي ، والمراد : في أهل البر سكان القرى والمدن والفيافي ، وأهل البحر سكان السواحل ، وركاب البحار. بِما كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ بسبب معاصيهم وذنوبهم لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا أي أن اللّه قد أفسد أسباب دنياهم ومحقها ليذيقهم وبال بعض أعمالهم وعقوبته في الدنيا قبل أن يعاقبهم بجميعها في الآخرة. لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ عما هم عليه ويتوبون. واللام : للتعليل أو للعاقبة.

قُلْ : سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ، فَانْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ أي قل يا محمد لكفار قريش وأمثالهم ، تأملوا فيما حدث في الأرض ، لتشاهدوا مصداق ذلك ، وتتحققوا صدقه. كانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ استئناف للدلالة على أن سوء عاقبتهم كان لفشوّ الشرك فيهم.

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ أي وجّه نفسك للعمل بالدين المستقيم ، البليغ الاستقامة وهو دين الإسلام.

مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا مَرَدَّ لَهُ أي قبل يوم القيامة الذي لا يقدر أن يرده واحد فلا راد له ولا مانع منه.

مِنَ اللَّهِ متعلق بفعل يَأْتِيَ ويجوز تعلقه بقوله مَرَدَّ على معنى : لا يرده اللّه لتعلق إرادته القديمة بمجيئة.

يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ يتصدعون ، أي يتفرقون بعد الحساب ، فريق في الجنة ، وفريق في السعير.

مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ أي فعليه وبال كفره وهو النار المؤبدة. يَمْهَدُونَ يوطئون منزلهم ويسوونه في الجنة.

لِيَجْزِيَ علة ليمهدون ، أو ليصدعون ، متعلق به. والاقتصار على

جزاء المؤمنين للإشعار بأنه المقصود بالذات. مِنْ فَضْلِهِ أي يثيبهم من فضله ، وهذا دليل على أن الإثابة تفضل محض. إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْكافِرِينَ أي يعاقبهم.

المناسبة :

بعد أن بيّن اللّه تعالى سوء حال المشركين ، والشرك سبب الفساد ، بدليل قوله تعالى : لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتا [الأنبياء ٢١/ ٢٢] ذكر أن الفساد قد ظهر بين الناس ، فأحلوا الحرام ، وحرموا الحلال ، وفشا الظلم ، وكثرت الحروب ، ثم نبههم وأمرهم بالمسير في الأرض ، فينظروا كيف أهلك الأمم بسبب معاصيهم وإشراكهم ، فإن اللّه تعالى أهلك قوما بسبب الشرك ، وقوما بسبب المعاصي ، والإهلاك قد يكون بالشرك ، وقد يكون بالمعاصي ، ثم أمر تعالى رسوله بالثبات في الدين الحق قبل مجيء الحساب الذي يتفرق فيه الناس : فريق في الجنة ، وفريق في السعير ، فمن كفر فعليه وبال كفره ، ومن آمن وعمل صالحا فقد أعد لنفسه المهاد الذي يستريح عليه.

التفسير والبيان :

ظَهَرَ الْفَسادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِما كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ ، لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا ، لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ أي

عمّ العالم ظهور الخلل والانحراف ، وكثرة المضار وقلة المنافع ونقص الزروع والأنفس والثمرات ، وقلة المطر وكثرة الجدب والقحط والتصحر ، بسبب شؤم معاصي الناس وذنوبهم ، من الكفر والظلم ، وانتهاك الحرمات ، ومعاداة الدين الحق ، وعدم مراقبة اللّه عز وجل في السر والعلن. والاعتداء على الحقوق وأكل مال الغير بغير حق ، ليذيقهم اللّه جزاء بعض عملهم وسوء صنيعهم من المعاصي والآثام ، وحينئذ ربما يرجعون عن غيهم ومعاصيهم ، كما قال تعالى : وَبَلَوْناهُمْ بِالْحَسَناتِ وَالسَّيِّئاتِ ، لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ [الأعراف ٧/ ١٦٨].

ج ٢١ ، ص : ٩٩

(٩٩/٢١)

ثم هدد اللّه تعالى على ظهور الفساد بالعقاب كعقاب الأمم السابقة ، فقال :

قُلْ : سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ أي قل أيها الرسول للمفسدين والمشركين : سيروا في البلاد ، وتأملوا بمصير من قبلكم ، وكيف أهلك اللّه الأمم المتقدمة ، وأذاقهم سوء العذاب بسبب كفرهم وسوء أعمالهم ، وانظروا ما حلّ بهم من تكذيب الرسل وكفران النعم ، وأن الهلاك في الأكثر كان بسبب الشرك الظاهر ، وكان أيضا بغير الشرك كالإهلاك بالفسق والمخالفة ، كما فعل بأصحاب السبت الْيَهُودُ.

قال في الكشاف : دل بقوله : كانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ على أن الشرك وحده لم يكن سبب تدميرهم ، وأن ما دونه من المعاصي يكون سببا لذلك « ١ » .

فسبب عذابهم في الغالب هو كفرهم بآيات ربهم وتكذيبهم رسله ، وهو تعليل لما سبق ، فهو دليل على تعليل الأحكام ، وعلى التزام ظاهرة العدل في العقاب الإلهي.

وبعد بيان ظاهرة الشرك والانحراف والفساد وبيان عاقبتها ، وبعد نهي الكافر عما هو عليه ، ذكر تعالى ما يقابلها من حال الاستقامة ، وأمر المؤمن بما هو عليه ، فقال :

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ أي بادر أيها الرسول ومن تبعك من المؤمنين إلى الاستقامة في طاعة اللّه ، وبادر إلى الخيرات ، ووجه نفسك كلها وبإخلاص للعمل بالدين المستقيم ، البليغ الاستقامة ، وهو دين الإسلام من قبل مجيء يوم القيامة الذي لا رادّ له ولا مانع منه ، فلا بد من وقوعه لأن اللّه كتب مجيئه وقدّره ، وما قدّره وأراد حدوثه فلا راد له ولا بد أن يكون.

---

(١) الكشاف ٢/ ٥١١

ج ٢١ ، ص : ١٠٠

ذلك اليوم الذي يتفرق فيه الناس بحسب أعمالهم ، ففريق في الجنة ، وفريق في السعير.

(١٠٠/٢١)

ثم بين اللّه تعالى أن جزاء كل فريق بحسب عمله ونتيجة فعله ، فقال :

مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ، وَمَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ أي من كفر باللّه وكتبه ورسله ، وكذب باليوم الآخر ، فعليه وبال كفره ووزره وإثمه وعاقبته ، ومن آمن باللّه وكتبه ورسله وبالبعث ، وعمل الأعمال الصالحة ، فأطاع اللّه فيما أمر ، وانتهى عما نهى عنه ، فقد أعدّ لنفسه الفراش الوطيء الوثير المريح ، والمسكن الفسيح ، والقرار الدائم.

وإنما قال : وَمَنْ عَمِلَ صالِحاً ولم يقل : ومن آمن لأن العمل الصالح المقبول لا يكون إلا بعد الإيمان ، ولأن بالعمل الصالح يكمل الإيمان ، فذكره تحريضا للمكلف عليه ، وأما الكفر إذا حدث فلا زنة للعمل معه.

وسبب التفرقة في الجزاء هو ما قال :

لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ مِنْ فَضْلِهِ ، إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْكافِرِينَ أي أنا المجازي فكيف يكون الجزاء ؟ وأنهم يتفرقون فريقين فكيف يجازون ؟

إنني أجازي المؤمنين الذين يعملون الصالحات بفضلي وإحساني ، فالمجازاة مجازاة الفضل ، فأكافئ الحسنة بعشر أمثالها ، إلى سبع مائة ضعف ، إلى ما شاء اللّه ، وأما الكافرون فإن اللّه يبغضهم ويعاقبهم ، ولكنه عقاب عادل لا يجور فيه ، وهذا تهديد ووعيد.

ودل قوله : مِنْ فَضْلِهِ على أنه لن يدخل أحد الجنة بعمله ، لقلته وحقارته ، ولكن بمحض فضل اللّه تعالى.

ويلاحظ أنه عند ما أسند اللّه تعالى الكفر والإيمان إلى العبد المخلوق ، قدّم الكافر ، فقال : مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وعند ما أسند الجزاء إلى نفسه ، قدم

ج ٢١ ، ص : ١٠١

المؤمن ، إظهارا للكرم والرحمة ، فقال : لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا ثم قال : إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْكافِرِينَ لأنه تهديد ووعيد.

فقه الحياة أو الأحكام :

يستفاد من الآيات ما يلي :

(١٠١/٢١)

١- انتشار ظاهرة الفساد والانحراف في العالم ، من الشرك أعظم الفساد ، والقحط وقلة النبات وذهاب البركة ، والمعاصي وقطع السبيل والظلم وغير ذلك من الآثام والذنوب.

والعالم هو البر والبحر المعروفان المشهوران في اللغة وعند الناس ، لا ما قاله بعض المفسرين : البر : الفيافي ، والبحر : القرى ، والعرب تسمي الأمصار البحار.

٢- إن ظهور الفساد سبب للدمار والهلاك في الدنيا ، والعقاب في الآخرة ، وعقاب الدنيا على المعاصي التي عملها بعض الناس في البر والبحر ، كحبس الغيث وغلاء الأسعار ، وكثرة الحروب ، والفتن والقلاقل ، قد يكون باعثا على التوبة ، وحافزا على الرجوع إلى اللّه والاستقامة على الطاعة ، واجتناب الذنوب والمنكرات.

٣- على الناس قديما وحديثا أن يعتبروا بمن قبلهم من الأمم السابقة ، وينظروا كيف كان عاقبة من كذب الرسل ، وقد كان أكثرهم مشركين أي كافرين فأهلكوا.

٤- النبي والمؤمنون مخاطبون بتوجيه القصد والعزيمة إلى اتباع الدين القيم ، يعني الإسلام ، في دار التكليف دار الدنيا ، قبل مجيء يوم القيامة الذي لا يردّه اللّه عنهم ولا عن غيرهم ، وليس لأحد دفعه أو منعه ، لعجزه عن ذلك أمام قدرة اللّه وقدره وقضائه السابق.

ج ٢١ ، ص : ١٠٢

و خاطب اللّه النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ليعلم المؤمن فضيلة ما هو مكلف به ، فإنه أمر به أشرف الأنبياء ، وللمؤمنين في التكليف مقام الأنبياء ، كما

قال عليه الصلاة والسلام فيما رواه مسلم عن أبي هريرة : « إن اللّه أمر المؤمنين ، بما أمر به المرسلين » .

٥- يتفرق الناس يوم القيامة فريقين بحسب أعمالهم : فريق في الجنة ، وفريق في السعير.

٦- للكافر جزاء كفره وهو النار ، وللمؤمن الذي عمل صالحا الجنة ، وهؤلاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات يوطّئون أو يقدمون لأنفسهم في الآخرة فراشا ومسكنا وقرارا بالعمل الصالح.

(١٠٢/٢١)

٧- اقتضت رحمة اللّه أن يجزي اللّه من فضله الذين آمنوا وعملوا الصالحات الذي يمهّدون لأنفسهم ، ليتميز المسلم من الكافر ، وكل إنسان يدخل الجنة بفضل اللّه ورحمته ، لا بعمله ، حتى الأنبياء.

كذلك كان مقتضى العدل أن يجازى الكافرون ويعاقبوا على كفرهم ومعاصيهم إذ لا يعقل التسوية بين المسلمين والكافرين كما قال تعالى :

أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ، ما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ، أَمْ لَكُمْ كِتابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ، إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَما تَخَيَّرُونَ [القلم ٦٨/ ٣٥- ٣٨].

الاستدلال بالرياح والأمطار على قدرة اللّه وتوحيده [سورة الروم (٣٠) : الآيات ٤٦ الى ٥١]

وَمِنْ آياتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّياحَ مُبَشِّراتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٤٦) وَلَقَدْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلاً إِلى قَوْمِهِمْ فَجاؤُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَانْتَقَمْنا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكانَ حَقًّا عَلَيْنا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (٤٧) اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّياحَ فَتُثِيرُ سَحاباً فَيَبْسُطُهُ فِي السَّماءِ كَيْفَ يَشاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفاً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ فَإِذا أَصابَ بِهِ مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ إِذا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٨) وَإِنْ كانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ (٤٩) فَانْظُرْ إِلى آثارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها إِنَّ ذلِكَ لَمُحْيِ الْمَوْتى وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٥٠)

وَ لَئِنْ أَرْسَلْنا رِيحاً فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ (٥١)

ج ٢١ ، ص : ١٠٣

الإعراب :

وَ إِنْ كانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ تكرار قَبْلِ إما للتأكيد ، وإما مع اختلاف التقدير والضمير ، أي : وإن كانوا من قبل أن ينزل الغيث عليهم من قبل السحاب لمبلسين ، والضمير يعود إلى السحاب في قوله تعالى : فَتُثِيرُ سَحاباً والسحاب يجوز تذكيره وتأنيثه.

فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا ، الهاء يعود إلى الزرع الذي دل عليه. فَانْظُرْ إِلى آثارِ رَحْمَتِ اللَّهِ أو إلى السحاب ، وإذا أريد به الزرع فسبب تذكير الضمير : أن تأنيث الرحمة غير حقيقي.

كَيْفَ يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها في موضع نصب على الحال ، حملا على المعنى لأن اللفظ لفظ الاستفهام ، والحال خبر ، والتقدير : فانظر إلى أثر رحمة اللّه محيية للأرض بعد موتها.

البلاغة :

وَمِنْ آياتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّياحَ مُبَشِّراتٍ ، وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ .. وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ بأسلوب الإطناب ، فإنه أسهب تذكيرا للعباد بالنعم الكثيرة ، وكان يكفي الجملة الأخيرة.

ْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا

فيهما جناس الاشتقاق.

اؤُهُمْ بِالْبَيِّناتِ ، فَانْتَقَمْنا

فيه إيجاز بالحذف ، حذف منه : فكذبوهم واستهزءوا بهم.

المفردات اللغوية :

الرِّياحَ أي رياح الخير والرحمة وهي الشمال والصبا والجنوب ، وأما الدّبور فريح العذاب ، قال صلّى اللّه عليه وسلّم : « اللهم اجعلها رياحا ولا تجعلها ريحا » .

مُبَشِّراتٍ تبشر بالخير وهو

ج ٢١ ، ص : ١٠٤

المطر. وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ أي ليذيقكم بها المطر والخصب أي المنافع التابعة لها. وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ السفن بها بإذنه. وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ لتطلبوا الرزق من فضل اللّه بالتجارة في البحر. وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ أي ولتشكروا نعمة اللّه فيها ، فتوحدوه.

اؤُهُمْ بِالْبَيِّناتِ

(١٠٤/٢١)

بالحجج الواضحات على صدقهم في رسالتهم إليهم ، فكذبوهم.

نْتَقَمْنا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا

أهلكنا الذين كذبوا ، ودمرنا الذين فعلوا جرما. كانَ حَقًّا عَلَيْنا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ

على الكافرين بإهلاكهم وإنجاء المؤمنين. وهو إشعار بأن الانتقام لصالح المؤمنين وإظهار كرامتهم ، حيث جعلهم اللّه مستحقين لديه أن ينصرهم ،

قال عليه الصلاة والسلام فيما رواه الطبراني وغيره عن أبي الدرداء : « ما من امرئ مسلم يردّ عن عرض أخيه إلا كان حقا على اللّه أن يرد عنه نار جهنم » ثم تلا الآية.

فَتُثِيرُ أي تحرك وتهيج. فَيَبْسُطُهُ فِي السَّماءِ ينشره متصلا بعضه ببعض. كَيْفَ يَشاءُ من قلة وكثرة ، كِسَفاً قطعا متفرقة ، وقرئ بسكون السين ، تخفيفا. الْوَدْقَ المطر. مِنْ خِلالِهِ وسطه. فَإِذا أَصابَ بِهِ مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ أصاب بالودق بلادهم وأراضيهم. إِذا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ يفرحون بالمطر أمارة الخصب.

مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ المطر. مِنْ قَبْلِهِ كرره للتأكيد والدلالة على طول زمن تأخر المطر. لَمُبْلِسِينَ آيسين من إنزاله. فَانْظُرْ إِلى آثارِ رَحْمَتِ اللَّهِ آثار الغيث من النبات والأشجار وأنواع الثمار ، وقرئ : إلى أثر. كَيْفَ يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها يبسها ، بأن يجعلها تنبت ، وقرئ : تحيي بإسناده إلى ضمير الرحمة. لَمُحْيِ الْمَوْتى لقادر على إحيائهم. وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ أي أن قدرته على جميع الممكنات سواء. وَلَئِنْ اللام لام القسم. أَرْسَلْنا رِيحاً مضرة على نبات. فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا فرأوا الأثر أو الزرع ، وقد صار جواب القسم. مِنْ بَعْدِهِ من بعد اصفراره. يَكْفُرُونَ يجحدون النعمة بالمطر ، وقوله : لَظَلُّوا مِنْ

بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ جواب سد مسد جزاء الشرط ، وحرف الشرط هو (إن) في قوله وَلَئِنْ.

المناسبة :

(١٠٥/٢١)

بعد وصف ظاهرة الفساد في العالم بسبب الشرك والمعاصي ، أقام اللّه تعالى الأدلة القاطعة على وحدانيته بإرسال الرياح والأمطار ، وعلى البعث والنشور وعلى قدرته ورحمته بإحياء الأرض بعد موتها ، وتخلل ذلك التسرية عن الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم بأنه ليس أول من كذبه الناس ، فقد تقدمه رسل كثيرون جاؤوا أقوامهم بالبينات فكذبوهم ، فانتقم اللّه منهم بالتدمير والهلاك ، فلا يجزع ولا يحزن ، والنصر دائما في جانب المؤمنين.

ج ٢١ ، ص : ١٠٥

التفسير والبيان :

يذكر اللّه تعالى نعمه وفضله على خلقه بإرساله الرياح مبشرات بمجيء الغيث ، فقال :

وَمِنْ آياتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّياحَ مُبَشِّراتٍ ، وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ ، وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ ، وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ، وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ أي ومن أدلة وحدانيته تعالى وقدرته ونعمته وآياته الكونية أنه المهيمن على كل شيء في الوجود ، فيرسل الرياح مبشرة بالخير والبركة ونزول المطر الذي يحيي الأرض بعد يبسها ، وينبت الزرع ويخرج الثمر ، وليذيق الناس من آثار رحمته بالمطر الذي ينزله ، فيحيي به العباد والبلاد ، ولتسيير السفن في البحار بالريح ، وللتمكين من ممارسة التجارة والتنقل في البلاد والأقطار للكسب والمعيشة ولشكر اللّه تعالى على ما أنعم به من النعم الظاهرة والباطنة التي لا تعد ولا تحصى ، كما قال : وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوها [إبراهيم ١٤/ ٣٤].

ثم سلّى اللّه تعالى عبده ورسوله محمدا صلّى اللّه عليه وسلّم ، فقال :

لَقَدْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلى قَوْمِهِمْ ، فَجاؤُهُمْ بِالْبَيِّناتِ ، فَانْتَقَمْنا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا ، وَكانَ حَقًّا عَلَيْنا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ

(١٠٦/٢١)

أي إن كذبك كثير من قومك أيها الرسول ، فلست أول من كذّب ، فلقد كذّبت الرسل المتقدمون بالرغم مما جاؤوا به أممهم من الدلائل الواضحات على أنهم رسل من عند اللّه ، فكذبوهم كما كذبك قومك ، فانتقم اللّه ممن كذبهم وخالفهم ، ونجّى المؤمنين الذين صدقوا باللّه ورسله ، وما جرى على

النظير يجري على نظيره قياسا عقليا وشرعيا ، فسيكون الانتقام من كفرة قومك كالانتقام ممن تقدمهم.
والخلاصة : أن اللّه تعالى بعد إثبات الأصلين : الوحدانية والبعث ، ذكر الأصل الثالث وهو النبوة.
ثم أخبر اللّه تعالى عن مبدأ عام وهو تأييد المؤمنين بالنصر ، وأنه حق أوجبه

ج ٢١ ، ص : ١٠٦

اللّه على نفسه الكريمة تكرما وتفضلا ، كقوله تعالى : كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ [الأنعام ٦/ ٥٤].
وفي هذا وعيد للكفار بالهزيمة ووعد وبشارة بالظفر للمؤمنين.
روى ابن أبي حاتم والطبراني والترمذي وابن مردويه عن أبي الدرداء رضي اللّه عنه ، قال : سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم يقول : « ما من امرئ مسلم يردّ عن عرض أخيه إلا كان حقا على اللّه أن يرد عنه نار جهنم يوم القيامة » ثم تلا هذه الآية :
كانَ حَقًّا عَلَيْنا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ.
ثم أبان تعالى كيفية خلقه السحاب الذي ينزل منه الماء ، فقال :

اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّياحَ ، فَتُثِيرُ سَحاباً ، فَيَبْسُطُهُ فِي السَّماءِ كَيْفَ يَشاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفاً أي اللّه هو الذي يسير الرياح على وفق الحكمة ومقتضى الإرادة إلى الجهة المرادة ، فتحرك السحاب وتهيجه بعد سكونه ، فينشره في السماء ويجمعه ويكثره ، فيجعل من القليل كثيرا ، ثم يجعله قطعا متفرقة ذات أحجام متنوعة ، فتارة يكون السحاب خفيفا ، وتارة يأتي السحاب من جهة البحر مشبعا بالرطوبة ، ثقيلا مملوءا بذرات الماء ، كما قال تعالى : وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّياحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ، حَتَّى إِذا أَقَلَّتْ سَحاباً ثِقالًا ، سُقْناهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ ، فَأَنْزَلْنا بِهِ الْماءَ ، فَأَخْرَجْنا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ ، كَذلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ [الأعراف ٧/ ٥٧].
فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ ، فَإِذا أَصابَ بِهِ مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ إِذا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ أي فتنظر المطر أو القطر يخرج من وسط ذلك السحاب ، فإذا أصاب به اللّه بمشيئته بعض العباد والبلاد ، فرحوا بنزوله عليهم ووصوله إليهم ، لحاجتهم إليه. فقوله مِنْ خِلالِهِ الضمير عائد في الظاهر على السحاب إذ هو المحدّث عنه.

ج ٢١ ، ص : ١٠٧

وَ إِنْ كانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ أي ينزل عليهم هذا المطر بعد أن كانوا قبل نزوله قانطين يائسين من نزوله قبل ذلك ، فكانت الفرحة شديدة التأثير في نفوسهم ، لمفاجأتهم بالغيث الذي كادوا ييأسون من نزوله. وتكرار كلمة قَبْلِهِ أي قبل الإنزال للتأكيد.

و مجمل معنى الكلام : أنهم كانوا محتاجين إليه قبل نزوله ، وكانوا قبل ذلك بفترات متفاوتة متقطعة يترقبونه فيها ، فتأخر ، ثم انتظروه مرة أخرى فتأخر ، ثم جاءهم بغتة بعد الإياس منه والقنوط ، فصارت أرضهم الهامدة منتعشة بالنبات من كل زوج بهيج.

فَانْظُرْ إِلى آثارِ رَحْمَتِ اللَّهِ ، كَيْفَ يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها أي فانظر أيها الرسول ومن تبعك نظرة تأمل واستبصار واستدلال إلى المطر الذي هو أثر من آثار رحمة اللّه ، كيف يكون سببا لإحياء النبات والزرع والأشجار والثمار ، مما يدل على واسع رحمة اللّه وعظيم قدرته.

ثم نبّه اللّه تعالى بذلك على إحياء الأجساد بعد موتها وتفرقها وتمزقها ، فقال :

إِنَّ ذلِكَ لَمُحْيِ الْمَوْتى ، وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ أي إن الذي فعل ذلك لقادر على إحياء الأموات ، أو من يقدر على إحياء الأرض بعد يبسها بالخضرة والنبات قادر على إحياء الموتى ، واللّه وحده بالغ القدرة على كل شيء ، فلا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء ، سواء في الابتداء أو في الإعادة ، كما قال سبحانه :

قالَ : مَنْ يُحْيِ الْعِظامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ؟ قُلْ : يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَها أَوَّلَ مَرَّةٍ [يس ٣٦/ ٧٨- ٧٩].

ثم بيّن تعالى سوء حال الكافرين ، وتنكرهم للمعروف والجميل ، وعدم ثباتهم على منهج واحد ، فتراهم يفرحون بالخير ، ثم ييأسون وينقطع رجاؤهم من الخير إن تعرضوا لسوء ، فقال :

ج ٢١ ، ص : ١٠٨

وَ لَئِنْ أَرْسَلْنا رِيحاً ، فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ أي وتاللّه لئن بعثنا ريحا ضارة ، أو سامة ، حارة أو باردة على نبات أو زرع أو ثمر ، فرأوا ذلك الزرع قد اصفر ، ومال إلى الفساد بعد خضرته ، لظلوا من بعد ذلك الفرح والبشر ، يجحدون نعم اللّه التي أنعم بها عليهم.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يأتي :

١- من دلائل كمال قدرة اللّه إرسال الرياح مبشرات بالمطر لأنها تتقدمه ، والغيث والخصب أثر من آثار رحمة اللّه ، ومن خواص الرياح أيضا عند هبوبها تسيير السفن في البحر ، وبالسفن ينتقل الركاب والتجار ، وتحمل البضائع من قطر إلى آخر ، فتكون وسيلة الرزق بالتجارة ، وكل ذلك من نعم اللّه وأفضاله التي تستوجب الشكر بالتوحيد والطاعة.

٢- النبوة والرسالة من نعم اللّه أيضا التي تتطلب التصديق والتأييد ، ولكن استبداد الكافرين وعنادهم يدفعهم إلى التكذيب برسالات الرسل قديما وحديثا ، فقد أرسل اللّه رسلا كثيرين إلى مختلف الأمم والأقوام والشعوب ، مؤيدين بالمعجزات والحجج النيرات ، فكذبوهم وآذوهم وسخروا منهم ، وكفروا برسالاتهم ، فانتقم اللّه ممن كفر ، ونجّى المؤمنين ونصرهم على أعدائهم ، وسنة اللّه الثابتة أنه ينصر عباده المؤمنين ، وهذا خبر صدق ، واللّه لا يخلف الميعاد ، ولا خلف في خبره.

٣- أخبر اللّه تعالى أيضا عن كيفية تكون السحاب ، وهو أن اللّه يرسل الرياح ، فتحرك الغيوم وتنقلها من مكان إلى آخر ، ثم ينشرها ويجمعها في الجو على وفق مشيئته وإرادته وحكمته ، ويجعلها قطعا متفاوتة الأحجام والأوزان

ج ٢١ ، ص : ١٠٩

و النوعية ، تارة تكون خفافا ، وتارة تصبح ثقالا مملوءة بالماء ، فإذا أنزل المطر على بعض العباد فرحوا بنزول المطر عليهم.

(٢١/١١٠)

و كانوا قبل نزول المطر عليهم يائسين حزينين لاحتباس المطر عنهم ، وأكد تعالى وجود ظاهرة اليأس والاكتئاب قبل إنزال المطر ، ليدل على شدة حال الناس ، ثم تغيرها إلى حال البشر والفرح ، فكلمة مِنْ قَبْلِهِ للتأكيد عند أكثر النحويين ، كما في قوله تعالى : فَكانَ عاقِبَتَهُما أَنَّهُما فِي النَّارِ خالِدَيْنِ فِيها [الحشر ٥٩/ ١٧]. وقال الرازي : والأولى أن يقال : مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ أي من قبل إرسال الرياح ، وذلك لأنه بعد الإرسال يعرف الخبير أن الريح فيها مطر أو ليس فيها مطر ، فقبل المطر إذا هبت الريح ، لا يكون مبلسا ، وإنما قد يكون راجيا غالبا على ظنه المطر برؤية السحب وهبوب الرياح ، فقال : مِنْ قَبْلِهِ أي من قبل ما ذكرنا من إرسال الرياح وبسط السحاب ، لبيان حال حدوث الإبلاس أي اليأس « ١ » .

٤- إن النتيجة الطبيعية لإنزال المطر هي الدلالة بذلك على أن من قدر عليه قادر على إحياء الموتى. وقوله تعالى : إِنَّ ذلِكَ لَمُحْيِ الْمَوْتى وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ نوع من القياس يقال له : قياس الغائب على الشاهد ، أو استدلال بالشاهد على الغائب ، أي إثبات البعث بناء على ثبوت ظاهرة مشابهة هي إحياء النبات.

٥- المشركون مضطربون قلقون في عقيدتهم ، فتراهم عند إقبال الخير فرحين به ، وعند ظهور السوء يائسين مكتئبين ، ومثال ذلك : أنهم إن أحرقت الريح زرعهم ، فاصفر ثم يبس ، كفروا وجحدوا وجود الخالق ، وتنكروا لمن أنعم عليهم

(١) تفسير الرازي : ٢٥/ ١٣٣ ، وكذلك قال أبو حيان في البحر المحيط (٧/ ١٧٩) : ما ذكره ابن عطية والزمخشري من فائدة التأكيد في قوله : مِنْ قَبْلِهِ غير ظاهر.

ج ٢١ ، ص : ١١٠

في أحيان أخرى ، حيث أغرقهم بسيل متلاحق من النعم ، فهم متقلّبون غير ثابتين ، لا يدومون على حالة واحدة ، وذوو نظر قاصر على الحال دون المآل أو الماضي.

تسلية النبي صلّى اللّه عليه وسلّم عما يلقاه من الإعراض عن دعوته [سورة الروم (٣٠) : الآيات ٥٢ الى ٥٣]

فَإِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتى وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعاءَ إِذا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (٥٢) وَما أَنْتَ بِهادِ الْعُمْيِ عَنْ ضَلالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلاَّ مَنْ يُؤْمِنُ بِآياتِنا فَهُمْ مُسْلِمُونَ (٥٣)

البلاغة :

فَإِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتى استعارة تصريحية ، شبه الكفار بالموتى وبالصم في عدم سماعهم سماع تدبر ووعي العظات والعبر والأدلة على صدق الرسالة النبوية.

المفردات اللغوية :

لا تُسْمِعُ الْمَوْتى أي سماع تدبر واتعاظ لأنهم سدّوا عن الحق مشاعرهم. إِذا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ قيّد عدم السماع به ليكون أشد استحالة ، فإن الأصم إذا أقبل على السماع ، وإن لم يسمع الكلام ، استفاد منه بواسطة الحركات على اللسان بعض الأشياء.

الْعُمْيِ سمى الكفار عميا لفقدهم المقصود الحقيقي من الإبصار. إِنْ تُسْمِعُ أي ما تسمع سماع إفهام وقبول إلا المؤمنين لأن إيمانهم يدعوهم إلى تلقي اللفظ وتدبر المعنى.

بِآياتِنا القرآن. فَهُمْ مُسْلِمُونَ مخلصون منقادون لما تأمرهم به.

المناسبة :

بعد بيان أدلة التوحيد والبعث ، ومهام الرسل ، والوعد والوعيد ، والإعراض عن دعوة النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، سلّاه ربه عما يراه من تماد في الإعراض وعناد ، فهم أشبه بالموتى والصمّ والعمي ، لعدم استعدادهم لسماع أدلة الهداية سماع تدبر واتعاظ ، وقد رتب المشبه بهم على حسب مدى الإعراض ، فإرشاد الميت محال ،

ج ٢١ ، ص : ١١١

ثم إرشاد الأصم الذي لا يفهم الكلام إلا بالإشارة أصعب ، ثم الأعمى الذي يفهم ويعي الشيء الكثير ، لكن إرشاده صعب أيضا.

التفسير والبيان :

فَإِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتى وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعاءَ إِذا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ أي لا تحزن ولا تجزع أيها الرسول على إعراض هؤلاء المشركين عن دعوتك ، بعد بيان أدلة التوحيد والقدرة على البعث ، وتهديدهم ووعيدهم ، فإنك لا تستطيع أن تفهم الموتى أو تسمعهم سماع تدبر واتعاظ ، ولا تقدر أن تسمع دعوتك الصم الذي لا يسمعون ، وهم أيضا مع ذلك مدبرون عنك غير مقبلين على كلامك وهدايتك ، وهم مع سماعهم في الظاهر أشبه بالموتى في أجداثهم ، والصم الذين فقدوا حاسة السمع ، لسدهم منافذ الهداية ، وإدبارهم عن سماع كلمة الحق ، وعدم استعدادهم لوعي شيء وفهمه عنك ، وهم أيضا كالعمي كما قال :

وَما أَنْتَ بِهادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلالَتِهِمْ أي وليس في مقدورك هداية العميان عن الحق ، وردهم عن ضلالتهم ، بل الهداية إلى اللّه تعالى ، فإنه بقدرته يسمع الأموات أصوات الأحياء إذا شاء ، ويهدي من يشاء ، ويضل من يشاء ، وليس ذلك لأحد سواه ، ولهذا قال تعالى :

إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآياتِنا ، فَهُمْ مُسْلِمُونَ أي لا تسمع أيها الرسول سماعا يؤدي إلى الانتفاع إلا المؤمن المصدق بالقرآن وما اشتمل عليه من دلائل التوحيد والقدرة الإلهية على كل شيء ، فهذا المؤمن إذا سمع آيات اللّه تتلى عليه ، تدبره وتفهمه ، وأقبل عليه يعمل بما جاء فيه ، وينتهي عما نهى عنه ، وهؤلاء المؤمنون هم المسلمون ، أي الخاضعون المستجيبون المطيعون للّه فيما أمر ونهى ، وأولئك هم الذين يسمعون الحق ويتبعونه.

ج ٢١ ، ص : ١١٢

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى ما يأتي :

١- لا فائدة ولا جدوى في هداية المشركين المكابرين المعاندين الذي ألفوا تقليد الأسلاف في الكفر ، فماتت عقولهم ، وعميت بصائرهم.

٢- إنما الفائدة تظهر في إسماع مواعظ اللّه المؤمنين الذين يصغون إلى أدلة التوحيد ، ويستعدون

لقبول الهداية إن ظهرت لهم دلائلها.

٣- المقصود من قوله تعالى : فَإِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتى سماع التدبر والفهم والاتعاظ ، وهذا لا يعارض الثابت في السنة النبوية من إمكان سماع الأموات كلام الأحياء.

روى عبد اللّه بن عمر أن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم خاطب القتلى الذين ألقوا في قليب (بئر) بدر ، بعد ثلاثة أيام ، وعاتبهم وقرعهم ، حتى قال له عمر :

يا رسول اللّه ، ما تخاطب من قوم قد جيّفوا ؟ - أي أنتنوا- فقال : « و الذي نفسي بيده ، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ، ولكن لا يجيبون » .

وهذا هو الصحيح المؤيد بالشواهد الكثيرة ، منها

ما رواه ابن عبد البر ، مصحّحا له عن ابن عباس مرفوعا : « ما من أحد يمرّ بقبر أخيه المسلم ، كان يعرفه في الدنيا ، فيسلم عليه إلا ردّ اللّه عليه روحه ، حتى يرد عليه السلام » .

و

ثبت عنه صلّى اللّه عليه وسلّم في تعريفه أمته كيفية السلام على أهل القبور أن يقولوا كما يخاطب الأحياء : « السلام عليكم دار قوم مؤمنين »

وهذا خطاب لمن يسمع ويعقل ، ولو لا هذا الخطاب لكانوا بمنزلة خطاب المعدوم والجماد. و

روى ابن أبي الدنيا عن عائشة رضي اللّه عنها قالت :

قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : « ما من رجل يزور قبر أخيه ، ويجلس عنده إلا استأنس به ، ورد عليه حتى يقوم » .

وقال أبو هريرة رضي اللّه عنه : إذا مرّ الرجل بقبر يعرفه ، فسلّم عليه ، رد عليه السلام.

ج ٢١ ، ص : ١١٣

و أجمع السلف على هذا ، وشرع السلام على الموتى ، مما يدل على شعورهم وعلمهم بالمسلّم ، و

علّم النبي صلّى اللّه عليه وسلّم أمته إذا رأوا القبور أن يقولوا فيما رواه مسلم عن بريدة : « السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين ، وإنا إن شاء اللّه بكم حقون ، يرحم اللّه المستقدمين منا ومنكم والمستأخرين ، نسأل اللّه لنا ولكم العافية » .

وكل ذلك دال على أن السلام والخطاب والنداء لموجود يسمع ويخاطب ويعقل ، ويرد ، وإن لم يسمع المسلّم الرد « ١ » .

أطوار حياة الإنسان [سورة الروم (٣٠) : آية ٥٤]

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَشَيْبَةً يَخْلُقُ ما يَشاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ (٥٤)

البلاغة :

ضَعْفٍ وقُوَّةً بينهما طباق.

الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ صيغة مبالغة على وزن فعيل ، معناه التام العلم والقدرة.

المفردات اللغوية :

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ

خلقكم من أصل ضعيف وهو النطفة ، أو ابتدأكم ضعفاء ، وجعل الضعف أساس أمركم ، كقوله : خُلِقَ الْإِنْسانُ ضَعِيفاً [النساء ٤/ ٢٨] والضعف : ما قابل القوة ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً أي بعد ضعف الطفولة قوة الشباب بعد بلوغ الحلم ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَشَيْبَةً أي جعل بعد قوة الرجولة ضعف الكبر وشيب الهرم. والشيب :

بياض الشعر. والضعف : بفتح الضاد وضمه. يَخْلُقُ ما يَشاءُ من الضعف والقوة والشباب والشيبة وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ أي إن تلك الأطوار والأحوال التي يمر بها الإنسان بمشيئة اللّه دليل العلم والقدرة ، فهو العليم بتدبير خلقه ، القدير على ما يشاء.

---

(١) تفسير ابن كثير : ٣/ ٤٣٨- ٤٣٩

ج ٢١ ، ص : ١١٤

المناسبة :

بعد بيان أدلة الآفاق من إرسال الرياح وإنزال المطر على الوحدانية ، ذكر تعالى دليلا آخر عليها من الأنفس ، وهو خلق الآدمي ومروره بأدوار مختلفة تحتاج إلى العلم والقدرة الشاملة ، وذلك لا يتصف بهما غير اللّه عز وجل.

التفسير والبيان :

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ، ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَشَيْبَةً أي إن اللّه تعالى هو الذي جعل الإنسان يمر في أطوار متفاوتة من الخلق حالا بعد حال ، فجعل أصله من تراب ، ثم من نطفة ، ثم من علقة ، ثم من مضغة ، ثم كون عظامه ، ثم كسا العظام لحما ، ونفخ فيه الروح ، ثم أخرجه من بطن أمه ضعيفا نحيفا واهن القوى ، فقوله مِنْ ضَعْفٍ أي ابتدأه ضعيفا.

ثم يشبّ قليلا قليلا فيكون صغيرا ، ثم شابا بالغا ، وهذا دور القوة بعد الضعف ، ثم يأتي دور الضعف من ابتداء الكهولة إلى الهرم والشيخوخة ، وهو الضعف بعد القوة ، فتضعف الهمة والحركة وتتغير الصفات الظاهرة والباطنة.

هذا الانتقال والتدرج والتحول من حال إلى حال دليل على القدرة الإلهية الخالقة ، وبرهان على البعث الذي ينكره المشركون ، فإن القادر على هذا التغيير والتبديل قادر على الإعادة مرة أخرى إلى الحياة الأولى كما كانت لأن من كانت قدرته تامة شاملة لا يصح مقارنتها بقدرة الإنسان النسبية ، ولا يعجزه شيء ، سواء في بدء الخلق أم حال إعادته.

يَخْلُقُ ما يَشاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ أي يفعل اللّه ما يشاء ، ويوجد ويبدع ما يشاء من ضعف وقوة ، وبدء وإعادة ، ويتصرف في عبيده بما يريد ،

ج ٢١ ، ص : ١١٥

و هو العليم التام العلم بتدبير خلقه ، القدير الشامل القدرة على ما يشاء ، ومن آثار قدرته إحياء الناس وإماتتهم ثم بعثهم أحياء عند ما يريد.

فقه الحياة أو الأحكام :

هذه الآية تتضمن استدلالا آخر على قدرة اللّه في نفس الإنسان ، ليعتبر ويبادر إلى الإيمان باللّه واليوم الآخر ، فإن الآلة الجامدة تظل على وتيرة واحدة لأن صانعها وهو الإنسان محدود القدرة ، أما الإنسان الذي يمر بمراحل ثلاث ، متفاوتة هبوطا وصعودا ، ضعفا وقوة ، لا يبقى على حال واحدة ، وإنما يتغير.

والتغير والتدرج ليس مجرد طبيعة دون مدبر ولا مغير ، وإنما يحتاج كل طور من مراحل التغير إلى خالق مبدع ، وقادر عظيم ، ولا يستطيع ذلك أحد غير اللّه صاحب التكوين والإرادة ، والأمر والنفوذ الشامل ، فهو وحده الخالق ما يشاء من قوة وضعف ، وهو العليم بتدبيره ، القدير على إرادته ، وهو الفعال لما يريد ، المتصرف في مخلوقاته كيف يشاء.

أحوال البعث ومقارنتها بأحوال الدنيا [سورة الروم (٣٠) : الآيات ٥٥ الى ٥٧]

وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ ما لَبِثُوا غَيْرَ ساعَةٍ كَذلِكَ كانُوا يُؤْفَكُونَ (٥٥) وَقالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتابِ اللَّهِ إِلى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهذا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٥٦) فَيَوْمَئِذٍ لا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٥٧)

ج ٢١ ، ص : ١١٦

الإعراب :

لا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ قرئ ينفع بالياء وبالتاء ، أما قراءة التاء فعلى الأصل من التطابق بين الفعل والفاعل ، وأما قراءة الياء فبسبب وجود الفاصل بينهما.

فَهذا يَوْمُ الْبَعْثِ الفاء لجواب شرط محذوف ، تقديره : إن كنتم منكرين البعث ، فهذا يومه ، أي فقد تبين بطلان إنكاركم.

البلاغة :

وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ ما لَبِثُوا غَيْرَ ساعَةٍ جناس تام بين قوله السَّاعَةُ التي هي القيامة ، وقوله السَّاعَةُ التي هي المدة الزمنية المعروفة.

المفردات اللغوية :

وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ القيامة ، سميت بها ، لأنها تقوم في آخر ساعة من ساعات الدنيا ، أو لأنها تحدث بغتة ، وصارت علما للقيامة بالتغليب كالكوكب للزهرة يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ ما لَبِثُوا يحلف الكافرون ما أقاموا في الدنيا أو في القبور غَيْرَ ساعَةٍ مدة زمنية قليلة كَذلِكَ كانُوا يُؤْفَكُونَ أي مثل ذلك الصرف عن الواقع في مدة اللبث كانوا يصرفون في الدنيا عن الحق الذي هو البعث وغيره من قول الحق والنطق بالصدق. يقال : أفك الرجل : إذا صرف عن الصدق والحق والخير.

أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمانَ الملائكة أو الإنس المؤمنون فِي كِتابِ اللَّهِ فيما كتبه في سابق علمه أو قضائه فَهذا يَوْمُ الْبَعْثِ الذي أنكرتموه وَلكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ أنه حق واقع لتفريطهم في النظر مَعْذِرَتُهُمْ أي عذرهم في إنكارهم له وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ لا يطلب منهم العتبى ، أي الرجوع إلى ما يرضي اللّه تعالى ، يقال : استعتبني فلان فأعتبته ، أي استرضاني فأرضيته.

المناسبة :

بعد بيان أدلة التوحيد في خلق الإنسان في النشأة الأولى ، ودلائل البعث والإعادة مرة أخرى إلى الحياة ، ذكر اللّه تعالى أحوال البعث ومقارنتها بأحوال الدنيا ، وما يحدث يوم القيامة من مناقشات بين أهل الإيمان وبين المجرمين ،

ج ٢١ ، ص : ١١٧

و اكتشاف جهل الكفار في الدنيا والآخرة ، أما في الدنيا فعكوفهم على عبادة الأوثان ، وأما في الآخرة فإقسامهم باللّه أنهم ما لبثوا غير ساعة واحدة في الدنيا.

التفسير والبيان :

وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ ما لَبِثُوا غَيْرَ ساعَةٍ أي حين تقوم القيامة ويبعث اللّه الناس من قبورهم ، وما يتعرضون له من أهوال جسام طويلة الأمد ، يحلف الكفار الآثمون أنهم ما أقاموا في الدنيا أو في القبور غير ساعة واحدة ، أي مدة قليلة من الزمان ، قاصدين بذلك عدم قيام الحجة عليهم ، وأنهم لم ينظروا مدة معقولة ، حتى يعذرون فيما هم عليه من تقصير.

وهذا دليل واضح على قصر مدة الدنيا مهما طالت ، إذا قورنت بالآخرة ، وأن الذي يوعد بالشر يستقل المدة التي عاشها ، أما الموعود بالخير فيستكثر المدة مهما قلت : كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَها لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحاها [النازعات ٧٩/ ٤٦].

كَذلِكَ كانُوا يُؤْفَكُونَ أي مثل ذلك الصرف عن تقدير الحقيقة والواقع في مدة اللبث ، كانوا يصرفون من الحق إلى الباطل ، ومن الصدق إلى الكذب ، والمراد أنهم كاذبون في قولهم : ما لبثنا غير ساعة ، وفي حلفهم على الكذب ، وأنهم مغترون بزينة الدنيا ومتاعها وزخرفها ، فإذا عرفوا ذلك ربما حملهم على ترك العناد ، وسلوك طريق الرشاد.

وفي هذا دلالة على أن إصرارهم على الكفر ، صرفهم عن التفكير فيما هو حق وعن الاعتقاد بالبعث واليوم الآخر.

ثم ذكر جواب المؤمنين لهم في موقف القيامة ، فقال تعالى :

وَقالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمانَ : لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتابِ اللَّهِ إِلى يَوْمِ

الْبَعْثِ

أي فردّ المؤمنون العالمون بالآخرون على منكري البعث القائلين الحالفين بأنهم لم يلبثوا غير ساعة : لقد لبثتم في علم اللّه وقضائه مدة طويلة في الدنيا من يوم خلقتم إلى أن بعثتم.

و في هذا إشارة إلى أن المؤمن العالم يستكثر مدة المكث في الدنيا لأنه متطلع مشتاق إلى نعيم الجنة وخلودها ، وهو يعلم أن مصيره إلى الجنة ، فيستكثر المدة ، ولا يريد التأخير.

فَهذا يَوْمُ الْبَعْثِ ، وَلكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ أي إن كنتم منكرين للبعث فهذا يومه الواقع الذي لا سبيل لإنكاره ، وبه يتبين بطلان إنكاركم إياه ، غير أنكم تجهلون أنه حق واقع ، لتفريطكم في النظر وغفلتكم عن أدلة ثبوته.

فَيَوْمَئِذٍ لا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ ، وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ أي ففي يوم القيامة لا ينفع هؤلاء الظالمين الكافرين عذرهم أو اعتذارهم عما فعلوا ، ولا تقبل منهم توبتهم لأن وقت التوبة في دار الدنيا ، وهي دار العمل ، أما الآخرة فهي دار الجزاء ، لا وقت العمل.

وقوله : وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ معناه أنه لا يطلب منهم الإعتاب ، وهو إزالة العتب بالتوبة والطاعة التي تزيل آثار الجريمة لأنها لا تقبل منهم ، ولا يعاتبون على ذنوبهم ، وإنما يعاقبون عليها ، كما قال تعالى : وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَما هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ [فصلت ٤١/ ٢٤] فليست حالهم حال من يستعتب ويرجع عما هو عليه.

فقه الحياة أو الأحكام :

يستنبط من الآيات ما يلي :

١- إن عمر الدنيا قصير جدا إذا قورن بالآخرة.

ج ٢١ ، ص : ١١٩

٢- قوله تعالى : ما لَبِثُوا غَيْرَ ساعَةٍ لا يعني إنكار عذاب القبر أو التهوين من شأنه ، فقد صح عن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم أنه تعوذ منه ، وأمر أن يتعوذ منه ،

أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن عبد اللّه بن مسعود قال : سمع النبي صلّى اللّه عليه وسلّم أم حبيبة وهي تقول : اللهم أمتعني بزوجي رسول اللّه ، وبأبي أبي سفيان ، وبأخي معاوية ، فقال لها النبي صلّى اللّه عليه وسلّم : « لقد سألت اللّه لآجال مضروبة وأرزاق مقسومة ، ولكن سليه أن يعيذك من عذاب جهنم وعذاب القبر » .

٣- دل قوله عز وجل : كَذلِكَ كانُوا يُؤْفَكُونَ على أن الكفار كانوا يكذبون في الدنيا ، وينصرفون من الحق إلى الباطل ، وأنهم كما صرفوا عن الحق في قسمهم أنهم ما لبثوا غير ساعة ، كذلك كانوا يصرفون عن الحق في الدنيا ، كما وصفهم القرآن : يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً ، فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَما يَحْلِفُونَ لَكُمْ ، وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلى شَيْءٍ ، أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْكاذِبُونَ [المجادلة ٥٨/ ١٨] وقال تعالى : ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قالُوا : وَاللَّهِ رَبِّنا ما كُنَّا مُشْرِكِينَ ، انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا [الأنعام ٦/ ٢٣- ٢٤].

٤- العلماء بالآخرة المؤمنون بها وباللّه تعالى من الملائكة والناس يستكثرون مدة الدنيا شوقا إلى الآخرة والجنة ، أما الكافرون فيستقلّون مدة اللبث في الدنيا ، ويختارون تأخير الحشر ، والإبقاء في القبر ، تحاشيا من عذاب الآخرة ، لذا يقول المؤمنون للكفار ردا عليهم : لقد لبثتم في الدنيا أو في قبوركم إلى يوم البعث.

٥- الواقع خير شاهد ودليل ، لذا يقول المؤمنون للكفار : إن كنتم منكرين البعث فهذا يوم البعث الذي كنتم تنكرونه.

٦- إذا جاء الموت أو يوم القيامة لا ينفع العلم بالقيامة ولا الاعتذار يومئذ ، ولا يطلب من الكفار العتبى ، أي إزالة العتب بالتوبة التي تسقط الذنب ،

ج ٢١ ، ص : ١٢٠

(١٢١/٢١)

و لا تقبل التوبة حينئذ لأن وقتها ووقت التكليف وهو دار الدنيا قد فات ، ولم يبق أمامهم إلا دار الجزاء والعقاب ، فيعاقبون على أعمالهم التي عملوها.

مهمة القرآن في بيان أدلة العقيدة وأمر النبي بالصبر على الأذى والدعوة [سورة الروم (٣٠) : الآيات ٥٨ الى ٦٠]

وَلَقَدْ ضَرَبْنا لِلنَّاسِ فِي هذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ مُبْطِلُونَ (٥٨) كَذلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلى قُلُوبِ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ (٥٩) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ (٦٠)

المفردات اللغوية :

وَلَقَدْ ضَرَبْنا لِلنَّاسِ فِي هذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ أي بينا لهم في القرآن أدلة التوحيد والبعث وصدق الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم مقرونة بالأمثلة ، تنبيها لهم ، والمثل : الصفة التي هي في الغرابة كالأمثال وَلَئِنْ اللام لام القسم جِئْتَهُمْ يا محمد بِآيَةٍ من آيات القرآن لَيَقُولَنَّ « ١ » الَّذِينَ كَفَرُوا منهم ، من فرط عنادهم وقساوة قلوبهم إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ما أنتم أي الرسول والمؤمنون إلا مزورون أصحاب أباطيل متبعون الباطل.

كَذلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلى قُلُوبِ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ أي مثل ذلك الطبع يطبع على قلوب هؤلاء الجهلة الذين لا يطلبون العلم ، ويصرّون على خرافات اعتقدوها فإن الجهل المركب يمنع إدراك الحق ، ويوجب تكذيب المحق.

فَاصْبِرْ أيها النبي على أذى قومك وعلى دعوتك إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ بنصرك عليهم وإظهار دينك على الدين كله حَقٌّ لا بد من إنجازه وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ أي ولا يحملنك على الخفة والطيش والقلق بترك الصبر أي لا تتركه الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ بتكذيبهم وإيذائهم ، فإنهم ضالون.

)

(١) حذفت منه نون الرفع لتوالي النونات ، وحذفت وأو الجماعة لالتقاء الساكنين.

ج ٢١ ، ص : ١٢١

المناسبة :

بعد بيان أدلة التوحيد والبعث وصدق الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم ، ختم اللّه السورة بوصف إجمالي للقرآن وهو أنه كتاب العبر والأمثال لإزالة الأعذار ، والكتاب المخلص غاية الإخلاص للبشرية بتقديم الإنذارات الكافية ، ثم أردفه ببيان تحقيق جميع أهدافه على يد الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم الذي بلغ الغاية القصوى في تبليغ دعوته ، وأنه لم يبق منه تقصير.

فإن طلب الكفار شيئا آخر غير القرآن وهذا النبي ، فذلك عناد ، لم يفدهم بعده أي بيان إذ من هان عليه تكذيب دليل ، سهل عليه تكذيب الأدلة كلها.

التفسير والبيان :

وَلَقَدْ ضَرَبْنا لِلنَّاسِ فِي هذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ أي ولقد بينا لهم الحق ووضحناه ، وضربنا لهم فيه الأمثال الدالة على وحدانية الخالق وعلى البعث وصدق الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم ، ليستبينوا الحق ويتبعوه ، ولم يحصل تقصير من جانب الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم في تبليغ الدعوة إلى اللّه ، فإن طلب الناس شيئا بعد ذلك ، فهو عناد ، ومن هان عليه تكذيب دليل ، لم يصعب عليه تكذيب الدلائل كلها كفرا وعنادا ، لذا قال :

وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا : إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ أي وتاللّه لو رأوا أي آية كانت ، سواء كانت باقتراحهم أو غيره ، لا يؤمنون بها ، ويعتقدون أنها سحر وباطل ، وما أنتم أيها الرسول والمؤمنون إلا جماعة مبطلون تأتون بالباطل وتتبعونه ؟ !.

وذلك كما قالوا في انشقاق القمر ونحوه : إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ

ج ٢١ ، ص : ١٢٢

رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ ، وَلَوْ جاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ ، حَتَّى يَرَوُا الْعَذابَ الْأَلِيمَ

[يونس ١٠/ ٩٦- ٩٧].

و ترتب على إعراضهم عن الإيمان عنادا واستكبارا الطبع على القلوب كما قال تعالى :

كَذلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلى قُلُوبِ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ أي مثل ذلك الختم وحجب الخير والحق يختم اللّه على

قلوب الجهلة الذين لا يتعلمون ولا يعلمون حقيقة الآيات البينات في القرآن المجيد ، لسوء استعدادهم ، وإصرارهم على تقليد الأسلاف ، واعتقاد الخرافات.

ثم أمر اللّه رسوله بالصبر على مخالفتهم وأذاهم وعنادهم ، فقال :

فَاصْبِرْ ، إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ أي فاصبر أيها الرسول على أذى المشركين وتابع في تبليغ رسالتك ، فإن وعد اللّه الذي وعدك به من نصره إياك عليهم وظفرك بهم ، وجعل العاقبة لك ولأتباعك في الدنيا والآخرة ، حق ثابت لا شك فيه ، ولا بد من إنجازه والوفاء به.

وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ ولا يحملنك على الخفة والقلق جزعا مما يقول الذين لا يوقنون باللّه واليوم الآخر ، فإنهم قوم ضالون ، واثبت على ما بعثك اللّه به ، فإنه الحق الذي لا محيد عنه ، بل الحق كله منحصر فيه. وهذا إشارة إلى وجوب مداومة النبي صلّى اللّه عليه وسلّم على الدعوة إلى الإيمان.

روى ابن جرير وابن أبي حاتم وابن أبي شيبة وابن المنذر والحاكم والبيهقي أن رجلا من الخوارج نادى عليا رضي اللّه عنه ، وهو في صلاة الغداة (الفجر) فقال : وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ، وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ [الزمر ٣٩/ ٦٥] فأنصت له عليّ حتى فهم ما قال ، فأجابه وهو في الصلاة : فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ، وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ.

ج ٢١ ، ص : ١٢٣

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى ما يأتي :

١- إن القرآن المجيد هو النعمة العظمى على الإنسانية وعلى المسلمين لأنه يرشد ببيانه العجيب وأمثلته التوضيحية إلى ما يحتاجون إليه ، وينبههم على التوحيد وصدق الرسل.

٢- إن أتى النبي صلّى اللّه عليه وسلّم بآية قرآنية أو بمعجزة مثل المعجزات المادية المحسوسة للأنبياء السابقين كفلق البحر والعصا وغيرهما ، لقال الكفار : ما أنتم يا معشر المؤمنين إلا قوم مبطلون ، أي تتبعون الباطل والسحر.

٣- كما طبع أو ختم اللّه على قلوب صناديد الكفر وزعماء الشرك ، حتى لا يفهموا الآيات عن اللّه ، فكذلك يطبع على قلوب الذين لا يعلمون التوحيد وأصول الاعتقاد ، وحقيقة العبر والعظات ، وآيات اللّه البينات ، فيصبحون عديمي الفهم لكل ما يتلى عليهم من القرآن ، بسبب عنادهم وإعراضهم ، وسوء استعدادهم لقبول دعوة الحق والخير والتوحيد.

٤- على المؤمن أن يثبت على الحق الذي لا مرية فيه ، وهو دين الإسلام ، ولا يتأثر بسفاهات المشركين الذين لا يؤمنون باللّه ولا بالبعث. والخطاب في قوله : وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ للنبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، والمراد أمته. فإن قصر الخطاب على النبي صلّى اللّه عليه وسلّم فالمراد به وجوب المداومة على الدعوة إلى الإيمان ، فإنه لو سكت لقال الكافر : إنه متقلب الرأي ، لا ثبات له على مبدئه.

ج ٢١ ، ص : ١٢٤

بسم اللّه الرّحمن الرّحيم

سورة لقمان

مكية ، وهي أربع وثلاثون آية.

تسميتها :

سميت سورة لقمان لاشتمالها على قصة (لقمان الحكيم) الذي أدرك جوهر الحكمة ، بمعرفة وحدانية اللّه وعبادته ، والأمر بفضائل الأخلاق والآداب ، والنهي عن القبائح والمنكرات.

موضوعها :

تضمنت الكلام عن موضوعات السور المكية وهي إثبات أصول العقيدة من الإيمان باللّه ووحدانيته ، وتصديق النبوة ، والإقرار بالبعث واليوم الآخر.

(١٢٥/٢١)

و سبب نزولها أن قريشا سألت النبي صلّى اللّه عليه وسلّم عن قصة لقمان مع ابنه وعن بره والديه ، فنزلت.

صلتها بما قبلها أو مناسبتها لما قبلها :

تظهر صلة هذه السورة بسورة الروم قبلها من وجوه :

١- قال تعالى في آخر السورة السابقة : وَلَقَدْ ضَرَبْنا لِلنَّاسِ فِي هذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ إشارة إلى كون القرآن معجزة ، وقال في مطلع هذه السورة :

تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْحَكِيمِ ، هُدىً وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ.

ج ٢١ ، ص : ١٢٥

٢- كذلك قال سبحانه في آخر السورة المتقدمة : وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ إشارة إلى أن المشركين يكفرون بالآيات ، وقال في هذه السورة : وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِ آياتُنا وَلَّى مُسْتَكْبِراً [٧].

٣- وصف اللّه تعالى قدرته على بدء الخلق والبعث في كلتا السورتين ، فقال في السورة السالفة : وَهُوَ

الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ [٢٧] وقال هنا : ما خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ واحِدَةٍ [٢٨].

٤- أثبت اللّه تعالى في كلتا السورتين إيمان المؤمنين بالبعث ، فقال في السورة السابقة : وَقالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمانَ : لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتابِ اللَّهِ إِلى يَوْمِ الْبَعْثِ ، فَهذا يَوْمُ الْبَعْثِ [٥٦] وهذا عين إيقانهم بالآخرة المذكور في مطلع هذه السورة : وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ.

٥- حكى اللّه تعالى في السورتين ما عليه حال المشركين من القلق والاضطراب ، إذ يضرعون إلى اللّه في وقت الشدة ، ويكفرون به وقت الرخاء ، فقال في السورة المتقدمة : وَإِذا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ...

[٣٣] وقال في هذه السورة : وَإِذا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ... [٣٢].

(١٢٦/٢١)

٦- ذكر في سورة الروم : فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ [١٥] وقد فسر بالسماع ، وفي لقمان : وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ [٦] وقد فسر بالغناء وآلات الملاهي.

٧- قابل تعالى بين السورتين ، فذكر في سورة الروم مدى اعتزاز المشركين بأموالهم ورفضهم إشراك غيرهم فيها ، وذكر هنا قصة لقمان الحكيم العبد الصالح الذي أوصى ابنه بالتواضع وترك التكبر ، كما ذكر في الأولى محاربة الروم والفرس

ج ٢١ ، ص : ١٢٦

في معركتين

(١٢٧/٢١)

عظيمتين ، وذكر في السورة الثانية في قصة لقمان الأمر بالصبر والمسالمة وترك المحاربة.

مشتملات السورة :

اشتملت هذه السورة على الموضوعات التالية : فبدأت ببيان معجزة النبي الخالدة وهي القرآن دستور الهداية الربانية ، وموقف الناس منه ، ففريق المؤمنين يصدّقون بكل ما جاء فيه ، فيظفرون بالجنان ، وفريق الكافرين الساخرين الهازئين الذي يعرضون عما فيه من الآيات ، ويضلون عن سبيل اللّه جهلا وسفها ، فيتلقون العذاب الأليم.

ثم تحدثت عن أدلة الوحدانية والقدرة الباهرة للّه ربّ العالمين من خلق العالم والكون ، وتلا ذلك بيان

قصة لقمان الحكيم ووصاياه الخالدة لابنه ، تعليما للناس وإرشادا لهم ، وعلى رأسها نبذ الشرك ، وبر الوالدين ، ورقابة اللّه على كل صغيرة وكبيرة ، وإقامة الصلاة ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، والتواضع واجتناب الكبر ، ومشي الهوينى ، وإخفاض الصوت.

وأردف ذلك توبيخ المشركين على إصرارهم على الشرك مع مشاهدتهم أدلة التوحيد ، والنعي عليهم في تقليدهم الآباء ، وجحودهم نعم اللّه الكثيرة التي لا حصر لها ، وإعلامهم أن طريق النجاة هو إسلام النفس للّه والإحسان بالعمل الصالح ، وبيان تناقضهم حين يقرّون بأن اللّه هو خالق كل شيء ثم يعبدون معه غيره ، مع أن اللّه هو مالك السموات والأرض والمنعم بجلائل النعم ، وعلمه محيط بكل شيء ، وأن خلق جميع البشر وبعثهم كخلق نفس واحدة وبعثها ، فهو المدبر والمصرف الذي لا يعجزه شيء ، وأنهم يتضرعون إليه وقت الشدة ويشركون به وقت الرخاء.

ثم أضافت السورة أدلة أخرى على القدرة الإلهية من إيلاج الليل في النهار وبالعكس ، وتسخير الشمس والقمر ، وتسيير السفن في البحار وغير ذلك.

ج ٢١ ، ص : ١٢٧

(١٢٨/٢١)

و ختمت السورة ببيان الأمر بالتقوى والخوف من عذاب يوم القيامة الذي لا بد من إتيانه ، ولا أمل فيه بنصرة أحد ، وعدم الاغترار بمتاع الدنيا وزخارفها ، والتنبيه على مفاتيح الغيب الخمسة التي اختص اللّه بعلمها ، وأن اللّه محيط علمه بالكائنات جميعها ، خبير بكل ما يجري فيها.

خصائص القرآن وأوصاف المؤمنين به [سورة لقمان (٣١) : الآيات ١ الى ٥]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الم (١) تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْحَكِيمِ (٢) هُدىً وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ (٣) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤)

أُولئِكَ عَلى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥)

الإعراب :

تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ مبتدأ وخبر والإضافة بمعنى « من » وهُدىً وَرَحْمَةً بالنصب والرفع ، فالنصب على الحال من آياتُ والعامل فيهما معنى الإشارة ، ولا يجوز أن يكون منصوبا على الحال من الْكِتابِ لأنه مضاف إليه ، ولا عامل يعمل في الحال ، وفيه خلاف. والرفع :

إما خبر تِلْكَ وآياتُ : بدلا من تِلْكَ وإما خبر بعد خبر ، كقولهم : هذا حلو حامض ، وإما خبر مبتدأ محذوف ، تقديره : هو هدى.

البلاغة :

هُدىً وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ عبر بالمصدر عن اسم الفاعل للمبالغة.

تِلْكَ آياتُ إشارة بالبعيد عن القريب لبيان علو الرتبة وسمو القدر.

وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ، أُولئِكَ عَلى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ إطناب بتكرار الضمير هُمْ واسم الإشارة أُولئِكَ لزيادة الثناء عليهم وتكريمهم. وقوله هُمُ الْمُفْلِحُونَ يفيد الحصر ، أي هم المفلحون لا غيرهم.

ج ٢١ ، ص : ١٢٨

المفردات اللغوية :

الم يشبه افتتاح سورة البقرة المدنية ، وجاء على وفق المعروف غالبا في السور المكية التي تبدأ بأحرف هجائية ، للتنبيه على إعجاز القرآن ، وللإشارة إلى أن هذه الأحرف « ألف ، لام ، ميم » ينطق بها العرب قاطبة ، ولكنهم عاجزون عن معارضتها بالإتيان بمثل سورة أو عشر سور من القرآن ، مما يدل على أنه تنزيل من حكيم حميد. تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْحَكِيمِ أي هذه الآيات آيات القرآن المتصف بالحكمة.

هُدىً وَرَحْمَةً أي الآيات هادية راحمة الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ بيان للمحسنين هُمْ يُوقِنُونَ هم الثانية للتأكيد وَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ الفائزون ، لاستجماعهم العقيدة الحقة والعمل الصالح.

التفسير والبيان :

الم. تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْحَكِيمِ أي إن هذا القرآن مكوّن من الحروف ذاتها التي تنطقون بها ، فهل تأتون بمثل آياته ؟ فهذه آيات القرآن ذي الحكمة ، الذي لا خلل فيه ولا عوج ، ولا تناقض فيه ولا اختلاف ، بل هو آيات بينات واضحات.

ثم ذكر تعالى الغاية من تنزيله فقال :

هُدىً وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ أي هذه الآيات القرآنية هدى وشفاء من الضلال ، ورحمة تنقذ المؤمنين بها من العقاب ، وهم الذين أحسنوا العمل ، واتبعوا الشريعة ، فأقاموا الصلاة المفروضة بحدودها وفي أوقاتها ، مع نوافلها ، وآتوا الزكاة المفروضة عليهم إلى مستحقيها ، وصدقوا وأيقنوا بوجود الآخرة وبالجزاء العادل فيها ، ورغبوا إلى اللّه في الثواب ، دون مراءاة ولا جزاء ولا شكور من الناس.

أُولئِكَ عَلى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ أي هؤلاء الموصوفون بما ذكرهم في قمة الهداية

والفلاح ، فهم المهديون أي على بصيرة ونور ومنهج
ج ٢١ ، ص : ١٢٩

(١٣٠/٢١)

واضح من اللّه ، وهم الفائزون وحدهم في الدنيا والآخرة. وقوله : أُولئِكَ إشارة إلى علو المرتبة والتعظيم الذي يستحقونه ، إذ لا فلاح إلا بإحسان العمل ، ولا خير إلا في الإيمان.

فقه الحياة أو الأحكام :

يستنبط من الآيات ما هو آت :

١- إن آيات القرآن العظيم محكمة لا خلل فيها ولا تناقض ، ولا عيب فيها ولا تعارض ، وهي دستور الهداية الربانية ، وسبيل استحقاق الرحمة الإلهية ، التي لا يستحقها إلا المحسنون. والمحسن : الذي يعبد اللّه كأنه يراه ، فإن لم يكن يراه ، فإنه يراه ، أو هو الآتي بالإيمان ، المتقي الشرك والعناد.

٢- إن من أخص صفات المحسنين إقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والإيمان باليوم الآخر.

٣- هؤلاء المحسنون استنارت قلوبهم وعقولهم بمنهج اللّه تعالى ، فالتزموا أوامره ، واجتنبوا نواهيه ، ففازوا وحدهم بسعادة الدنيا والآخرة.

٤- إن وصف القرآن بالحكمة في قوله تعالى : الْكِتابِ الْحَكِيمِ مناسب لموضوع السورة في بيان الحكمة في قصة لقمان وما يؤيدها من آي السورة في تقرير التوحيد ، وهدم الشرك وإثبات البعث والنبوة ، والدعوة إلى مكارم الأخلاق ، والإيمان بعالم الغيب والشهادة ، المنعم على عباده بالنعم الكثيرة الظاهرة والباطنة.

ج ٢١ ، ص : ١٣٠

إعراض الكافرين عن القرآن وإقبال المؤمنين عليه [سورة لقمان (٣١) : الآيات ٦ الى ٩]

(١٣١/٢١)

وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَها هُزُواً أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ (٦) وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِ آياتُنا وَلَّى مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْها كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً فَبَشِّرْهُ بِعَذابٍ أَلِيمٍ (٧) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ (٨) خالِدِينَ فِيها وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٩)

الإعراب :

وَيَتَّخِذَها بالنصب عطفا على لِيُضِلَّ وبالرفع عطفا على يَشْتَرِي أو على الاستئناف. وهاء يَتَّخِذَها يعود على السبيل لأنها مؤنثة كما في قوله تعالى : قُلْ : هذِهِ سَبِيلِي [يوسف ١٢/ ١٠٨] وتذكّر كما في قوله تعالى : وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ، وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا [الأعراف ٧/ ١٤٦]. وباء بِغَيْرِ عِلْمٍ للحال ، تقديره :

ليضل عن سبيل اللّه جاهلا.

وَلَّى مُسْتَكْبِراً حال من ضمير وَلَّى وكاف كَأَنْ لَمْ في موضع نصب على الحال ، تقديره : ولّى مستكبرا مشبها من في أذنيه وقر ، وقوله : كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ حال أخرى أو بيان للحال الأولى.

لَهُمْ جَنَّاتُ مرفوع بالجار والمجرور لوقوعه خبرا عن المبتدأ وخالِدِينَ منصوب على الحال من هاء وميم لَهُمْ.

البلاغة :

مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ استعارة تصريحية ، شبه حاله بحال من يشتري سلعة وهو خاسر فيها ، واستعار لفظ يَشْتَرِي لمعنى « يستبدل » بطريق الاستعارة.

كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً تشبيه مرسل مجمل ، حذف منه وجه الشبه ، وذكر فيه أداة التشبيه.

ج ٢١ ، ص : ١٣١

فَبَشِّرْهُ بِعَذابٍ أَلِيمٍ أسلوب تهكم لأن البشارة المستعملة في الخير استعملت في الشر تهكما وسخرية.

(١٣٢/٢١)

بِعَذابٍ أَلِيمٍ جَنَّاتُ النَّعِيمِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ مراعاة الفواصل في الحرف الأخير ، وهو السجع الحسن غير المتكلف.

المفردات اللغوية :

لَهْوَ الْحَدِيثِ ما يلهي منه عما يعني ويفيد من الحكايات والأساطير والمضاحك وفضول الكلام ، وكتب الأعاجم ، والجواري المغنيات. واللهو : كل باطل ألهى عن الحق والخير. وقد اشتريت تلك الملاهي بالفعل ، والإضافة بيانية بمعنى « من » إن أراد بالحديث المنكر ، وتبعيضية إن أراد به الأعم منه لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ليصرف الناس عن دين اللّه وهو طريق الإسلام ، أو قراءة كتابه بِغَيْرِ عِلْمٍ غير عالم بحال ما يشتريه ، أو بالتجارة ، حيث استبدل اللهو بقراءة القرآن وَيَتَّخِذَها هُزُواً ويتخذ السبيل سخرية مهزوءا بها لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ عذاب فيه غاية الإهانة لإهانتهم الحق باستئثار الباطل عليه.

وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِ آياتُنا القرآن وَلَّى مُسْتَكْبِراً متكبرا لا يعبأ بها كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْها مشابها حاله حال من لم يسمعها كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً مشابها من في أذنيه صمم أو ثقل يمنع من السماع فَبَشِّرْهُ بِعَذابٍ أَلِيمٍ أعلمه

بوقوعه في عذاب مؤلم لا محالة ، وذكر البشارة تهكم به لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ أي لهم نعيم جنات ، فعكس للمبالغة خالِدِينَ فِيها أي مقدرا خلودهم فيها إذا دخلوها وَعْدَ اللَّهِ ، حَقًّا مصدران مؤكدان : الأول لنفسه ، والثاني لغيره ، أي وعدهم اللّه ذلك وحقه حقا لأن قوله لَهُمْ جَنَّاتُ وعد ، وليس كل وعد حقا وَهُوَ الْعَزِيزُ الذي لا يغلبه شيء ، فيمنعه من إنجاز وعده ووعيده الْحَكِيمُ الذي لا يضع شيئا إلا في محله ، ولا يفعل إلا ما تستدعيه حكمته.

سبب النزول : نزول الآية (٦) :

(١٣٣/٢١)

أخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله : وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ قال : نزلت في رجل من قريش اشترى جارية مغنية. وأخرج جويبر عن ابن عباس قال : نزلت في النضر بن الحارث اشترى قينة (مغنية)

ج ٢١ ، ص : ١٣٢

و كان لا يسمع بأحد يريد الإسلام ، إلا انطلق به إلى قينته ، فيقول : أطعميه واسقيه وغنيه ، هذا خير مما يدعوك إليه محمّد من الصلاة والصيام ، وأن تقاتل بين يديه ، فنزلت.

وقال مقاتل : نزلت في النضر بن الحارث ، كان يخرج تاجرا إلى فارس ، فيشتري كتب الأعاجم ، فيرويها ويحدّث بها قريشا ، ويقول لهم : إن محمدا صلّى اللّه عليه وسلّم يحدثكم حديث عاد وثمود ، وأنا أحدثكم حديث رستم وإسفنديار ، وأخبار الأكاسرة ، فيستملحون حديثه ، ويتركون سماع القرآن.

المناسبة :

بعد بيان أن القرآن كتاب حكيم يشتمل على آيات حكيمة ، وبعد بيان حال السعداء المهتدين بهديه ، المنتفعين بسماعه ، بيّن اللّه تعالى حال الكفار الأشقياء التاركين له المشتغلين بغيره ، وأعقبه بوعيدهم بالعذاب المهين المؤلم ، وعطف عليه وعد المؤمنين به المقبلين على تلاوته ، الملتزمين حدوده من أوامر ونواه.

التفسير والبيان :

(١٣٤/٢١)

وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، وَيَتَّخِذَها هُزُواً ، أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ أي وهناك فريق من الناس يستبدل بالنافع الضار ، وبالقرآن الشافي ما يتلهى به من

الحكايات والأساطير وفضول الكلام ، والمضاحك ، والاستماع إلى غناء الجواري ، كالنضر بن الحارث الذي كان يشتري كتب الفرس ويحدّث بها الناس ، ويقتني المغنيات لاجتذاب الشبان ، وإغراء من أسلم حديثا ، لحملة على ترك الإسلام ، وإضلاله عن دين اللّه وهو دين الإسلام ، والصد عنه ، واتخاذه هزوا وسخرية ، جهلا بخطورة ما يفعل من استبدال اللهو بقراءة القرآن ، وأولئك وهم الموغلون في الكفر والضلال يحيق بهم عذاب بالغ الإهانة. وقوله عَذابٌ مُهِينٌ للتفرقة بين عذاب الكافر وعذاب

ج ٢١ ، ص : ١٣٣

المؤمن ، فإن عذاب المؤمن للتطهير ، فهو غير مهين ، وأما عذاب الكافر فهو في غاية الإهانة ، فكما استهان بآيات اللّه وسبيله أهين يوم القيامة في العذاب الدائم المستمر.

وقوله لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بضم الياء معناه لمخالفة الإسلام وأهله ومعاداتهم ، واللام لام التعليل ، أي ارتكب هذا الفعل من أجل الإضلال والصد عن سبيل اللّه. وعلى قراءة فتح الياء تكون اللام لام العاقبة ، أي لتكون عاقبة أمره الإضلال ، واتخاذ آيات اللّه هزوا وسخرية.

ثم وصف اللّه تعالى هؤلاء المضلين بالإمعان في الضلال والكفر ، وازدياد الإعراض والنفور عن دين اللّه ، فقال :

وَ إِذا تُتْلى عَلَيْهِ آياتُنا وَلَّى مُسْتَكْبِراً ، كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْها ، كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً ، فَبَشِّرْهُ بِعَذابٍ أَلِيمٍ أي إن من يشتري الحديث الباطل إذا تليت عليه آيات القرآن أدبر وأعرض عنها متكبرا ، وتصامم عن سماعها ، وإن لم يكن به صمم ، كأنه ما سمعها ، وكأن في أذنيه صمما وثقلا لأنه يتأذى بها ، ولا ينتفع منها ، ولا أرب له فيها ، فبشر هذا المعرض بعذاب يؤلمه يوم القيامة ، كما تألم بسماع كتاب اللّه وآياته.

وبعد بيان حال هؤلاء الأشقياء ، ذكر اللّه تعالى مآل الأبرار السعداء في الدار الآخرة ، فقال :

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ ، خالِدِينَ فِيها ، وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ أي إن الذين آمنوا باللّه ، وصدقوا المرسلين ، وعملوا الأعمال الصالحة من الائتمار بالأوامر الشرعية ، واجتناب المحظورات والمناهي ، لهم جنات يتنعمون فيها بأنواع الملاذ والمسارّ من المآكل والمشارب ، والملابس والمساكن ، والمراكب وغير ذلك من المتع مما لم يخطر لأحدهم ببال ، وهم

ج ٢١ ، ص : ١٣٤

فيها مقيمون دائما لا يظعنون ، ولا يبغون عنها حولا.

وهذا كائن لا محالة لأنه وعد اللّه الذي لا يخلف وعده لأنه الكريم المنّان ، الفعال لما يشاء ، القادر على كل شي ء.

(١٣٦/٢١)

و هو العزيز القوي الذي قهر كل شيء ودان له كل شيء ، فلا ينجو منه مشرك ولا غيره ، وهو الحكيم في أقواله وأفعاله ، الذي جعل القرآن هدى للمؤمنين. ونحو موضوع الآيتين السابقتين قوله تعالى : قُلْ : هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَشِفاءٌ ، وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذانِهِمْ وَقْرٌ ، وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى [فصلت ٤١/ ٤٤] وقوله سبحانه : وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ ما هُوَ شِفاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ، وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَساراً [الإسراء ١٧/ ٨٢].

فقه الحياة أو الأحكام :

١- إن من أعظم الجرائم الإعراض عن سماع القرآن كلام اللّه ، وشغل الناس بسماع غيره من أنواع الكلام غير المفيد من القصص والأساطير والمضاحيك ونحو ذلك من ألوان اللهو والعبث ، بقصد الإضلال والصد عن دين اللّه تعالى ، ويستحق المعرض المتولي تكبرا عن القرآن عذابا أليما.

٢- استدل ابن مسعود وابن عباس وغيرهما بقوله : لَهْوَ الْحَدِيثِ على منع استماع المزامير والغناء بالألحان وآلات الطرب.

وهذه الآية إحدى الآيات الثلاث التي استدل بها العلماء على كراهة الغناء والمنع منه. والآية الثانية : قوله تعالى : وَأَنْتُمْ سامِدُونَ [النجم ٥٣/ ٦١] قال ابن عباس : هو الغناء ، بالحميريّة اسمدي لنا ، أي غنّي لنا. والآية الثالثة :

قوله تعالى : وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ [الإسراء ١٧/ ٦٤] قال مجاهد : الغناء والمزامير.

ج ٢١ ، ص : ١٣٥

روى الترمذي وغيره من حديث أنس وغيره عن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم أنه قال : « صوتان ملعونان فاجران أنهى عنهما : صوت مزمار ، ورنّة شيطان عند نغمة ومرح ، ورنّة عند مصيبة لطم خدود ، وشق جيوب »

و

أخرج أبو طالب الغيلاني عن علي رضي اللّه عنه قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : « بعثت بكسر المزامير »

و

(١٣٧/٢١)

أخرج ابن بشران عن ابن عباس أن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم قال : « بعثت بهدم المزامير والطبل »

و

روى ابن المبارك عن أنس بن مالك قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : « من جلس إلى قينة يسمع منها ، صبّ في أذنه الآنك « ١ » يوم القيامة » .

وبناء عليه ، قال العلماء بتحريم الغناء.

حكم الغناء عند الفقهاء :

للفقهاء ، ومنهم علماء المذاهب الأربعة على المعتمد لديهم تفصيل في حكم الغناء هو ما يأتي « ٢ » :

أ- الغناء الحرام : هو الذي يحرّك النفوس ، ويبعثها على الهوى والغزل ، والمجون ، بكلام يشبّب فيه بذكر النساء ووصف محاسنهن ، وذكر الخمور والمحرّمات لأنه اللهو والغناء المذموم بالاتفاق. وإذا لم يجز فأخذ الأجرة عليه لا يجوز ب- الغناء المباح : هو ما سلم مما ذكر ، فيجوز القليل منه في أوقات الفرح كالعرس والعيد ، وعند التنشيط على الأعمال الشاقة ، كما كان في حفر الخندق حول المدينة ، وحدو أنجشة « ٣ » .

---

(١) الآنك : الرصاص. إلا أن الحديث ضعيف.

(٢) تفسير القرطبي : ١٤/ ٥٤

(٣) أنجشة : هو عبد أسود كان يسوق إبل نساء النبي صلّى اللّه عليه وسلّم عام حجة الوداع ، وكان حسن الحداء ، وكانت الإبل تزيد في الحركة بحدائه.

ج- أما ما ابتدعته الصوفية اليوم من الإدمان على سماع المغاني بالآلات المطربة من الشبّابات « ١ » والطار والمعازف والأوتار فحرام. وفي اليراعة « ٢ » تردد ، والدف مباح.

د- وأما طبل الحرب فلا حرج فيه لأنه يهيج النفوس ، ويرهب العدو ، فقد ضرب بين يدي النبي صلّى اللّه عليه وسلّم يوم دخل المدينة ، فهمّ أبو بكر بالزجر ،

فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : « دعهن يا أبا بكر حتى تعلم اليهود أن ديننا فسيح »

فكنّ يضر بن ويقلن :

نحن جوار من بني النجار يا حبّذا محمد من جار

هـ- لا بأس من استعمال الدّفّ في حفلات الزفاف ، وكذا الآلات المشهرة بالزواج والغناء بحسن الكلام الذي لا فحش فيه.

و- سماع الغناء من المرأة التي ليست بمحرم لا يجوز. والاشتغال بالغناء على الدوام سفه ترد به الشهادة ، فإن لم يدم لم تردّ.

ونقل عن أبي حنيفة والشافعي وأحمد بن حنبل القول بكراهة الغناء. وقال الطبري : أجمع علماء الأمصار على كراهة الغناء والمنع منه.

٣- عادة القرآن مقابلة الأشياء بأضدادها لبيان الفرق والترغيب والترهيب ، فبعد أن ذكر عذاب الكفار ذكر نعيم المؤمنين ، وهو أن للمؤمنين الذي يعملون صالح الأعمال المأمور بها شرعا نعيم الجنان ، دائمين فيها ، ووعدهم اللّه هذا وعدا حقا لا خلف فيه ، وهو وعد العزيز الذي لا يغلب ولا يعجزه شيء ، الحكيم في صنعه وفعله.

---

(١) الشبّابة : قصبة الزمر.

(٢) اليراعة : مزمار الراعي. [.....]

الاستدلال بخلق السموات والأرض على وحدانية اللّه وإبطال الشرك [سورة لقمان (٣١) : الآيات ١٠ الى ١١]

خَلَقَ السَّماواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها وَأَلْقى فِي الْأَرْضِ رَواسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيها مِنْ كُلِّ دابَّةٍ وَأَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (١٠) هذا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي ما ذا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (١١)

الإعراب :

بِغَيْرِ عَمَدٍ الباء في موضع نصب على الحال من السَّماواتِ. وتَرَوْنَها جملة فعلية في موضع جر على الصفة ل عَمَدٍ أي بغير عمد مرئية ، فالضمير راجع إلى العمد ، والعمد : قدرة اللّه وإرادته ، أو أن الضمير راجع إلى السموات ، أي ليست هي بعمد ، وأنتم ترونها كذلك بغير عمد ، وحينئذ تكون الجملة مستأنفة لا محل لها.

فَأَرُونِي ما ذا خَلَقَ .. الياء في فَأَرُونِي المفعول الأول ، وفَأَرُونِي : معلق عن العمل وما ذا خَلَقَ : سد مسد المفعول الثاني. وما ذا : ما : استفهام إنكار : مبتدأ ، وذا بمعنى الذي مع صلته : خبره.

البلاغة :

وَأَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ التفات من الغيبة إلى التكلم ، تعظيما لشأن الرحمن ، بعد قوله خَلْقُ وَأَلْقى وَبَثَّ.

هذا خَلْقُ اللَّهِ أي مخلوقه ، من قبيل إطلاق المصدر على اسم المفعول مبالغة.

ما ذا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ الاستفهام للتوبيخ والتبكيت.

بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ الأصل أن يقال : بل هم ، فوضع الظاهر موضع الضمير لزيادة التوبيخ.

ج ٢١ ، ص : ١٣٨

المفردات اللغوية :

خَلَقَ السَّماواتِ استئناف كلام جديد بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها العمد : جمع عماد : وهو الأسطوانة التي يعمد بها أي يسند به ، وتَرَوْنَها إما صفة العمد أي بغير عمد مرئية ، أو يعود الضمير إلى السَّماواتِ ، أي لا عمد لها أصلا ، وأنتم ترونها بلا عمد ، فهو استشهاد برؤيتهم لها غير معمودة رَواسِيَ جبالا ثوابت مرتفعة أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ أي لئلا تميد ، أي تتحرك وتضطرب بكم وَبَثَّ نشر وفرق زَوْجٍ كَرِيمٍ صنف حسن ، كثير المنافع. والآية دليل على عزة اللّه التي هي كمال القدرة ، والحكمة التي هي كمال العلم ، لتقرير أصل التوحيد.

هذا خَلْقُ اللَّهِ هذا الذي ذكر مخلوق اللّه فَأَرُونِي أخبروني يا أهل مكة وأمثالكم الكفار ما ذا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ماذا خلق الذين من غيره وهم آلهتكم التي أشركتموها باللّه تعالى بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ بل : للانتقال والإضراب عن تبكيتهم إلى تسجيل الضلال عليهم ، فهم في ضلال بيّن لا يخفى على ناظر ، بإشراكهم. ووضع الظاهر موضع المضمر للدلالة على أنهم ظالمون بإشراكهم.

المناسبة :

بعد قوله تعالى : وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ الدال على عزته وحكمته وكمال قدرته وعلمه وإتقان صنعه ، ذكر اللّه تعالى الأدلة على قدرته العظيمة من خلق السموات والأرض وما فيهما وما بينهما ، لتقرير وحدانيته ، وإبطال الشرك ، والتنبيه إلى وجوب اتباع الحق الذي جاءت به الرسل.

التفسير والبيان :

خَلَقَ السَّماواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها أي من أدلة قدرته تعالى العظيمة ، وحكمته السديدة أنه خلق السموات بغير أعمدة ، لا مرئية ولا غير مرئية ، والسموات كالأرض في الظاهر مبسوطة ، وفي الحقيقة مستديرة ، لقوله تعالى :

كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ [الأنبياء ٢١/ ٣٣] والفلك : اسم لشيء مستدير ، وهي على أي حال مخلوقة

بقدرة اللّه ، لا بالطبيعة ، وهي فضاء والفضاء لا نهاية له ، ولا تزول إلا بقدرة اللّه تعالى.

ج ٢١ ، ص : ١٣٩

و ليس لها عمد أصلا ، بدليل رؤية الناس لها غير معمودة. وقيل : إن لها عمدا غير مرئية ، واللّه عمدها بعمد لا ترى ، وهي إمساكها بقدرته.

والخلاصة : أنه تعالى خلق السموات بغير أعمدة تستند إليها ، بل هي قائمة بقدرة اللّه تعالى.

وَأَلْقى فِي الْأَرْضِ رَواسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ أي وجعل في الأرض جبالا شوامخ ثوابت أرست الأرض وثقلتها لئلا تضطرب بأهلها ، وتغمرها مياه البحار والمحيطات المحيطة بها ، والتي تكوّن أكثر الكرة الأرضية.

وَبَثَّ فِيها مِنْ كُلِّ دابَّةٍ أي وذرأ فيها ونشر ووزع من أصناف الحيوان التي لا يحصي عددها ، ولا يعلم أشكالها وألوانها إلا الذي خلقها.

وَأَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً ، فَأَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ أي وأنزلنا من السحاب مطرا يكون سببا لإنبات كل صنف كريم ، أي حسن المنظر ، كثير المنفعة.

ثم وبخ اللّه تعالى أولئك المشركين الذين يتركون عبادة الخالق ويشتغلون بعبادة المخلوق ، فقال :

(١٤١/٢١)

هذا خَلْقُ اللَّهِ ، فَأَرُونِي ما ذا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ، بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ أي هذا الذي ذكر من المخلوقات هو من خلق اللّه وفعله وتقديره وحده لا شريك له في ذلك ، والخلق بمعنى المخلوق ، فأخبروني أيها الكفرة ماذا خلق الذين تعبدونهم من غيره من الأصنام والأنداد. وقوله : خَلْقُ واقع على هاء محذوفة ، تقديره : فأروني أي شيء خلق الذين من دونه ، أو أروني الأشياء التي خلقها الذين من دونه.

وبعد توبيخهم على شركهم ، وصفهم تعالى بما يترتب عليه وهو الضلال ، فهم

ج ٢١ ، ص : ١٤٠

في شركهم وعبادتهم مع اللّه غيره في ضلال واضح ، فقال : بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ أي بل هؤلاء المشركين باللّه العابدون معه غيره في جهل وعمى وانحراف وكفر بيّن واضح ظاهر ، لا خفاء به ، ولا اشتباه فيه لمن تأمله ، جعلهم في غاية الضلال الذي ليس بعده ضلال.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يلي :

١- الدليل على وجود اللّه وقدرته العظمى وحكمته البالغة : هو خلق السموات بغير أعمدة تستند إليها ، وإنما أمسكها اللّه بقدرته وإرادته وخلق الأرض ذات الجبال الشوامخ الثوابت لئلا تضطرب بأهلها

وجعلها ذات أنس بما وزّع فيها من أصناف الحيوان في البر والبحر والجو ، ذوات الأشكال المختلفة ، والمناظر البديعة ، والأصوات المختلفة وإنزال الأمطار عليها لإنبات النباتات البهية المنظر ، البديعة التكوين ، الكثيرة المنافع ، سواء بثمرها إن كانت مثمرة ، أو بظلها المريح وخضرتها الممتعة للنظر والمفرحة للنفس ، أو بجعلها أسبابا لزيادة المطر.

٢- أكد تعالى قدرته الخلاقة بأن هذا المذكور المعاين هو مخلوق اللّه من غير شريك ، ثم تحدى ووبخ قائلا : أخبروني معاشر المشركين عما خلقت الآلهة المزعومة من الأصنام والأنداد ، ثم وصفهم بالوصف الملازم لهم : وهو أن المشركين في خسران ظاهر.

(١٤٢/٢١)

ج ٢١ ، ص : ١٤١

قصة لقمان الحكيم ووصيته لابنه [سورة لقمان (٣١) : الآيات ١٢ الى ١٩]

وَلَقَدْ آتَيْنا لُقْمانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّما يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (١٢) وَإِذْ قالَ لُقْمانُ لابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣) وَوَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلى وَهْنٍ وَفِصالُهُ فِي عامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (١٤) وَإِنْ جاهَداكَ عَلى أَنْ تُشْرِكَ بِي ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُما وَصاحِبْهُما فِي الدُّنْيا مَعْرُوفاً وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٥) يا بُنَيَّ إِنَّها إِنْ تَكُ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّماواتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (١٦)

يا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلى ما أَصابَكَ إِنَّ ذلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٧) وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتالٍ فَخُورٍ (١٨) وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْواتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ (١٩)

الإعراب :

وَإِذْ قالَ لُقْمانُ إِذْ : ظرف متعلق بفعل مقدر ، أي اذكر إذ قال لقمان.

ولُقْمانُ : ممنوع من الصرف للتعريف (العلمية) والألف والنون الزائدتين ، كعثمان وعمران.

ج ٢١ ، ص : ١٤٢

(١٤٣/٢١)

وَهْناً منصوب بحرف جر محذوف ، تقديره : حملته أمه بوهن ، فحذف حرف الجر ، فاتصل الفعل به فنصبه. أو حال من فاعل حَمَلَتْهُ على التأويل بالمشتق ، أي حملته أمه حال كونها ذات وهن وعلى وهن أي ذات ضعف على ضعف متتابع.

أَنِ اشْكُرْ لِي منصوب بحرف جر محذوف ، أي بأن اشكر ، وقيل : أن : مفسرة بمعنى أي ، كقوله تعالى : أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا [ص ٣٨/ ٦] ولا موضع لها من الإعراب.

إِنْ تَكُ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِثْقالَ خبر تكون الناقصة ، أي إن تكن الخصلة الموزونة مثقال حبة. وعلى قراءة الرفع فاعل تكون التامة ، وأنث فَتَكُنْ وإن كان المثقال مذكرا ، لاكتساء المضاف التأنيث من المضاف إليه ، كقولهم : ذهبت بعض أصابعه ، وكقوله تعالى :

يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ [يوسف ١٢/ ١٠].

مَرَحاً مصدر منصوب في موضع الحال ، كقولهم : جاء زيد ركضا.

البلاغة :

يَشْكُرْ وكَفَرَ بينهما طباق.

غَنِيٌّ حَمِيدٌ لَطِيفٌ خَبِيرٌ فَخُورٍ صيغة مبالغة على وزن فعيل وفعول ، أي كثير الغنى والحمد والفخر.

بِوالِدَيْهِ ، حَمَلَتْهُ أُمُّهُ ذكر الخاص بعد العام لزيادة العناية والاهتمام بالأم.

إِلَيَّ الْمَصِيرُ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فيه تقديم ما حقه التأخير لإفادة الحصر ، أي إليّ لا إلى غيري.

إِنَّها إِنْ تَكُ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ ، فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ من باب التمثيل ، مثل بذلك لبيان سعة علم اللّه ودقته وشموله جميع الأشياء حقيرها وجليلها.

فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ من باب التتميم ، تمم خفاء الأشياء في نفسها بخفاء مكانها.

وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ مقابلة بين اللفظين.

إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْواتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ استعارة تمثيلية ، شبه الرافعين أصواتهم برفع الحمير أصواتهم ، ولم يذكر أداة التشبيه ، وإنما أورده بطريق الاستعارة للمبالغة في الذم والتنفير عن رفع الصوت.

ج ٢١ ، ص : ١٤٣

المفردات اللغوية :

لُقْمانَ هو كما ذكر البيضاوي لقمان بن باعورا من أولاد آزر ، ابن أخت أيوب أو ابن خالته ، أسود من سودان مصر من النوبة ، وعاش حتى أدرك داود وأخذ منه العلم ، آتاه اللّه الحكمة ، أي العقل والفطنة

والعلم والإصابة في القول ، والجمهور على أنه كان حكيما ، ولم يكن نبيا. من أقواله : « الصمت حكم وقليل فاعله » وقيل له : أي الناس شر ؟ قال : الذي لا يبالي إن رآه الناس مسيئا.

الْحِكْمَةَ هي في عرف العلماء : استكمال النفس الإنسانية باقتباس العلوم النظرية ، واكتساب الملكة التامة على الأفعال الفاضلة ، على قدر طاقتها أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ أي بأن اشكر ، أو أي اشكر ما أعطاك من الحكمة ، والشكر : الثناء على اللّه تعالى وطاعته فيما أمر به ، واستعمال الأعضاء فيما خلقت له من الخير فَإِنَّما يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ لأن نفعه وثواب شكره عائد له وهو دوام النعمة واستحقاق المزيد منها. غَنِيٌّ عن خلقه ، لا يحتاج إلى الشكر حَمِيدٌ حقيق بالحمد ، وإن لم يحمد ، ومحمود في صنعه ، نطق بحمده جميع مخلوقاته بلسان الحال.

(١٤٥/٢١)

وَ إِذْ قالَ لُقْمانُ لِابْنِهِ أي واذكر ، واسم ابنه : أنعم ، أو أشكم ، أو ماتان أو ثاران في قول السهيلي وَهُوَ يَعِظُهُ العظة : تذكير بالخير بأسلوب رقيق يرقّ له القلب يا بُنَيَّ التصغير للإشفاق والتحبب إِنَّ الشِّرْكَ باللّه لَظُلْمٌ عَظِيمٌ الظلم : وضع الشيء في غير موضعه ، وكون الشرك ظلما لأنه تسوية بين المنعم وحده وغير المنعم وَوَصَّيْنَا الْإِنْسانَ أي أمرناه وألزمناه بِوالِدَيْهِ أي بأن يبرهما وَهْناً أي بوهن ، أي ضعف عَلى وَهْنٍ أي تضعف ضعفا فوق ضعف ، من الحمل ، فالطّلق ، فالولادة وَفِصالُهُ أي فطامه فِي عامَيْنِ في انقضاء عامين ، وفيه دليل على أن أقصى مدة الرضاع حولان أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوالِدَيْكَ تفسير لوصيّنا الْمَصِيرُ المرجع ، فأحاسبك على الشكر أو الكفر.

ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ مطابق للواقع فَلا تُطِعْهُما في ذلك مَعْرُوفاً أي بالمعروف وهو البر والصلة ، أو صحابا معروفا يرتضيه الشرع ويقتضيه الكرم.

وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنابَ إِلَيَّ أي اتبع في الدين طريق من رجع إلي بالتوحيد والإخلاص في الطاعة. وأَنابَ رجع إلى ربه بالتوبة والاستغفار فَأُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ أي أخبركم بأعمالكم ، وأجازيكم على الإيمان والكفر. والآيتان : وَوَصَّيْنَا .. وَإِنْ جاهَداكَ ..

معترضتان ضمن وصية لقمان ، تأكيدا لما فيها من النهي عن الشرك ، كأنه قال : وقد وصينا بمثل ما وصى به.

إِنَّها إِنْ تَكُ أي إن الخصلة السيئة أو الحسنة مِثْقالَ حَبَّةٍ وزن أصغر شيء مِنْ

خَرْدَلٍ

(١٤٦/٢١)

وزن حبة خردل فِي السَّماواتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ أي في أخفى مكان فيهما يَأْتِ بِهَا اللَّهُ فيحاسب عليها لَطِيفٌ باستخراجها ، يصل علمه إلى كل خفي خَبِيرٌ بمكانها ، عالم بكنه الأشياء وحقائقها وَاصْبِرْ عَلى ما أَصابَكَ من الشدائد ، وبسبب الأمر والنهي إِنَّ ذلِكَ المذكور من كل ما أمر به ونهى عنه مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ معزوماتها التي يعزم عليها لوجوبها ، أو من الأمور المعزومة التي قطعها اللّه قطع إيجاب وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ لا تمله عنهم ولا تولّهم صفحة وجهك ، كما يفعل المتكبرون ، والأصعر : المعرض بوجهه كبرا ، مأخوذ من الصّعر ، وهو داء يعتري البعير فيلوي منه عنقه مَرَحاً خيلاء وبطرا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتالٍ فَخُورٍ أي يعاقب كل متبختر في مشيه ، فخور على الناس. وهو علة للنهي. والمختال : فاعل الخيلاء ، وهي التبختر في المشي كبرا ، والفخور من الفخر : وهو المباهاة بالمال والجاه ونحو ذلك.

وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ توسط فيه غير مختال ولا مستضعف ، وغير مسرع ولا مبطئ وفي الحديث الذي رواه أبو نعيم في الحلية عن أبي هريرة وهو ضعيف : « سرعة المشي تذهب بهاء المؤمن » والمقصود بقول عائشة في عمر رضي اللّه عنهما : « كان إذا مشى أسرع » أنه يسير ما فوق دبيب المتماوت وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ أي أنقص منه وأقصر أو اخفض إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْواتِ أي أقبحها وأزعجها وأصعبها على السامع لَصَوْتُ الْحَمِيرِ أوله زفير وآخره شهيق.

المناسبة :

بعد أن بيّن اللّه تعالى فساد اعتقاد المشركين وأن المشرك ظالم ضال ، ذكر ما يدل على ضلالهم وظلمهم بمقتضى الحكمة والعلم المرشد إلى الإقرار بوحدانيته ، وإن لم يكن هناك نبوة ، فإن لقمان توصل إلى إثبات التوحيد وإطاعة اللّه والتزام مكارم الأخلاق دون نبي ولا رسول.